

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحزب والسياسة

مجلد الثاني من الجزء الثاني

المغرب والاندلس والبحر المتوسط

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الثاني

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

(٢ - المغرب والاندلس والبحر المتوسط)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أقدم فيما يلي الجزء الثاني من كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، وذلك أخذا بالخطة الموضوعية ، وقد عالجت في هذا الجزء أوجه العلاقات فيما بين أحداث تاريخ الغرب الاسلامي وأوروبا الغربية ، وإلى حد ما الشرقية ، ليس بأسهاب بل بما يكفي مقاصد التاريخ للحروب الصليبية ، وكان الباعث على كتابة هذا الجزء ليس وحدة المواجهة الاسلامية مع أوروبا الصليبية شرقا وغربا فحسب ، بل للبرهنة على أن الأمة العربية تمتلك تاريخا واحدا تفاعلت أحداثه - وما زالت - وتداخلت في المشرق والمغرب ، وأنه من المحال تقديم بحث تاريخي مقبول علميا انطلاقا من القاعدة الاقليمية .

واهتمت بشكل خاص بقيام دولة المرابطين وبشخصية يوسف ابن تاشفين وأعماله في الأندلس بالنسبة لمعركة الزلاقة ومن ثم إزالته لدول الطوائف ، وأثرت خلال البحث عدة مسائل جديدة ثم توصلت إلى إجابات فيها أيضا بعض الجدة ، ومكنني من ذلك سعة الأفق القومي وسلامته وخلوه من الشوائب مع توفر ما يحتاجه البحث من مصادر مخطوطة ومطبوعة ومراجع حديثة ، ففي أثناء إعارتي للتدريس في فاس بذلت خلال ثلاث سنوات كل جهد ممكن ليس لتعميق معارفني بتاريخ الغرب الاسلامي وإنما لاقتناء مصادر هذا التاريخ ، وعلى سبيل المثال في مكتبتي الآن ثلاث نسخ من كتاب روض القرطاس واحدة مطبوعة واثنان مخطوطتان ، ذلك أن عبد الوهاب بن منصور تلاعب بنص هذا الكتاب حين حاول اضمفاء بعض الحداثة عليه ، وصحیح انني أسهمت في تحقيق كتاب الحل الموشية ، إنما أمتلك نسخة خطية جديدة منه ، لم أستخدمها أثناء

التحقيق ، ثم إنني إهتديت - مع من أهتدي - الى معرفة مؤلف الكتاب يضاف الى هذا إن صلاتي بأقطار المغرب العربي متينة - والحمد لله - وهذا ما مكّنني - وما زال - من الحصول على الجديد من كتب التراث والدراسات الحديثة ، خاصة مطبوعات دار الغرب الاسلامي ، حيث تربطني بصاحب الدار صداقة قوية العرى .

ولقد اوليت البحر المتوسط والصراعات للسيطرة عليه وعلى جزره عنايتي ، ثم الحققت بهذا الجزء ملاحق مفيدة فيها توثيق وتوضيح وتبيان .

الله جل وعلا يهدي الى سواء السبيل ، له تبارك وتعالى الشكر ، والحمد ، ومن كرمه وفضله وقدرته أستمد العون واستجدي التوفيق ، واستلهم الصواب ، وأطلب البركة والمثوبة ، وصلى الله على سيدنا ونبينا المثل الأعلى بين البشر ولكل البشر ، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم .

دمشق ١١ / ١٢ / ١٩٩٢

سهيل زكار

الفصل الأول

المغرب والأندلس من الفتح حتى العصر المرابطي

كان لفتح بلاد الشام على يد العرب المسلمين ثم اتخاذ هذه البلاد مقرا للخلافة الأموية أبعد الآثار على حركة انتشار الاسلام عالميا فالاسرة الأموية كانت تعرف بلاد الشام من قبل، وتدرك اهمية سواحلها المتوسطية وموقعها البري الفريد الذي مكنها من الاتصال بأوروبا الشرقية عبر اسية الصغرى وبأفريقية عبر مصر وبالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد المشرق الأقصى عبر العراق وبأرمينية وأذربيجان وعالم بحر الخزر وكذلك البحر الأسود مع أجزاء من أوروبا الشرقية عبر الجزيرة .

وكان سكان سواحل الشام لعصور ما قبل الاسلام قد وصلوا عبر المتوسط الى حيث وصلت الفتوحات فيما بعد ، كما ان الذساطرة والسريان كانوا قد وصلوا شرقا الى حيث وصلت الفتوحات العربية أيضا فيما بعد ، وكأني بأهل الشام الأوائل قد قاموا بحكم تواصل حلقات أحداث التاريخ بالتمهيد لنجاح حركة الفتوحات العربية ، في تقبل سكان البلاد المفتوحة لدعوة التوحيد الجديدة ، فالفارق الأساسي بين حركة الفتوحات العربية وغيرها من أعمال التوسع العسكري لمختلف الشعوب عبر العصور ، هو في تحول سكان البلاد التي عرفها أهل الشام قبل الاسلام الى الاسلام (١) .

ولاتعني الآن مسألة الفتوحات العربية في اسية بل الذي يهمنا هو المواجهة العربية الأوروبية ، وبالتحديد المواجهة مع الأجزاء الغربية من أوروبا ، ذلك أنه سبق لنا الحديث في الجزء الأول من كتاب المدخل عن العلاقات مع أوروبا الشرقية ممثلة بالامبراطورية البيزنطية قبيل قيام ما يعرف باسم الحروب الصليبية ، وسترد

إشارات كثيرة الى استمرار هذه العلاقات في الجزء الثالث المقبل ، كما ان مختلف النصوص فيها مواد غنية عن هذا الموضوع مع إشارات مفيدة للعلاقات مع الكرج (جورجيا) حيث والحروب الصليبية مشتتة بأرض الشام كان الصراع الصليبي مع الكرج على أشده حاملا الألوان نفسها والسمات ، وكان له انعكاساته المؤثرة على ساحات بلاد الشام ، فهذا الصراع كان وراء قيام الحكم الأيوبي في بلاد الشام .

وتمت المواجهات بين العرب وأوروبا الغربية في الأراضي المطلة على حوض البحر المتوسط وعلى مياه هذا البحر وفي سبيل التحكم به والسيطرة عليه وعلى جزره ، ومما يلفت الانتباه هو أن معاوية ابن أبي سفيان اهتم بالبحر المتوسط ونشط فيه منذ أن كان واليا أيام حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢) ، كما أن المتفحص بعمق لحركة الفتوحات في العصر الأموي يرى بكل وضوح وجود خطة استهدفت السيطرة بشكل كامل على هذا البحر ، فبعد اكمال فتح المغرب تم فتح الأندلس والسيطرة الكاملة على واحد من منفذ البحر المتوسط ، وأعقب هذا محاولة فتح القسطنطينية والسيطرة على المنفذ الثاني .

وانجز العرب فتح بلدان المغرب العربي بعمليات برية استهدفت أولا وقبل كل شيء السيطرة على سواحل المتوسط ، ولهذا شأبها بعض المناوشات والمعارك البحرية ، وبفضل البحرية جازت الجيوش المسلمة الى الأندلس وهكذا لم يكتف العرب بتطويق بلدان أوروبا الغربية ، بل غزوها فافتتحوها شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومن ثم جاهدوا في سبيل فتح فرنسا وسواها ، وظل النشاط العسكري العربي في أوروبا كبيرا جدا حتى ما بعد انتهاء القرن العاشر للميلاد ، حيث تغيرت الأحوال في القرن الحادي عشر بظهور النورمان وبتمزق الأندلس واشتداد حركة الاستغلاب الصليبية فيها ، ومع نهاية هذا القرن تحركت الحشود الهائلة من سكان أوروبا الغربية تريد بلاد الشام ، وهو ما عرف باسم الحروب

الصليبية ، لهذا هناك حاجة لدراسة ما شهدته ساحات المغرب والأندلس وجزر المتوسط من مواجهات ، فكما أن أوروبة اجتمعت تحت راية الصليب لتحقيق غاية واحدة متفق عليها ، فإن الذي ألم بالوطن العربي ، ألم به شرقا وغربا ، فالوطن العربي وطن واحد ، قطنه شعب واحد تفاعلت أحداثه وشؤونه بشكل دائم •

وهكذا كما درسنا في الجزء المتقدم أوضاع المشرق العربي مع عمقه الاسلامي في القرن الخامس هـ - الحادي عشره علينا - حتى تستكمل الصورة - أن نتولى بالدراسة أوضاع المغرب والأندلس وجزر المتوسط في هذه الفترة عيناها ، إنما هنا أشعر بوجود الحاجة لتقديم عرض موجز لفتح المغرب والأندلس ، ثم تاريخ الأندلس حتى عصر دول الطوائف ، فبدون هذا العرض يصعب فهم العديد من القضايا ، لاسيما أن الوطن العربي في المغرب لم يمتلك آنذاك عمقا اسلاميا كما الحال في المشرق .

فتح المغرب

اطلق العرب على البلاد الواقعة الى الغرب من مصر اسم المغرب ، وهي البلاد التي تتضمن الدول العربية في الشمال الافريقي : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب وموريتانيا وتبعاً لروايات المصادر العربية احتك العرب بعد قيام الاسلام ، بهذه البلاد بعد سنة ٢٢ هـ — وقبل ٢٦ هـ (٦٤٣ - ٦٤٧ م) ، وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر ، ولعلهم حين عرفوهم بهذا الاسم قد ورثوا التسمية الرومانية « *Barbari* » التي استخدمها الرومان ومن قبلهم الاغريق ثم اخيراً بيزنطة ، واطلقوها على جميع الشعوب ذات الأنظمة القبلية والحياة البدوية .

وحاول الكتاب العرب تفسير هذه التسمية الشاذة على قاعدة علم الأنساب ، مع أن البربر أنفسهم لم يسموا أنفسهم هكذا بل «الأحرار» وتعرف بقاياهم الآن باسم «الشلوح» ، وهم بشكل عام عند العرب الأوائل كانوا يتألفون من كتلتين بشريتين رئيسيتين هما : البرانس والبتر ، وقد ضمت كل كتلة منهما عدداً كبيراً من القبائل المتفاوتة الأحجام والأدوار ، ومن المرجح أن قبائل البربر جميعاً قد تكونت عبر فترات التاريخ من العرب الذين هاجروا الى الشمال الافريقي بحراً من سواحل الشام مثل الفينيقيين وسواهم وأهم من هذا من موجات المهاجرين عبر مصر ، فقد قيل إن «المور» هم من بقايا الهكسوس ، والهجرة من مصر الى بلدان الشمال الافريقي لم تتوقف أبداً ، ولذلك عندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب قبائل البربر تشابههم في العادات وأنماط العيش والطبائع والأشكال ، وبناء عليه عدت حركة فتوحات المغرب حركة تحرير مثل تحرير بلاد الشام والعراق ومصر .

ووجد العرب الحياة المدنية في المناطق الساحلية أما الداخل

فسادتها الحياة البدوية ، وفي هذا المقام يلاحظ أن جل مدن بلدان المغرب الداخلية تأسست بعد انتشار الاسلام هناك ، ومن المقرر أن غالبية المدن الساحلية كانت قد تأسست على أيدي الفينيقيين .

وعانى العرب كثيرا أثناء فتح بلدان المغرب ، وبذلوا جهودا كبيرة في تحريرها ثم في تعريبها بشكل نهائي ، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب في الاسلام الى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة السليمية والهلالية ، واخرى جاءت بعدها ، فهذه الهجرة كانت حدثا فيصلا في تاريخ المغرب الكبير وصبغته نهائيا بالصبغة العربية .

وجاءت المؤثرات اللغوية والحضارية والثقافية الى بلدان المغرب من مصر والمشرق العربي ، ومع هذا جاءت بعض المؤثرات من روما ثم روما الشرقية ، إنما كانت ضعيفة وسلطوية فقط ، ومع أن الامبراطورية البيزنطية كانت تدين بالمسيحية ، فإن المسيحية لم تصل الى المغرب بوساطتها وكانت الكنائس في المغرب معادية لكنيسة القسطنطينية ولكنيسة روما ، وحين طرق العرب ابواب الشمال الافريقي كانت المناطق الساحلية خاضعة لحكم بيزنطة ، وهناك انتشرت المسيحية ، وعلى العموم شابه المغرب المشرق من حيث الموارد الدينية ، فقد كانت هناك مؤثرات مانوية مع المؤثرات الكتابية وكانت هناك وثنية طاعية ومنتشرة في مناطق الداخل ، وكما في المشرق ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنمط للحياة .

ومن المفيد الاشارة الى أنه نظرا لأن بلدان الشمال الافريقي ارتبطت بشكل مباشر بأفريقيا السوداء ، فقد وجد فيها عناصر سوداء ذابت في جسم المجتمعات المغربية ، وبلدان المغرب تولت دوما التأثير الكبير على سكان القارة الافريقية ، وبعد قيام الاسلام وانتشاره في المغرب منه انتقل الى شعوب القارة الافريقية ، وساعد قرب سواحل المغرب من سواحل شبه الجزيرة الايبيرية في قيام هجرات بشرية احيانا كهجرة الوندال ، كما أن المواجهة القريبة من سواحل اجزاء هامة من غربي أوروبا - خاصة إيطاليا - أغرت

بعض المهاجرين الأوروبيين بالقدوم الى بلدان المغرب ، لكن لم ينجم عن هذا تغييرات عرقية أو اجتماعية عميقة .

وبعد هذه المقدمات العامة إذا ما انتقلنا الى الحديث عن فتوح المغرب نجد أنه بعد ما فرغ عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ - ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس ولبدة وصبراتة ، وانتزعهم من أيدي البيزنطيين ، ثم أخذ يوجه سراياه في غزوات استطلاعية للفتح الاستراتيجي ، وهكذا امتلك العرب ما احتاجوه من معلومات عن أوضاع تونس التي دعوها باسم إفريقية ، وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في الزحف نحو إفريقية ، لكن الخليفة رفض خشية التفرير وقال : «لإن إفريقية غادرة مغدور بها» (٣) .

ويستفاد من هذا النص وسواه أن العرب قد توفرت لديهم معلومات كافية عن أرض إفريقية مع السكان ، وأنهم وضعوا خططهم لفتحها لكنهم تريثوا لجمع ما يكفي من قوات ولتأمين قاعدة للتقدم والزحف العسكري ، واتخذت طرابلس قاعدة ، لكن كان لها مخاطرها لوقوعها على الساحل المتوسطي ، فقد كانت بيرنطة ما تزال تملك قدرات بحرية كبيرة ، ونجد على العموم أنه إذا كان فتح مصر وليبيا أشبه بنزهة عسكرية ، فإن فتح بقية أجزاء المغرب كان من أقسى المهام وأكثرها عذفا .

وكان بعدما توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استخلف عثمان بن عفان ، وتبع هذا التغيير تغييرا آخر في جهاز الولاية في مصر ، فقد قام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية الفسطاط ، وأفرد ولاية مصر مع ولاية المغرب الى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وكان قبل ذلك شريكا لعمرو بن العاص في الولاية ، لكن حين أبى عمرو أن يبقى «كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها» عزله عثمان ، وذكر خليفة بن خياط أن عزل عمرو جاء سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ، وأوضح ابن عبد الحكم أن ابن أبي سرح أخذ بعد تسلمه لمنصبه « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا

يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية » ، وعندما اكملت القوات العربية أعمال استطلاعها تقرر القيام بالعمل الاستراتيجي ، فبعث ابن أبي سرح الى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية ويستتمده ، وكانت إفريقية تحكم من قبل البيزنطيين ، وكان على رأس السلطة فيها قائد اسمه جرجير ، وتبعاً للمصادر العربية كان جرجير هذا قد ثار على الامبراطور البيزنطي و أعلن استقلاله ، واتخذ من مدينة سبيطلة مقراً لملكه ، وبعثت سبيطلة هذه قرابة السبعين ميلاً عن قيروان المستقبل وكانت على درجة عالية من القوة والحصانة

وأولى الخليفة عثمان الجيش الذي امد به ابن أبي سرح عناية كبيرة ، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب واشرافهم مع عدد من الصحابة وكبار أبناء مشاهير الصحابة مثل العبادلة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وذلك بالاضافة الى مروان بن الحكم ، ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم كثير

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير ، وجد العرب انفسهم امام جيش أكثر عدداً وأحسن تسليحاً وعدداً ، وقامت مناوشات بين الطرفين لعدة أيام ، ثم قام ابن أبي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم قواته الى قسمين قسم شارك في الالتحام بينما كمن القسم الآخر ، وعندما تعب المتحاربون خرج الكمين العربي فأوقع هزيمة ساحقة بالبيزنطيين ، وسقط جرجير بين القتلى ، ففي المشرق عندما هزم العرب جيوش بيزنطة في الشام وجيوش الفرس في العراق وإيران خلصت لهم البلاد ، ودان لحكمهم السكان المحليون ، لكن هنا في المغرب اختلفت الاوضاع ، فقد أراد العرب فتح البلاد ساحلاً وداخلاً ، وحين هزموا البيزنطيين سيطروا على السواحل ، وبقي عليهم خوض معارك مريعة للسيطرة على المناطق الداخلية التي لم يكن لبيزنطة سيطرة عليها، ودانت كل بقعة منها لزعامة قبلية محلية.

هذا ولم يتمكن ابن أبي سرح من استغلال نصره المبين بالتوغل داخل الأراضي المغربية ، وسبب هذا ما واجهه من قلاقل داخل صفوف جيشه ، فقد روي أنه حصل على غنائم عظيمة ، وجاء توزيع هذه الغنائم بشكل غير عادل ، مما أثار حفيظة الجند ، وكان بالتالي بمثابة شرارة أولى أدت بعد تطورها الى المساهمة في الثورة على عثمان وقيام أحداث الفتنة الكبرى ، ومن المرجح على هذا أن النصر على جرجير كان آخر معركة كبرى خاضها العرب في المغرب في العصر الراشدي ، وبما أن الغنائم كانت توزع بعد القتال مباشرة ، فإن القلاقل الناجمة أرغمت ابن أبي سرح على عدم متابعة زحفه واستغلال نصره ، حيث تصالح مع بقايا البيزنطيين على « ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم » (٤) .

وتفجرت أحداث الفتنة الكبرى التي أودت بحياة الخليفة عثمان ابن عفان ، وفي أثناء خلافة الامام علي بن أبي طالب ، تقلب على ولاية مصر عدد من الولاة ، لم تخلص الولاية لواحد منهم ، وعندما ألت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان أعطى ولاية مصر الى عمرو ابن العاص ، وفق بنود تحالفهما قبيل الحرب في صفين ، وبعودة عمرو بن العاص الى الفسطاط عاد النشاط العسكري العربي واستؤنفت حركة الفتوح ، ففي سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م (عام الجماعة) «ولى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، عقبة بن نافع الفهري - وهو ابن خالة عمرو - إفريقية » وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية ، وفعل الشيء نفسه في العام التالي ، ثم في العام الذي تلاه ، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (٥) .

ويرجح أنه في سنة ٤٥ هـ - ٦٦٥ م أفرد الخليفة معاوية بن أبي سفيان لسمية معاوية بن حديج شؤون إفريقية ، وبهذا فصلها عن ولاية مصر وأفردتها ، وجاء هذا نتيجة لعدة عوامل كان منها - كما يبدو - قيام واحد من قادة جرجير واسمه جناديوس بالقبض على ناصية الأمور هناك بعده ، وظل وفيما للوعد الذي قطع للعرب من قبل

بقيادة ابن أبي سرح ، إنما في أثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية حاولت بيزنطة إعادة نفوذها الى إفريقية ، فبعثت بواحد من قادتها الى هنا لكنه أخفق بعدما التقى مع جناديوس في معركة ومن ثم اضطر الى مغادرة الشمال الأفريقي والعودة الى حيث أتى ، على أنه ما لبث جناديوس نفسه أن واجه تحركا داخليا لم يستطع التغلب عليه ، لذلك غادر إفريقية واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان ، فكان أن أرسل معه جيشا بقيادة ابن حديج قيل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وضم بين صفوفه عددا من مشاهير العرب كان منهم عبد الملك بن مروان ، وزحف جيش ابن حديج - بعد ما وصل الى مصر - من الاسكندرية الى برقة وطرابلس ، وتوغل هذا الجيش حتى المنطقة التي ستقام فيها مدينة القيروان ، وهناك علم بنزول حملة بيزنطية في منطقة غابات الزيتون بين سفاقس وسوسة ، فأرسل ضدها وحدة من قواته طردها ، واحتل ابن حديج عدة مواقع وأقام مدة سنة تقريبا يبعث سراياه ويعمل الغارة داخل إفريقية ، وإثر هذا عاد الى مصر ، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي كان برفقته ، وكل الذي نعرفه أن ابن حديج عاد الى مصر دون أن يبرم عهدا أو اتفاقية مع طرف من الأطراف ذات السلطة في إفريقية ، وعلى الرغم من عودة ابن حديج الى مصر يرجح أن بعض القوات العربية بقيت معسكرة في طرابلس ، ومن هناك كانت تقوم بالغارات الاستطلاعية (٦) .

هذا ويمكن عد ماتم حتى الآن من أعمال عسكرية في الشمال الأفريقي مجرد أعمال تمهيدية للفتح الدائم ونشر الاسلام وتعريب البلاد ، وكان هذا العمل الحاسم قد بدأ مع سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م، وارتبط باسم عقبة بن نافع الفهري ، ففي هذه السنة « وجه معاوية عقبة بن نافع الى إفريقية فخط القيروان وأقام بها ثلاث سنين » ، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في الأراضي المغربية ، حيث أن مسلمة بن مخلد والي مصر بعث معاوية بن حديج على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية ، فإن الذي حققه عقبة بن نافع كان بعيد الأثر ، وعلى

راس ما حققه كان إقامة مدينة القيروان ، التي أقيمت بعيدا عن الساحل في موقع استراتيجي داخل البر المغربي فغدت قاعدة عربية متقدمة للفتوح عسكريا وثقافيا ودينيا واقتصاديا ، والمركز الأول الذي حمل مسؤوليات اعمار الشمال الافريقي وتعريب الأرض والسكان بشكل دائم وثابت .

ولهذا يحيط العرب اخبار بناء القيروان بهالة خاصة وقديسية فائقة ، فقد كان مع عقبة بن نافع « في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » وأنه حينما وقع اختياره على موقع القيروان اقبل يدعو لها ويقول في دعائه : اللهم املاها علما وفقها وامرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لديك وذلا لمن كفر بك ، واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض ، وبعد هذا وقف على واديه فقال : « يا اهل الوادي اظعنوا فإننا نازلون ، وإنا من وجدناه قتلناه » ونظر الناس بعد ذلك الى امر معجب من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل أولادها « وهنا نادى عقبة في الناس « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » .

يبدو أن هذا ما كان الا تحريفا اسطوريا لما قام به عقبة حين شرع في اتخاذ معسكره حيث أنه أمر كما يبدو بطرح النار في البقعة التي اختارها لتنظيف ما كان بها من أشجار وأعشاب وغير ذلك ، وتطور هذا المعسكر الى مدينة حملت اسم القيروان ، وهي لفظة معربة مثلها مثل لفظة فسطاط تعني معسكر الجيش أو القافلة أو معظم الجيش .

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ - ٦٧٥ م ، ففي هذه السنة أو قبلها وضع الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية إفريقية تحت لواء والي مصر مسلمة بن مخلد ، فقام بعزل عقبة وأرسل جيشا الى إفريقية جعل على رأسه خالد بن ثابت الفهمي « وأمره أن يستخلف أبنا المهاجر دينار » وكان الوالي الجديد من

الأنصار ، وكان مؤلى لمسلمة بن مخلد ، ويبدو أنه أساء معاملة عقبة عندما تسلم أعماله منه (٧) .

ولا نمتلك تفاصيل كثيرة عن أعمال أبي المهاجر ، سوى أنه لم يقيم في القيروان عقبة ، واتخذ لنفسه معسكرا خاصا على ميلين منها عرف باسم تيكروان ، وظل أبو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، وقيل غير هذا ، لكن يرجح أن معاوية اشرك معه غيره في الولاية ففي سنة ٥٧ / ٦٧٧ «وجه معاوية بن أبي سفيان حسان بن النعمان الغساني إلى إفريقية ، فصالحه من يديه من البربر ، ووضع عليها الخراج ، فلم يزل عليها حتى مات معاوية» (٨) .

وبعدما عزل عقبة من منصبه ، توجه نحو بلاد الشام حيث لقي معاوية بن أبي سفيان فعاتبه على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاوية واستتباب الأمور لابنه يزيد ، حيث قام بإعادته إلى ولاية إفريقية ، وربما تم هذا سنة ٦١ هـ - ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى أقصى المغرب ، وفي ذروة النجاح هذه أصيب العرب بنكسة كبيرة كادت تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين المتقدمة .

خرج عقبة من الشام مسرعا نحو مصر ، وكان بصحبته بعض القوات الشامية ، وعندما مر بمصر اعتذر له مسلمة بن مخلد من فعل أبي المهاجر « فقبل عقبة منه ومضى سريعا لحذقة على أبي المهاجر حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المهاجر بالحديد ، وأمر بخراب مدينته ، ورد الناس إلى القيروان » .

ثم عزم بعد هذا على الغزو ، وعندما تحرك ترك في القيروان جندا استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ، وتحرك عقبة فاجتاح في تحركه المغرب الأوسط فهزم من تصدى له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية ، ودخل المغرب الأقصى فهزم كل من اعترض سبيله ، ودخل طنجة « فلقى رجل من الروم يقال له اليان » وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس

الأدنى فهزم من قاومه من البربر « ومضى كذلك حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع به البربر في عدد لا يحصى فلقبهم فقاتلهم قتالا شديدا ما سمع أهل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقا عظيما وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن » .

وكان هدف عقبة الأساسي في حملاته دعوة الناس إلى الاسلام ، ويرجح أن كثيرا من قبائل البربر أعلنت إسلامها ، وحين قال المؤرخون العرب إن عقبة قد وصل إلى السوس الأقصى ، وهناك اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء إلى تلابيه وقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ، هذا يعني أنه كان يرنو ببصره نحو أوربة ، ولم يفكر قط في التوغل داخل إفريقية السوداء ، أضف إلى هذا أن المقصود بالسوس الأقصى هنا مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي .

ولقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة جدا ، وكانت الغنائم كبيرة ، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القيروان أرسل القسم الأكبر من قواته مع العيال والغنائم ، وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه أحد زعماء البربر واسمه كسيلة ، وقد استطاع كسيلة هذا أن يهرب ، ومن ثم قام بحشد رجال قبائله ، وبالوقت نفسه تحالف مع بقايا بؤر المقاومة البيزنطية ، وقبل أن يصل عقبة إلى منطقة القيروان سعى للاستيلاء على مدينة تدعى تهودة ، ويبدو أن حصاره لهذه المدينة أتاح الفرصة أمام كسيلة للتحرك وقطع الطريق على عقبة ، وعلى مقربة من تهودة ، وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة ، فلم يتردد في الاشتباك مع هذه الجموع في معركة انتحارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ولعل هذا كان سنة ٦٨٤ م ، ودفن عقبة حيث استشهد ، وبعد فترة غلب اسمه على الاسم القديم للمدينة ، فأصبحت تهودة تعرف بسيدي عقبة ، وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب العربي الكبير ، وصورة عقبة هناك صورة المثل الأعلى للبطل العربي المسلم .

وعقب مصرع عقبة زحف كسيلة بجموعه نحو

القيروان « فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتاله طاقة لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، واسلموا القيروان ، وبقي بها اصحاب الذراري والاثقال ، فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمّنهم واجابهم ، واقام كسيلة حتى نزل القيروان ، واقام أميرا على إفريقية ، وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده ، فما زال على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان » (٩) .

ولقد توافق مصرع عقبة مع الفترة التي تمخضت عن وفاة يزيد بن معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية ، لكن ما إن استقرت الأمور وخلصت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى بادر بالايحاز إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان ، والذي كان قد انسحب منها ورابط في برقة فبعث إليه « يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له زهير بن قيس يعرفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم ويستمدده الرجال والأموال » واستجاب عبد الملك لطلبه فأوعز إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بتوجيه الامدادات إلى زهير وقام هو بدوره « فوجه إليه وجوه أهل الشام وبعث إليه الأموال » وكان هذا سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وزحف زهير باتجاه القيروان وعندما دنا منها انسحب كسيلة من قربها إلى مكان يدعى ممش على مسيرة يوم واحد من القيروان ، وكانت قوات كسيلة أكبر من قوات زهير ، والذي دعاه إلى الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهالي القيروان من العرب فيقع بين فكي الكماشة ، والتقى الجيشان في ممش والتحما « في القتال ، ونزل الصبر ، وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل » وقامت قوات زهير بملاحقة فلول جيش كسيلة وإعادة السيطرة العربية على المغرب ، واستمر هذا حتى سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م حيث « رحل زهير قافلا إلى المشرق » وكان السبب في عودته ما بلغه من أخبار عن قيام بيزنطة بإنزال قوات اغارت على برقة وغيرها من المناطق مستغلة غياب زهير ، واصاب البيزنطيون سبيا وأموالا للمسلمين كثيرة ، وعندما

شرع زهير بالعودة « أمر العسكر أن يمشوا على الطريق ، وأخذ على ساحل البحر في عدة من أشرف الناس مجدين مبادرين رجاء أن يدرك سبي المسلمين ، فأشرف على الروم ، فراهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه « النزول رحمكم الله » فنزلوا « وكانوا رؤساء العابدين وأشرف العرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال وأعانوا بعضهم بعضا ، وتكاثر عليهم الروم فقتلوا زهيرا ومن معه من المسلمين جميعا فما أفلت منهم رجل » .

ووصلت أنباء مصرع زهير وصحبه إلى الشام إلى عبد الملك « فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عقبة » وكانت جهود عبد الملك مصروفة آنذاك كليا للقضاء على ابن الزبير ، لذلك كان لابد من الانتظار لاعداد حملة جديدة ، وستأتي هذه الحملة مع استتباب أمور الدولة الأموية في المركز ، مما يمكن من صرف الجهود لتثبيت السلطة العربية ولنشر الاسلام بين سكان المغرب (١٠) .

وبعدما توطدت الأمور لعبد الملك ، وتم له القضاء على ابن الزبير التفت نحو قضية المغرب ، فجهز جيشا كبيرا ، عهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني ، ويبعدو أن هذا كان سنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م ، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طرابلس ، ومن هنا قرر التوجه نحو قرطاج طبقا لخطة جيدة وواضحة ، فقد أراد أولا القضاء نهائيا على الوجود البيزنطي في المغرب ، وكان هذا القضاء يزيل من الوجود القوى العسكرية الأجنبية النظامية ، ولعل حسان ظن أنه إذا نجح بذلك سهل عليه ما بقي ، وهو القوات البربرية للقبائل المتمردة .

وفعلا نجح حسان في فتح قرطاج ، وذلك بعد جهود كبيرة ، بيد أنه ماكاد يخیل إليه أن المغرب قد دان له حتى عرف بقيام تحالف بين قبائل الأوراس تحت زعامة امرأة عرفت بالكاهنة والتقى

بقواتها في معركة عنيفة انهزم فيها حسان بعدما فقد عددا كبيرا من أفراد قواته ، وقام بالانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة أخرى عن إفريقية ، وأقام حسان في طرابلس ما يقرب من خمس سنوات حتى وصلته إمدادات كبيرة من الشام ، فعاد أخذ طريق إفريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة فاستطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقي حسان في صراعه مع الكاهنة مساندة بعض البربر وغيرهم من السكان المحليين ، ذلك أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية ، فقد قالت لاتباعها « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى يياسوا منها ، ويقل طمعهم فيها » .

وبعد القضاء على الكاهنة خلاص المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الاسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافر من الاستقرار ، وبدأ العرب ينظمون أحوال البلاد ويقيمون إدارة خاصة بها ، وكان حسان بعد هزيمته للكاهنة قد تخلى عن مدينة قرطاج - العاصمة القديمة لأفريقية - وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة ، على مقربة منها ، جعلها مركزا جديدا لأفريقية ، ودارا لصناعة المراكب ، وعرفت هذه المدينة باسم تونس ، واستعارت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بـ **tynis**

ويبدو أن نجاحات حسان وإنجازاته بالمغرب قد ضايق عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة وولي عهده وحاكم مصر ، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولى مكانه موسى بن نصير ، ولعل هذا كان سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م (١١) .

ولئن عد حسان بن النعمان الفاتح الذي أوجد شخصية المغرب العربي ، فإن موسى بن نصير ثبت ملامح هذه الشخصية ووضحها ، هذا وتختلف المصادر حول تحديد سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب ، فبعضها يذكر أنه استلمها أيام عبد الملك بن مروان ، أي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان ، وكان عبد العزيز قد توفي سنة

٨٤ هـ / ٧٠٣ م ، وكان ذلك قبل وفاة عبد الملك بعامين ، ويمكن القول إن موسى ولي إفريقيا لعبد العزيز ، ثم وليها منفصلا عن ولاية مصر منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، أي منذ بداية خلافة الوليد بن عبد الملك .

وجاء حكم موسى للمغرب حدثا حاسما في تاريخه ، فقد نشط هذا الوالي المجرب نشاطا عسكريا كبيرا إلى أقصى المغرب ، إلى حيث وصل عقبة من قبل ، وتمكن هكذا من الحصول على طاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للإسلام ، كما أنه استطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوب المقاومة في المدن والقلاع والحصون ، ولم يقتصر نشاط موسى على البر فقط ، بل قامت بعض قواته بغارات على سواحل صقلية وشبه الجزيرة الايبيرية ، وبعدها دان المغرب جميعه لموسى ، وبعدها تجمعت لدى موسى الامكانات البشرية والمادية ، وبعدها غدا بإمكانه تجنيد بعض القوات من البربر الذين دخلوا في الاسلام ، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مع أهداف الخلافة بالسيطرة على البحر المتوسط ، وتماشيا مع ما تفرضه الجغرافية على التاريخ ، فما من قوة وحدت المغرب إلا وحاولت السيطرة على شبه الجزيرة الايبيرية ، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما كانت قوى شبه الجزيرة هذه تخفق في التوسع داخل القارة الأوربية تنعطف نحو الشمال الافريقي (١٢) .

فتح الأندلس والتوسع في أوربة

من المقرر أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذا لخطط الفتح التي اعتمدت في أيام الوليد ، واستهدفت فيما استهدفته السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه مضيق جبل طارق والبوسفور ، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازن ذاتية ، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في اسية وأفريقيا أعمال توسع للدولة العربية ونقلا للإسلام إلى أراضي متاخمة للأراضي الإسلامية ومتصلة بها ومتداخلة معها ، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة إلى قارة ، ويواجهنا هنا سؤال هو: لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول إلى الحبشة ، ثم لم يتوسعوا داخل أفريقيا السوداء بعد اكمال سيطرتهم على الشمال الأفريقي؟

وقبل أن نقدم الاجابات المعللة لهذا السؤال من المفيد الإشارة إلى أن هناك من ذهب في أيامنا إلى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس ، ولم يكن هناك أعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى ، بل الذي حدث هو توسع حضاري وعقائدي ، والحجج المقدمة هنا فيها ثغرات كبيرة واغفال لحقيقة أن فتح الأندلس مثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الإسلام عقائديا وحضاريا وثقافيا ونظما.

وجاء انكار عملية الفتح في كتاب حمل عنوان « العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة » (١٣) وهذا الكتاب ترجمة ممسوخة لكتاب ألف بالاسبانية وصدر عام ١٩٧٤ لباحث اسباني اسمه اغناسيو ولاغي وتولى الترجمة بتصريف واختصار اسماعيل الأمين

الواضح ان المترجم يمتلك معلومات فقيرة جدا عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الأندلسي بشكل خاص ، ولهذا عجز عن ضبط جل الأسماء العربية ، واستهدف الترويج عن طريق الاشارة على قاعدة مخالفة المؤلف ، وليس من أجل خدمة الحقيقة العلمية ، ثم إنه ليس لديه خبرة بعلم التاريخ عند العرب في المشرق ثم الأندلس ، مع جهل بما حدث خلال العصور الوسطى الإسلامية.

وإذا ما عدنا للإجابة على السؤال نجد ابن خلدون يروي في تاريخه « أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز طارق موسى بن نصير الى الأندلس ، بعد أن دوخ المغرب ، وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة ».

هذا وفي الوقت الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلا لمشاكل المغرب نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخطاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت - هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي ، وليس توسعا مثل بقية الفتوحات.

إن في كل من هذين التعليين الكثير من الصواب ، إنما يمكن ان يضاف إليهما تعليقات أخرى يجعلها المؤرخ المعاصر ويستخرج أدلتها من سياق الحوادث ، فبالإضافة لسياسة العرب تجاه البحر المتوسط نلاحظ ان التوسع في الشمال الأفريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي ، الذي تمتد جذور وجوده في أعماق التاريخ ، وتحددت معالمه وترسخت بفضل الاسلام ، وتعليل هذه الظاهرة مرتبط بانشاط العالم الإسلامي الى شطرين: عربي وأعجمي ، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل أفريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت

أفريقيا السوداء عالما مجهولا بالنسبة للعرب ، كما انه كان عالما في غاية الفقر ، مرابحه قليلة ، يحتاج نشر الاسلام بين شعوبه الوثنية الى وقت طويل وجهود متواصلة ، يضاف الى هذا أن فتحه كان سيكون على درجة عظيمة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك من يقول: يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث يذبت الزيتون ، هذا وكان للعرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التوسع في أراضي النوبة والتوغل في وادي النيل ، وبالمناخية انتشر الاسلام في أفريقيا بفضل قوة وفعالية معطياته العقائدية والحضارية مع نظمه ، ولهذا جاء هذا الانتشار بدون تعريب ، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعريبا كاملا لقرون طويلة.

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب الى حد كبير أفريقيا السوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبا وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط ، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط وتعمل الغارات وتخوض المعارك ضد أساطيل بيزنطة وغيرها ، ولهذا كانت لديهم معلومات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الايبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم الى العبور الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجد أنفسنا بحاجة للقيام باستعراض لأحوال شبه الجزيرة الايبيرية وتاريخها قبل قيام الفتح الاسلامي وأيام حدوث الفتوح.

كانت شبه الجزيرة الايبيرية تحت حكم الفيزقوط (القوط الغربيون) الذين كانوا قد دخلوها في سنة ٤١٤ م ، وذلك بعد هجرة الفندال اليها ، وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعا وتسببوا في هجرة الوندال الى الشمال الافريقي ، ومن الوندال نالت الأندلس تسميتها (فندلسيا) وكان القوط مثل غالبية القبائل ذات الأصل الجرمانى ، يؤمنون

بالنصرانية إنما تبعا للعقيدة الاريانية ، التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها الى طبيعة السيد المسيح وتأليهه ، هذا في حين كان السكان المحليون (الهسبورومان) يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعما بينهم وبين الفيزقوط ، ولم يكن في شبه الجزيرة الايبيرية وحدة وطنية او اجتماعية ، وفي عام ٥٨٩ اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهكذا امكن بعد ذلك قيام دولة موحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الايبيرية ، أي اسبانية اليوم مع جزء من جنوب فرنسا الحالية.

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفسها السلطات الزمنية مع الكنيسة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة ، لأن الملك كان ينتخب من بين رجالات طبقة النبلاء وبوساطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرر لوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لابنائهم بعد موتهم بوساطة إشراكهم في الحكم ايام حياتهم او بالتنازل عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء اصحاب المطامع والنزعات السلطوية والاستقلالية ، مما كان يسبب الاضطرابات الدائمة والفلاقل المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتولي الحكم بعد وفاة الملك.

يضاف الى هذا ان ملوك الفيزقوط كانوا يعانون من الضعف بسبب طبيعة جيوشهم واحوالها ، فقد كان - نظريا - على كل حر قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش واسباب اخرى نجس الملوك من الفيزقوط ، يجدون - فعليا - منذ القرن السابع من الصعب جدا جمع جيش قادر.

والى جانب النبلاء ، تشكل شعب شبه الجزيرة من الأحرار الذين انحسروا من أصل اسباني - روماني ، أي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية في اسبانيا ايام الامبراطورية الرومانية ، وبالإضافة الى

طبقة الأحرار وجد الكثير الكثير من الأقنان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال وبالتالي كانت هناك شكوى مع تذرر دائم ، ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي حيث نظر الناس الى المسلمين كمحررين ، ويرجح أن أخبار ما أحدثه الاسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات اسلامية قوية قد وصلت الى شبه الجزيرة الايبيرية قبل وصول الفاتحين ، ولهذا ساعد بعض الاسبان العرب ، وقبلوهم عموما ولم يقاوموهم ، كما كانت الكنيسة الاسبانية مستبدة تتميز بالطغيان والجهل وشدة التعصب ، وكانت المدن الاسبانية أيام الفيزقوط تعيش في احوال متردية ، ذلك أن هؤلاء المتسلطين كانوا قوما بدائيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الاسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وقد أساءت السلطات الاسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ، ونظرت اليهم نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتنصير اليهود ، وهكذا جعلتهم في اوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقيل: جعل هذا يهود اسبانيا يتآمرون مع يهود شمال افريقيا ضد الحكم الفيزقوتي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود اسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا اليه من معلومات عن اسبانيا ، وبعد ما نزل العرب الى البر الأندلسي وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا بمثابة أدلاء لجيوشهم.

وحين نستعرض أخبار العرش الاسباني قبيل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية أبا وابنا يحكما شبه الجزيرة الايبيرية منذ عام ٦٨٧ م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه أحد أولاده واسمه أخيلا فقام بتعيينه دوقا على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠ م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأخيلا ، وقيل إنهم انتخبوا رودريك (عند العرب لذريق) ملكا ، ومع هذا احتفظ أخيلا بدوقيته حتى أنه ضرب بقوده

الخاصة ، واعتبر رودريك مغتصبها ، وسعى الى خلعها عن العرش واعتلائه هو بنفسه.

وخاض رودريك ضد أخيلأ أكثر من معركة ، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الايبيرية كان رودريك مذبذبا في الحرب بالشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر أن أخيلأ ، أو واحدا من اخوانه ، اتصل بطارق بن زياد الذي كان معسكرا في طنجة مع قوة مؤلفة من اثني عشر ألف مقاتل ، وقال له: «ان أبي مات ووثب على مملكتنا بطريق (أي نبيأ) يقال له لذريق ، وبلغني أمركم فجئت اليكم ادعوكم اليها (اسبانيا) وأكون دليلكم عليها» ولأقت هذه الدعوة أننا صاغية من طارق وقوت عزيمته «على غزو الأندلس ، واستنفر البربر.....وجعل يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون الا انها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعاشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجا فوجا الى ساحل الأندلس....فلما لم يبق الا فوج واحد ركب طارق ومن بقي معه فجاز الى أصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الأندلس حريزا مديعا ، فسمي ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق ، فلا يعلم الا به ، وموسى بن نصير بافريقية لا يعلم شيئا من هذا» وتذكر روايات أخرى أكثر عددا أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم سبته البيزنطي واسمه اليان (يوليان.جوليان) وأنه هو الذي حرض المسلمين على غزو شبه الجزيرة الايبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهو قد أراد أن ينتقم من رودريك لأنه كان قد أودعه في بلاطه ابنته ، فاعتدى رودريك عليها وذنس شرفها ، فعادت الى أبيها فشكت اليه ما بلت به ، وبما أن يوليان كان في وضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتقم من رودريك ، فقد حرض العرب على حربه ، وأمدهم بما أرادوه من معلومات عن الأندلس ، ثم أعارهم سفنا عبروا بها الى شاطئ الأندلس.

وتكمن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي ، فيوليان كان

بيزنطيا ، إن تبع لبلاط فلبلاط القسطنطينية ، وهكذا هو لم يتبع بلاط رودريك أن وجد لديه بلاط وكان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنته الى عند الفيزقسط البدائيين ، ويترك القسطنطينية البلد الحضاري المتقدم ، ولنتذكر أن سبقة مدينة ساحلية مغربية ، وأن أرض المغرب بأكملها دانت بالطاعة للعرب ، وعلى هذا أن وجد يوليان فقد أصبح من اتباع الدولة العربية ، يضاف الى ذلك أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعة عقود من الزمن ، وخاضوا بهذه القوة عددا كبيرا من المعارك وهاجموا صقلية وقبرص وغيرها من جزائر المتوسط ، هذا البحر الذي بدأ يتحول الى بحر شامي اسلامي .

ولقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخية ، هذا وحين نرجع الى اخبار عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها اليان ، اتصلت به قرب طنجة وأمدته بمعلومات عن بحر الأندلس « بأنه محفوظ لا يرام » كما أمدته ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى .

ونحن إذا ما عدنا الى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق قيام طارق بالعبور الى شبه الجزيرة الايبيرية دون الرجوع الى رأي موسى بن نصير وأوامره ، ثم أيضا يصعب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الايبيرية دون أخذ موافقة الخليفة في دمشق ، ولعل الذي حصل هو أنه تجمع عند العرب معلومات جيدة عن احوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات ووعود بالعون من قبل التجار اليهود وسواهم ، كما شجعهم الوضع المتردي في شبه الجزيرة الايبيرية سياسيا واجتماعيا ودينيا ، وكانت هناك عمليات فتوح على جميع الجبهات وفق خطط سبق وضعها .

وقيل عن موسى بن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوة طاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجنّد في صفوف قواته عدد كبير من البربر ، أراد أن يقوم

بمغامرة مربية ، فكان أن اخذ موافقة دمشق ، ثم قام عام ٩١ هـ - ٧١٠ م بإرسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على رأس قوة تتألف من أربعمائة مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطئ جنوب اسبانية ، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان ما يزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمل الغنائم والمعلومات ، وشجعت المعلومات موسى على الاقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام في عام ٩٢ هـ - ٧١١ م بإرسال طارق بن زياد ، وكان قائدا بربريا أدخله موسى في قواته ، قام بإرساله على رأس سبعة آلاف مقاتل ثم أمدّه بخمسة آلاف مقاتل آخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الايبيرية ، ولم يرسل موسى جندا عربا مع طارق ، لأنه أراد أن لا يضحى بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

في هذه المقولة وصم لموسى بالانتهازية واللامسؤولية ، وقصر النظر لأن إرسال الجند البربر لوحدهم والتفكير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية ، وأن هؤلاء إذا ما أخفقوا وقتلوا سيثور عليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخا مجربا ما كان له ليقدّم على مثل هذا العمل ، ثم أين أمراء جيشه وأعوانه من التابعين المسلمين الاتقياء ، وهل لنا أن نتجاهل رقابة إدارة دمشق وصرامتها ؟ ! وهكذا نقرأ في مخطوط مجهول المؤلف حمل عنوان « ذكر بلاد الأندلس » : « لما انتهى ملك الأندلس إلى لذريق القوطي ، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الوليد حازما فاضلا مواظبا للجهاد ناظرا في ضبط ثغوره ومصالح رعيته ، فلما ولي واستقام له الأمر ، أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر ، وولى على إفريقية موسى بن نصير اللخمي ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فلما وصل إلى بلد طنجة فرت قبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفا منه ، فسار في أثرهم يفتح البلاد والحصون ويؤمن من آمن ويقتل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى ، ثم رجع إلى إفريقية وقد استقام له أمر المغرب ،

وترك واليا على طنجة مولاه طارق بن زياد وبصحبته ... من العرب وإثني عشر ألفا من البربر وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الاسلام ، فأقام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس ، وكان طارق من البربر من قبيل جنزه ، وكان محبا في الجهاد ، فعزم على غزو الأندلس ، فدعا برجل اسمه طريف ويكنى أبا زرعة ، فعقد له على أربع مائة رجل ومائة فارس ، وجوزهم إلى الأندلس في أربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها ، فجاز أبو زرعة ، ونزل بطريف ، وبه عرفت طريف إلى اليوم ، فلما نزل بطريف أغار على الخضراء ، فغنم وسبى وقتل ورجع إلى طنجة ، فأخبر طارقاً بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها ، فأخذ طارق في إنشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها - يعني الأندلس - برسم غزوها ، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر ألف مقاتل : عشرة آلاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان وقيل إنه لما جاز طارق وجيوش المسلمين نزلوا في أصل جبل طارق ، وهو جبل الفتح ، ثم صعد إلى الجبل فبنى بقمته حصنا منيعا ، فتحصن به هو ومن معه من المسلمين .

على هذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغرير ، بل تمت وفقا لتحضير طويل ، ففي طنجة تعرب الجند البربر وحسن إسلامهم ، وجازوا إلى الأندلس ومعهم الفين من العرب وسبعمائة من السودان ، وذكر السودان له دلالاته التي قد تفيد أنهم قد جندوا من أطراف السوس الأقصى أو غير ذلك من الأطراف ، وأنه توفر لدى المسلمين ما احتاجوا إليه من وسائل العبور .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة ، خاصة نفح الطيب للمقري ان طارقا عبر مع جنده على سفن قدمها له يوليان ، وبعد العبور قام طارق بخرق السفن أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيبا بعربية على درجة عالية من الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : « البحر من

وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصديق والصبر » .

وشكك الباحثون في أيامنا في صحة هذه القصة وقالوا إنها مصنوعة ، ولعل صانعها استعارها من قصة مشابهة وردت في الأغاني في أثناء الحديث عن غزو الألباش لليمن ، هذا وإن كنا نشكك بصحة حرق السفن أو خرقها لانستبعد قيام طارق بالخطبة في جنده ، لأن الجيوش الإسلامية كان من عاداتها وجود المذكرين فيها ، وقيام الخطباء بحض الجند وتشجيعهم وشحنهممهم ونقرأ في سراج الملوك للطوطوشي ، وهو مؤلف أندلسي صنف كتابه في مصر في القرن الخامس هـ / الحادي عشر للميلاد : « ولما عبر طارق مولى موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بإفريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضراء وتحصنوا في الجبل العظيم ، فطمعت الروم فيهم ولقيهم طارق ، وعلى خيله مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضرهم على الصبر

ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم ، والنصر من ربكم ، وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلتي ، فوالله لأقصدن طاعتهم فإما أن أقتله وإما أن أقتل دونه ، فاستوثق طارق من خيله ، وعرف حلية لذريق وخيمته وعلامته ، ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد ، فقتل الله لذريق بعد قتل ذريع في العدو ، وحمى الله المسلمين فلم يقتل منهم كثير شيء ، وانهزم الروم » .

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسابان ، أو مايس من سنة ٧١١ م ، وكان التوقيت قد اختير بشكل دقيق ، فقد كان رودريك آنذاك غائبا في الشمال ومعه قواته ، وقد خلف وراءه بعض الحراسة على الشاطئ ، يقول ابن الكردبوس : في نص فريد : « ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطيء كان قد عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر

فوطاه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم ورحل نحو قرطبة .

وهكذا تمكن طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في منطقة الجزيرة الجنوبية ، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاستطلاع البعيدة والاغارة على المناطق الداخلية ، وبذلك انتشرت أخبارهم في أرجاء شبه الجزيرة كلها ، وحين سمع رودريك بخبر طارق أسرع نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في ١٩ تموز ، أي بعد انقضاء قرابة الثلاثة أشهر على جوازهم ، وهي فترة لا شك أنها كانت كافية بالنسبة لهم لاكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجدة والمؤن والمعدات وشراء الأعوان أو العملاء .

واستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع ، وتعرف المعركة باسم معركة وادي لكّة - أي وادي البحيرة - ويقال ان قسما من جنده تخلى عنه أيام القتال ، وكانت المعركة معركة حامية اقتتل فيها الطرفان «قتالا شديدا ، فوقع الصبر حتى ظن الناس أنه الفناء ، وتواخذوا بالأيدى ، وضرب الله عز وجل وجوه أعدائه ، فانهزموا ، وأدرك لزيق فقتل بوادي الطين وركبت آثارهم ، وكان الجبل وعرا ، فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم ، ووضعوا فيهم السيف» لعدة أيام فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية للفيرقوط ، كما دمر نظامهم وأجهز على جهاز مؤسسة الحكم في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولا شك أنه لاحظ ان الأندلس أصبحت بلدا مفتوحا امامه ، لن يحول بينه وبين تملكها قوة لها اثر يذكر ، فاندفع أولا نحو مدينة قرطبة فأخذها ، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة عاصمة البلاد ، وأهم المراكز الاستراتيجية فيها ، ونال في تلك الأثناء بعض المساعدات المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل طارق طليطلة دون مقاومة كبيرة ، وبعد ذلك أرسل بعثات استطلاعية نحو سرقسطة .

وكان موسى بن نصير يتابع أخبار طارق ، وقد اتخذ استعداداته

للتدخل ، وهكذا عندما بلغه ما تحقق لطارق من اتصالات تحرك هو بدوره من إفريقية نحو طنجة ، ثم عبر على رأس قوة عربية قوامها ثمانية عشر ألفا من الرجال ، وكان ذلك في تموز سنة ٧١٢ م ، وهنا لم نسمع بأخبار مشكلة تعلقت بوسائل العبور من سفن وسوى ذلك .

واندفع موسى نحو مدينة اشبيلية فافتتحها بعد مقاومة ، ثم افتتح مدنا أخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالا ضد بقية من القوط كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في ماردة ، حيث تحصنت وظلت تقاوم الحصار الإسلامي حتى يوم الفطر لسنة ٩٤ هـ - ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣ م .

وبعد ما اتجه موسى نحو ماردة يرجح أنه التقى بطارق ، ولعل هذا اللقاء وقع في جهات طليطلة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقاء لونا دراميتيكيا خاصا ، حيث تذكر غالبيتها أن موسى عاتب طارقا ووبخه ، لابل عاقبه بضربه ، ويبدو أن شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطارق على توغله دون الوقوف عند أوامره ، فترضاه طارق بقوله «إنما هذا الفتح لك وإنما أنا مولاك» ، فقبل موسى منه ، وسار بعد ذلك الاثنان الى طليطلة حيث أمضيا شتاء ٧١٣ - ٧١٤ م ، وفي هذا الوقت بالذات بدأت أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة ، وضرب موسى أول النقود الإسلامية في أوروبا .

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخلافة مغيث الرومي الى دمشق ليخبر الخليفة الوليد بن عبد الملك بأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طارق شمالا فافتتحا سرقسطة ، ومن المحتمل انهما أرسلتا من هناك حملة استكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزقوتية كان من ضمنها أراضي من جنوبي شرقي فرنسا ، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر المتوسط .

ويبدو أن موسى ارتأى هنا أن مشاكل المناطق الغربية لشبه

الجزيرة الايبيرية كانت أكثر الحاحا واهمية ، ولهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة أستوريش الساحلية ، وكان في تلك الأثناء قد قام طارق باحتلال ليون واستورقة كما اخضع أرغون ، وتشير بعض المصادر الى أن موسى أخذ يعد العدة للتوغل في داخل أوروبا ، وذهب بعض المعاصرين الى القول انه كان في رأسه خطة للوصول الى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنسا وإيطاليا وسويسرا : « ان خطة موسى بن نصير كانت تقضي بان يعود هو وجيشه الى دمشق عن طريق المانيا ومضيق القسطنطينية واسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويصبح بحيرة اسلامية تتوفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الاسلامية » .

وهناك من يرى أن هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان الى جهل القائلين فيه بجغرافية أوروبا ، ولاشك أن موسى كان يعرف مآلديه من قوات ، وكان لايعرف ما وراء البيرنيه من أراضي وشعوب ، ولا يدرك مدى قوتها .

ومع قوة هذه الحجة ، علينا أن نتذكر أنه بعد موسى بعدة قرون تمكنت جحافل الصليبيين من العبور من أوروبا الغربية ووصلت الى فلسطين على الرغم مما لاقتته من مقاومة ، اضيف الى هذا انه إثر وفاة الوليد بن عبد الملك أرسل أخوه وخليفته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية ، ومما لا شك فيه أن قطع الاسطول التي اشتركت في هذه الحملة مع المعدات وربما القوات جرى اعدادها منذ أيام الوليد ، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة ، ثم ان امتلاك المسلمين للمعلومات الكافية عن أوضاع أوروبا أمر لا ريب فيه ، لهذا يمكننا ترجيح امكانية تفكير موسى بمتابعة الفتح ، ويقول رينو : « من المؤكد أن المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلك الوقت ، وإن المرء ليرتجش عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين » .

وقصد رينو هنا بمسألة الشقاق ، ماروى عن حدوث خلافات بين موسى وطارق ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر الولاة ، وتذكر المصادر العربية أن موسى بعدما « انتهى الى أربونة أراد لقاء ملك افرنجة ، فأخذ حذش الصنعاني - وكان من كبار التابعين - بلجامه وقال سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما ، حتى أتيت انصحك اليوم ، فارجع فقد توغلت بالمسلمين » .

ولاشك أن رينو ارتعش تعصبا ، مع أن عدم فتح أوروبا حرمها من نعمة نور التوحيد والحضارة والقيم الإسلامية وأبقاها تعيش في ظلام العصور الوسطى لقرون مديدة ، أضف الى هذا أن جل أوروبا لم يكن مسيحيا بعد بل كان وثنيا .

والذي حدث أنه في نهاية صيف ٧١٤ م تم استدعاء طارق وموسى الى دمشق ، ونحن لانملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، ويرجح أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يعرف من موسى أخبار ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معسره خطط المستقبل ، ولعله أراد أيضا أن يحاسبه على ما حصله من غنائم وما أنفق ، يضاف الى هذا لعل الوليد خشي من النزعات الاستقلالية لدى موسى ، خاصة بعد ما راه يعين ولده عبد الله على افريقية ولده عبد الملك على المغرب ، ثم ولده عبد العزيز على اشبيلية ليحكم شبه الجزيرة الايبيرية منها ، وبعد ما سمع عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال ، متذكّرين في هذا المقام أن موسى كان زبيري الهوى ، شارك في معركة مرج راهط ضد مروان بن الحكم .

خلاصة القول سار موسى مع موله طارق من شبه الجزيرة الايبيرية في خريف ٧١٤ م ، وكان بصحبته قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان وزعماء بربر وقوط واسبان

وتتحدث المصادر غير الشامية أنه بعد ما جاوز موسى مصر وكان

«بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص ، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضاً بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال الى الوليد ... فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... وأخبره ان موسى تعدى في أموال المسلمين وأنفقها ... فصدق الوليد ... وكذب موسى وأمر بحبسّه ... ولم يلبث الوليد الا ثلاثة أيام حتى مات ..

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبت اليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة ألف ، قال : يا أمير المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة ألف ؟ قال : لابد من مائتي ألف دينار ، فاعتذر اليه ، فقال : لابد من ثلاثمائة ألف ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير الى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان فاستوهمه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده» .

والثغرات في هذه الرواية عديدة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانتقام من موسى بآتهامه بالتصرف بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا ان نصدق توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، الا اذا اعتقدنا بأنه تأمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره ، أضف الى هذا ان سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيداً عن دمشق لم يمتلك جهازاً ادارياً ولم يتمتع بأية صلاحيات حتى يرأس الولاية والقادة ويتدخل بشؤون الخلافة ، وأكثر ثقة من هذه الرواية ما أورده ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ، قلت أكثر ثقة لأن موسى قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق ، والمصادر الشامية لهذا مرجحة على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطارق بن زياد سوى إشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئاً عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لموسى وغير

ذلك ، فهناك اجماع على أن موسى « سار متوجها الى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة ، فلما جلس الوليد على المنبر أتى موسى بن نصير وقد البس ثلاثين رجلا تيجانا على كل رجل منهم تاج وثياب ملك ذلك التاج ، ثم دخلوا المسجد في هيئة الملوك ، وأمر بملوك الجزائر اكابر الروم فهيئوا وابناء ملوك البربر وملوك الاسبان ، وأقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين البسهم التيجان حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب ، فلما راهم نهض اليهم ، فأقبل حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثون على يمين المنبر وشماله بالتيجان ، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أيدته وفتح عليه ونصره ، فأطال حتى فات وقت الجمعة ، فصلى وانصرف ، وأجاز موسى بجائزة عظيمة ، وأقام موسى بدمشق حتى مات الوليد » .

ويرجح أن وصول موسى الى دمشق قد كان بعيد اكتمال بناء الجامع الأموي ، هذا ولم يترجم ابن عساكر لطارق بن زياد ، غير أنه ذكر أن سليمان بن عبد الملك طالب موسى ابن نصير ببعض الأموال وعندما حج سليمان سنة سبع وتسعين ، حج معه موسى ، فمات موسى بالمدينة في هذه السنة ، وقيل توفي بوادي القرى وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وذلك أنه ولد سنة تسع عشرة .

هكذا كانت نهاية موسى ، ولاندري بشكل اكيد ما حل بطارق ، ولاشك ان الزمن قد طواه بعدما طوى موسى لكن ما كان للتاريخ ان يطوي أخبار جليل ما حققاه من فتوح (١٤) .-

عصر الولاة:

دعا العرب البلاد الجديدة التي فتحوها باسم الأندلس ، وكما سلف بي القول يعتقد أن هذا الاسم صـدر عن كلمة Vandalicia نسبة الى الغزاة من قبائل الفندال ، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه

الجزيرة الايبيرية ، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر م.

وجادل بعض الذين بحثوا في تاريخ الأندلس وقالوا إن العرب لم يتركوا الأندلس بعدما فتحوها ، الأمر الذي تخيله بعض الذين دعواهم اليها وحرصوهم على فتحها ، وأثارة هذه المسألة فيها مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا الى الأندلس فساتحين مجاهدين في سبيل الله ولم يذهبوا كمرتزقة ، وليس في تاريخهم ما يشير الى أنهم تقبلوا فكرة الارتزاق ، والذي أشرف على فتح الأندلس هو الخلافة الأموية التي كانت أعظم دولة في عصرها وأكثرها رقياً وتنظيماً وثقافة ، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الايبيرية لتشكّل جزءاً من ولاية من ولايات دارالاسلام ، وقاعدة لمزيد من الفتوح في أوربا الغربية وجزائر المتوسط ، والولاية التي غدت الأندلس جزءاً منها هي ولاية إفريقية أو المغرب ، وشملت الآن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة ايبيريا ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين الى شواطئ عدن ، ومن شواطئ المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا ، وكانت هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مرة في التاريخ أراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحدة وعقيدة توحيد واضحة الأسس والمعالم ولغة مقدسة فيها حيوية وامكانيات للعطاء غير محدودة ، محققة بذلك للمرة الأولى الأممية العقائدية.

ومعروف أن هذه الدولة قد أديرت من قبل خليفة كان مقره الرسمي مدينة دمشق ، لكن على الرغم من ذلك ، ولأسباب عديدة ، كان بلاط هذا الخليفة متحركاً ، وكان النظام الإداري لهذه الدولة بسيطاً في طور التطور ، لكن بكفاءة عالية وحزم وسداد ، وكان كل شيء في هذه الدولة الشاسعة متعلقاً بالخليفة ، وتميز الخلفاء من بني أمية بشكل عام بالرجولة وبالقدرات الإدارية والسياسية المتميزة وكان لكل منهم جهاز

استشاري واسع الخبرة والفهم ، ومع هذا تأثر اشراف الخليفة على الادارة والسلطات في الولايات بطبيعة العصر وبما تولد عن احوال المواصلات وعن حال العلاقات بين الخليفة وبين القوى الفعالة التي احاطت بعرشه ، أو كان لها وزنها السياسي والعسكري ، وأعني بهذا القبائل العربية واشرافها ، ولم يسد الوئام بين هذه القبائل وعاشت دوما في صراعات أطلق عليها اسم العصبيات القبلية.

وعين الخلفاء عددا من الأعوان لممارسة بعض الوظائف المختلفة بالدولة ، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند ، وكان قائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بها ، الى حاكم مدني يعاونه جهاز اداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين احيانا الجباسة والقضاة ، أو تترك أمر تعيينهم الى القادة ، وكان كل واحد من هؤلاء القادة يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب أمير ، ونظرا لطبيعة الدولة والعصر كان كل واحد من الولاة حاكما مستقلا الى أبعد الحدود. وفي الدولة الاسلامية منحه حق المواطنة للمسلمين ، وعرفت الجماعات غير المسلمة باسم الذمة ، وكان للذمة اوضاع خاصة وادارة شبه ذاتية ، فقد أديرت الشؤون الداخلية لكل طائفة من طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، الذي غالبا ما كان رجلا دينيا ، وكان على كل فرد من أهل الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأموال مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب.

وشكل العرب نواة المسلمين في كل ولاية جديدة ، وكان هؤلاء العرب بالوقت نفسه هم الجند ، وعلى هذا غالبا ما انحصر حق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، والمستعرض لتاريخ الولايات الشرقية وغيرها يرى كم هو حجم المشاكل التي قد تولدت بعد دخول أعداد من السكان المحليين في الاسلام ومطالبتهم بحقوق المواطنة الكاملة.

وكان لكل واحد من الجند وعيالاته عطاء خاص كان هو الأعلى في

العالم في حينه وذلك مع نصيب محدد شرعيا في الغنائم ، كما كان يحق للحاكم منح - أو اقطاع - بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين ، وعلى هذا شكل العرب منذ البداية شريحة عليا في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتى بعد توقف حركة الفتوحات ، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، وتحول الأشراف منهم الى ملاك كبار ، وحين صار قادة الجند - مع بعض الجند - ملاكا انصرفوا عن التفرغ لخدمة مهنتهم الاولى ، وغدا العطاء بالنسبة اليهم ليس بذى بال أو كبير اعتبار ، وبات كل واحد منهم يعمل جاهدا في سبيل زيادة رقعة أملاكه على حساب أملاك غيره ، وخلق هذا تنافسا أو صراعا داخليا صرف الطاقات نحو الداخل وحولها عن الخارج .

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة على الدخول في الاسلام ، لا بل وجدت حالات حيل فيها دون الدخول بالاسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند الى سكنى المدن ، ونظرا لاستمرار الحاجة الى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدا قبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على أساس قاعدة الولاء ، فقد بات على غير العربي أن ينال النسب العربي بعد دخوله بالاسلام على أساس عرفي اسمه الولاء وكان الولاء موجودا قبل الاسلام ، ثم تطور بعده تطورا خاصا ومنح الولاء والاسلام المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى من درجة المسلم العربي الصريح ، ونشد الموالي رفع درجتهم وطالبوا بالمساواة ، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف .

وإذا كانت هذه الحالة العسامة في جميع ولايات الدولة الأموية ، فإن الحالة في الأندلس قد اختلفت بعض الشيء ، ذلك أن كل من موسى وطارق بن زياد كانا من الموالي والجيش التي تولت فتح الأندلس كانت عربية وبربرية وهكذا كان الفتح اسلاميا صرفا ، فأكثرية الذين تحملوا أعباء الفتح الأولى كانوا من البربر ، وجاءت أكثرية العرب فيما بعد لتشترك في قطف

الثمار ، وهكذا اضطر العرب منذ البداية لمشاركة البربر ، وعليه صارت أسس الصراعات الأولى ليس صراعا عربيا عربيا على قاعدة العصبية ، بل صراعا عربيا بربريا ، ثم ترافق هذا بصراع عربي عربي على قاعدة العصبية ، وكان لهذا دوره المقرر لمصير الوجود الاسلامي في أوروبا ، يضاف الى هذا إن اوضاع بلاد الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على الغرب اعطاء بعض التنازلات حتى وإن خالف ذلك الرائج من أحكام الاسلام وقواعده ، فبعد ما نزل العرب في شبه الجزيرة الايبيرية تعذر عليهم في البداية فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها آنذاك باسم تدمير Theodemir ، وقاوم تدمير العرب ورفض الدخول بالاسلام ، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعد ما هزمه العرب لم يعاملوه معاملة المقهور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣ م تعهد المسلمون بها بالمحافظة له على نفسه وماله مع نفوس رعيته وأموالهم مع السماح بممارسة الخيرية في العقيدة والعبادات.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولاية الوليد بن عبد الملك واستبدلهم بولاية جدد وهكذا عزل موسى بن نصير وعين مكانه محمد ابن يزيد مولى قريش واليا على افريقية ، ويروى انه بعدما تسلم ابن يزيد منصبه كتب سليمان اليه « أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة ألف دينار ، ولا يرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى فحبسه في السجن » ثم قتله بناء على تعليمات أخرى وردت اليه من الخليفة.

وكان عبد العزيز بن موسى يحكم الأندلس منذ رحيل أبيه ، وقد اتخذ عبد العزيز اشبيلية قاعدة لحكمه متخليا بذلك عن طليطلة العاصمة القوطية للبلاد ، وذات أفضل موقع حصين متوسط لحكم شبه الجزيرة الايبيرية ، وقام عبد العزيز بأكمال أعمال أبيه الحربية في الأندلس ، كما أكمل تنظيمات الولاية الادارية ، وتذكر مصادرنا انه تزوج بامرأة فيزقوطية اختلفوا في تحديد اسمها

الحقيقي ، واتفقوا على انها عرفت باسم « أم عاصم » وذهب بعضهم الى القول إنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزقسوطي المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت أبنته ، ومهما كان وضع هذه المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، إن زواج عبد العزيز منهالة عدة دلالات اولاهما أن العرب الذين عبروا الى الأندلس فاتحين لم يجلبوا معهم اهليهم أو زوجات لهم ، أي أن الفتح هنا تميز عن سواه في أنه لم يأخذ شكل هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجند العرب من نساء الأندلس المحليات ، وسيكون لهذا أثاره الواضحة على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك.

وقيل « بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته ، فخلع طاعة بني مروان وخالفهم ، فأرسل إليه - سليمان - يتهده فلم يرجع الى الطاعة »، وهنا راسل سليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله احدهم وهو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ - ٧١٦ م .

وانهى اغتيال عبد العزيز بن موسى مرحلة الفتح من تاريخ الأندلس وأبتدا مرحلة جديدة عرفت باسم عصر الولاة ، وقد دام هذا العصر أكثر من أربعين سنة توالى على الحكم خلالها قرابة العشرين من الولاة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وفقط ثلاثة منهم حكم كل واحد منهم لمدة زادت على خمس سنوات ، وكانت ولاية بعضهم قصيرة جدا ومؤقتة حيث غالبا ما تسلموا مناصبهم بعد مصرع أحد الولاة المعينيين في حرب خارجية جهادية أو في فتن أهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة والي القيروان وارتبطوا به لكن نظرا لبعد الشقة ما بين الأندلس والقيروان عاش هؤلاء الولاة في الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الاسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الآسيوي إلا أنه استمر يتأثر من جميع الجوانب بما كان يجري في الغرب ويؤثر فيه. وعندما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضاع جميع أجزاء شبه الجزيرة

الايبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب ، كما أن بعض أطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير راسخ القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الإسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع ردات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاية الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأن يدعموا الحكم الإسلامي حيثما كان ضعيفا وكان عليهم تمتين الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وبقيّة أجزاء العالم الإسلامي بشريا واقتصاديا وعسكريا بالدرجة الأولى ، لأن إمكانات العالم الإسلامي وحدها هي التي كانت كافية لمواجهة إمكانات أوربا الغربية ، فقد توجب على مسلمي الأندلس متابعة أعمال الفتوح المنظمة الهادفة أو على الأقل التصدي بالهجمات الوقائية لردات فعل أوربة الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول من بلاد محور الحياة فيها حوض البحر المتوسط إلى بلاد تتجه نحو الشمال ونحو شعوب الشمال ذات الامكانيات القتالية الهائلة ، يضاف إلى هذا كله كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوربا الغربية . (١٥) ،

وسنرى أن ولاية الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما أنهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل أوربا ، فكان ذلك من مقدمات الخسران وفقدان الأملاك .

وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى قدم أهل الأندلس أيوب بن حبيب ، وكان ابن أخت موسى بن نصير ، قدموه ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصورة رسمية من قبل والي إفريقية ، وبقي أيوب في منصبه بضعة أشهر إلى أن وصل الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧ هـ - آب ٧١٦ م ، ولعل أهم ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة ١٠٠ هـ - نيسان ٧١٩ م ، ويبدو أن ما من شيء له أهميته قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته في موكب التغيرات التي أتت بالدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمر بن عبد العزيز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية إفريقية حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمع بن مالك الخولاني « وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وانهارها ، وكان رايه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقليل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فأضرب عن ذلك » .

وما أن تسلم السمع منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد أركان الولاية الجديدة ، والعناية بمدينة قرطبة التي صارت حاضرة لها ، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها ، على أنه يبدو من مصادرنا أن السمع قد أوقف معظم جهوده على الجهاد في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولقد تقدم بنا القول إن المملكة القوطية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة أصبح الجنوب الفرنسي فارغا مع منطقة واسعة حملت اسم « غوثيا » نسبة إلى القوط أو سبتمانيا ، واتصلت بما يعرف اليوم بالريفيرا الإيطالية ، وكانت مدينة أربونة (نربونة) حاضرتها ، ومن المرجح أن السمع قد استولى على هذه المدينة سنة ٧١٩ م ، وقيل قد فتحت من قبل العرب قبل السمع ، ومن أربونة زحف السمع سنة ١٠٢ هـ - ٧٢١ م ضد مدينة طولوشة (تولوز) عاصمة أكويتين وحاصرها مدة شهر وضربها بالمنجنيقات ، وظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود الفرنجي حاكم المقاطعة لنجدتها ، ووقعت معركة صليبية عنيفة كان السمع خلالها يشد من أزر جنده بتلاوته قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » وكان الرهبان ورجال الدين النصاري يثيرون

حماس اتباعهم بتعاويز وتمائم باركها البابا ، واصيب السمع اثناء القتال بطعنة اودت بحياته ، ففت ذلك من عضد الجند المسلمين فتراجعوا مرتدين إلى اربونة .

ولم توقف هذه الانتكاسة المسلمين عن العمل في سبيل فتح الاجزاء الجنوبية من فرنسا (الأرض الكبيرة) وتابعوا نشاطاتهم من اربونة في عدة محاور ، واندفعوا في وادي الرون ، واستهدفوا بالدرجة الاولى الاديرة ، وروي انهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل (سيكون كونت سانت جايل صنجيل من ابرز قادة الحملة الصليبية الاولى) قرب آرل .

ومفيد ان نذكر انه بعدما نال السمع بن مالك الشهادة اختار الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي اميرا مؤقتا يدير شؤونهم ، حتى يتم تعيين امير رسمي ، وبقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت من كانون الثاني لسنة ٧٢١ م حتى شهر اب من العام نفسه ومرت إثر هذا عشرة اعوام تقلب فيها على ولاية الاندلس سبعة ولاة كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية ، وكان هؤلاء الولاة هم :

١ - عذبة بن سحيم الكلبي :

من صفر ١٠٣ إلى شعبان ١٠٧ هـ - اب ٧٢١ - كانون ثاني ٧٢٦ م

٢ - عذرة بن عبد الله الفهري :

من شعبان ١٠٧ إلى شوال ١٠٧ هـ - كانون ثاني ٧٢٦ - آذار ٧٢٦ م

٣ - يحيى بن سلمة الكلبي :

من شوال ١٠٧ إلى ربيع الاول ١١٠ هـ - آذار ٧٢٦ - شباط ٧٢٨ م

٤ - حذيفة بن الاحوص :

من ربيع الاول ١١٠ إلى شعبان ١١٠ هـ - شباط ٧٢٨ - تشرين ثاني ٧٢٨ م

٥ - عثمان بن أبي نسعة :
من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ - تشرين ثاني ٧٢٨ - نيسان
٧٢٩ م .

٦ - الهيثم بن عبيد الكنانى :
من محرم ١١١ إلى ذي
القعدة ١١١ هـ - نيسان ٧٢٩ - شباط ٧٣٠ م

٧ - محمد بن عبد الله الأشجعي :
من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢ هـ / شباط ٧٣٠ - نيسان
٧٣٠ م

٨ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :
من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤ هـ / نيسان ٧٣٠ - تشرين أول
٧٣٢ م .

وفي أيام عذبة استأنف العرب نشاطهم بشدة وحماس أكثر من ذي
قبل وأرسلوا كتائبهم في مختلف الجهات ، وتميز العرب بالبراعة
والحنكة ، وأتت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة
التي استولى عليها العرب أيام عذبة وبعده ، تهمني الإشارة منها
إلى اسمين هما أسقفية بوي

وكليرمونت ، CLERMONT فمن كليرمونت دعا البابا
أوربان الثاني إلى الحروب الصليبية ، وقد أناب عنه أدهم أسقف
بوي في مرافقة جيوش الحملة الأولى والإشراف عليها .

وعلى الرغم من وفرة أخبار النشاطات العربية في الأرض الكبيرة ،
فإنهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها ، حيث يلاحظ أنه في فترة
السنوات العشرة التي أشرنا إليها أعلاه عاشت الأندلس في ظل
بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة أخرى ،
ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية ، وقد تطرف المستشرق
دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محورا أدار عليه
جميع حوادث تاريخ الأندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن مادعاه

باسم العصبية القبلية ما كان صراعا بين قبائل لاختلاف انسابها ، بل كان صراعا بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان أو بقعة محددة وادعت لنفسها نسبا جامعا يمت الى احدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام صراع بين المجموعات المتجاورة بالموطن المتباعدة المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المراتب .

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع أود عن نفسه وعن أراضيه مستغلا أحيانا النزاعات بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ومسيهما فيها أحيانا أخرى ، وخلال ذلك الوقت صنع زواجا « دبلوماسيا » مع عثمان بن أبي نسيعة ، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمن بها من غارات العرب ولكن الى حين .

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قسام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بسمعة عالية وبشعبية واسعة بين صفوف الأندلسيين لشجاعته وزهده وكرمه ، ولما أدرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته ، رأى أن يقوم من جديد باستئناف حركة الفتوحات واكمالها ، وذلك انسجاما مع خطط الخلافة آنذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهتي الخزر والأندلس .

وقرر عبد الرحمن الغافقي أن يوجه طاقاته ضد أود ، وبدأ تحركه بأن بعث الى عثمان ابن أبي نسيعة ، وكان قائدا لمنطقة الحدود مع أراضيه حميه كونت أود ، بعث اليه بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ويروى أن هذا الأمر قد وقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسدا لعبد الرحمن وضنا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فتوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الرحمن الى عثمان « وقع في حيص بيص » وراجع الأمير عبد الرحمن قائلا له إنه لا يقدر أن يخفر

جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه ، فأرسل اليه يشدد عليه بتنفيذ أوامره ، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إشعال الغارة في بلاد أود أرسل إلى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشا إلى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله وأمره أن يأتيه بعثمان حيا كان أم ميتا ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذت زوجته الحسناء إلى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها إلى دمشق.

ولما وصل خبر مصرع عثمان إلى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لا محالة ، فتأهب للدفاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرانية ، فاحتل عددا من المواقع وحصل على كميات من الغنائم ، قالت المصادر الغربية إنها كانت هائلة ، وحاول أود إيقاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التفت مرغما نحو خصمه شارك مارتل ، الذي عرفه العرب باسم « قارله - كارل » ، وعندما وصل العرب قريبا من تور الواقعة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشا عظيما يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال جيشه ، وقد بات بعيدا جدا عن قواعده ، فرأى هذا الجيش مثقلا بالغنائم والأعتدة وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجند ، وأدرك في هذا مخاطر لاحصر لها ، ولعله هم بإعطاء الأمر للجند بتخليف الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، ولعدم امتلاكه لقاعدة ثابتة ، ولا يثاره الحفاظ على جميع قواته أثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارك مارتل وقواته ، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل فيها وضع الجند العربي ، لأن قوات شارك مارتل كانت أكثر عددا ، مرتاحة تقاتل في أراضيها ، وفي اليوم الأخير للقتال دب الخلل وسط الجيش العربي ، وحاول الفرنجة مهاجمة مؤخرة هذا

الجيش ، وهذا ألقى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعركة ، فنال الشهادة ، ومع حلول الظلام توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي فوجيء الفرنجة بمعسكر العرب قائما كما كان ، لكنه خاليا من الجند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا فيما بعد أن العرب انسحبوا تحت جناح الظلام ، فاكتفوا بذلك ولم يجربوا ملاحقتهم . هذا ولاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث في أوربا وعدوها إحدى معارك التاريخ العالمي الفاصلة ، وقالوا إنها أبقت نصرانية أوربية وحالت دون انتشار الإسلام فيها ، وفي هذا الكثير من التطرف والشطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في كثير من الحالات شيئا وانتشار الإسلام شيئا آخر ، فقد حكم العرب ، وبعدهم بعض القوى المسلمة أقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك إلى انتشار العقيدة الإسلامية والأخذ بها.

إن الذي ربحته فرنسا وأوربا هو الحفاظ على حالة التخلف الحضاري والاجتماعي ، وكسبت التعصب واستبداد الكنيسة الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع السياسة والملوك والحكام ، ونماء نظام الاقطاع وتحويله الناس إلى اقنان.

يضاف إلى هذا أن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها ، كما أنهم وصلوا إلى ما بعد بحيرة جنيف في سويسرا ، إنما كانت العمليات العربية منذ الآن ، على مستوى صغير ، وبامكانات متدنية ، غير مدعومة من حكومات أو دول قوية كافية الموارد ، ولعل من بين دروس هذه المعركة القاسية أنه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسا ، وهنا ينبغي أن نقف قليلا عند مسألة الغنائم ، التي غالى الأوربيون في رفع شأن تأثيرها ، لنبين قائلين إن فرنسا القرن الثامن لم تكن بلدا غنيا أو ناميا يمكن للمغير عليه أن يحصل منه على غنائم ثمينة ، ولم تمتلك الكنائس والأديرة ثروات واسعة ، فعبادة الأيقونات لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن

هنالك ثروات أو ذهب وفضة ومجوهرات ، لقد توفرت امكانات جمع الأرقاء للبيع والاستخدام ، هذا وماكان عرب القرن الثامن - وقد فترت حمية الجهاد في انفسهم بعض الشيء - ليغامروا داخل فرنسا ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابيل وأرباح كبيرة مضمونة ، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسا أعلى بكثير من المرباح ، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض المراكز الساحلية ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد ، وأثروا دوما العيش في المناخ المتوسطي ، اضافة الى كل ما تقدم وأعلى أهمية عانى العرب في الأندلس وأفريقيا الشمالية والمشرق بعد معركة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم وششت قواتهم ، وانتشرت الفتن بينهم ، لذلك لم يحاولوا الثأر لما لحقهم في معركة بلاط الشهداء وظلوا يعانون من المشاكل والانقسامات والحروب الداخلية حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير الم بشؤون السلطة في الأندلس ، وانعكس على علاقاتها مع أوروبا.

لقد كانت معركة بواتيه أو بلاط الشهداء نهاية لتيار المد العربي الفاتح في فرنسا ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيدا داخل فرنسا وكذلك سويسرا إلا أمواجا شاربة زهبت قواها وانهدرت محصلاتها حيث وصلت دون أن تترك أثرا دائما ، وبالمقابل استمر مع الأيام تيار الجزر المعكوس حتى غطى الأندلس بقعة بقعة (١٦).

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي الى مسامع والي افريقية أنفذ عبد الملك بن قطن الفهري واليا جديدا على الأندلس ، وأنفذ معه قوة من خيل ورجل ، وبعث الى الخليفة الأموي يعلمه ويستمدده ، ويبدو أن عبد الملك أخفق في إثارة همم الناس ودفعهم الى الغزو من جديد ، وهنا عزل من منصبه وكان هذا في سنة ١٢١ هـ / ٧٣٩ م ، وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي افريقية عبيد الله بن الحبحاب.

وكانت جموع كبيرة جدا من بربر المغرب قد دخلت الاسلام ، غير ان ابن الحبحاب أساء معاملة البربر ، فقد كان فظا ثقيلا الضرائب ، شديد التحصيل ، وفي الوقت نفسه انتشرت افكار الدعوة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر ، وجاء هذا الانتشار لأسباب عديدة ما من واحد منها كانت مضامينه نزعات استقلالية ، وكان ما أن تهيأت الفرص حتى ثار خوارج البربر سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م بزعمامة أحد هم وعرف باسم ميسرة المدغري ، وبذل عبيد الله غاية جهده للقضاء على هذه الثورة واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الاخفاق ، وقام بعض خوارج البربر باغتيال زعيمهم ميسرة المدغري وانتخبوا زعيما جديدا اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خالد هذا الحاق هزائم ماحقة بالقوات العربية التي كانت مترابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السيطرة العربية عن معظم اجزاء المغرب ، واضطر ابن الحبحاب الى مغادرة المغرب الى دمشق ، حيث أخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بما الت اليه الأمور ، فانفعل وتأثر كثيرا حتى قال : « والله لأغضبن غضبة لهم عربية ولأبعثن اليهم جيشا أوله عندهم واخره عندي » .

وكان لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على اوضاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بدورهم ، وكان من مسوغات الثورة أنهم تحملوا العبء الأكبر في فتح الأندلس ، لكن على الرغم من هذا كان مانالوه من ثمرات الفتح ادنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك أنه عندما وزعت أراضي الأندلس على الفاتحين اعطي البربر أراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود ، هذا في حين نال العرب احسن الأراضي الأندلسية واكثرها خصبا ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس - مقارنة مع أحوال العرب - وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بايداع سلفه واليها المعزول عبد الملك بن قطن مع اعوانه ومؤيديه السجن ، وقد مثل عبد الملك حزب أهل المدينة المنورة في

الأندلس ، وحين اخفق حاكم المغرب في القضاء على ثورة البربر ، وبعدها أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، واصيب عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قامت جماعة الحزب المدني فسارغمته على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكذا وللمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس انما بموجب ارادة قوى أندلسية ، وليس تبعا لارادة والي افريقية او الخليفة الأموي ، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب الى حد قيادة الأندلس الى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشا كبيرا على رأسه كلثوم ابن عياض القشيري ، وعهد اليه بولاية افريقية ، وأمره أن يعمل على القضاء على الثورة الخارجية فيها ، وزحف كلثوم نحو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بلج بن بشر وكان في بلج رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن تصرفاته وسلوكه وقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في افريقية ، لذلك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب ، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبته ، وهناك اتخذ موقف الدفاع . وتحت الحصار ضاقت الحال ببلج وجنده ، وحينئذ طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على القدوم الى الأندلس ، ولم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثا حاول استدرا عطفه عليه ، بما كان يذكره في رسائله من أنه هو رفاقه يموتون جوعا في سبته ، وأنهم قبل كل شيء عرب مثله ، فلم يلن بؤسهم قلب ذلك «الشيخ المدني العجوز» أعني عبد الملك الذي ربما حمد الله تعالى أن أتاح له ، وهو في التسعين من عمره ، فرصة تذوق لذة الانتقام بمشاهدة أبناء الجفافة القذلة وهم يشرفون على الموت جوعا ، أو ليسوا هم الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وأبناء عشيرته ، والذين أوشكوا أن يذيقوه - هو نفسه الموت

بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة المنورة واستباحوها وذنسوا حرمة
قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجده ، أفيطمع أبناء أولئك
العتاة الرعناء أن يرق لهم عبد الملك ؟! وهل لروح الانتقام أن تموت
عند ذلك المدني ، وهل يمكن لآلام الشامي أن تحرك شفقة من عاش
ينتظر يوم الثأر، وهكذا لم يكن لعبد الملك سوى هم واحد ورغبة
فريدة ، وشغل شاغل وحيد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية
لأهل الشام وبين مدهم بالميرة أو أي نوع من المساعدات ، وعلى
الرغم مما اتخذه من الاحتياطات ، استطاع شريف رؤوف من قبيلة
لخم أن يفلت من رقابته ، وأن يرسي في مينااء سببته مركبين
مشحونين بالحنطة ، فلم يكذ يتناهى خبر ذلك الى عبد الملك حتى
قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمئة جلدة ، ثم أمر بسمل
عينيه وقتله متهما إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته على
سارية وقد صلبوا الى يمينها كلبا إيغالا في الزكاية بسبه
والشماتة ، وهنا خيل للشاميين أنه قد حكم عليهم بالموت
جوعا ، غير أنه جد فجأة أمر لم يكن في الحسبان ، أرغم عبد الملك
على تغيير مسلكه .

فلقد استشرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس
حماسا صعبوبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها
البربر هناك «وتخرج موقف عرب الأندلس إذ ذاك ، وأصبح حالهم
يذخر بالخطر ، وأوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه
- على الرغم مما يجيش في جوفه - مضطرا لالتماس معونة أهل
الشام المحاصرون في سبته ، أهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى
هذه الساعة يكابدون مصيرهم التعس دون أن تأخذه فيهم شفقة أو
رحمة ، إلا أنه اتخذ لنفسه الحيلة ، فوعدهم أن ينفذ إليهم مراكب
تنقلهم على شرط أن يقطعوا العهد على أنفسهم بمغادرة الأندلس
حالما يتم القضاء على الثورة ، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من
شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضمانا
لصدق تنفيذ الاتفاق ، واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك

أن ينقلهم جملة الى افريقية وأن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان .»

وأقر الجانبان الاتفاق . وهكذا ابهر اهل الشام من سبقة ودخول الأندلس «عراة لا يواريههم إلا دوابهم ، وقد بلغ بهم الجهد غايته ، وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس ، ، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس ونقحوا زحفوا ضد البربر فهزموهم في أكثر من معركة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وفي تلك الأثناء تعرف عرب الشام على الأندلس ، فأعجبتهم البلاد ، وأعجبهم غناها ، وأدركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما أن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضي عليها ، حتى طلب عبد الملك من بلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعودة نحو افريقية ، وهنا اختلق بلج أسبابا للبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، وأودع عبد الملك السجن وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فثار جند بلج ، وأخرجوا عبد الملك من السجن» كأنه فرخ نعامة من الكبر ، وهم ينادونه: أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود ثم أردت اخراجنا الى القتل ، ثم قتلوه وصلبوه ، وصلبو خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله».

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونما جرائر ، فقد انقسم عرب الأندلس الى قسمين متصارعين : شاميين وبلديين قدماء ، وقامت معارك بين الطرفين ، ولقي بلج مصرعه في الحرب ، لكن أصحابه حققوا لأنفسهم النصر ، فاستمروا متسلمين لمقاليد الأمور ، وخلف بلج ثعلبه بن سلامة العاملي ، وكان هذا سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م ، وجاء اختيار ثعلبة بسبب «أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم ، فان أصيب فابن أخيه بلج ، فان أصيب فثعلبة» ،

واستمرت الحرب الأهلية أيام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعا بين العرب والبربر ، وأخرى بين العرب أنفسهم شماميين وبلديين ، وبقي النصر حليفا للشماميين ، ووقع أثناء هذه الحروب في أيديهم عدد كبير من الأسرى كما أقدم ثعلبة على اقتراف إثم لم يعهده العرب في تاريخهم الا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق أطفالهم ، وكان ذلك حدثا لا سابقة له ولهذا جاء في منتهى الفظاظاة والقسوة .

وأخاف تدهور أوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شماميين وبلديين والتمسوا مخرجا لذلك ، فتوجهوا بأبصارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت الى الاستقرار النسبي ، بعدما وجه اليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحدث ذلك بعد ما بلغه ما صار اليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء أهل الأندلس بحنظلة سألوه أن يندب اليهم واليا يكون قادرا على إعادة النظام والأمن والطمأنينة الى الأندلس ، فاستجاب لمطلبهم ، واستعمل أبا الخطار الكلبي حسام ابن ضرار ، ووصل أبو الخطار الى قرطبة على حين غرة ، فآلفى ثعلبة بن سلامة «وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبيط ، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لامن يزيد» .

وتسلم أبو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن أنهى الحرب الأهلية ، فنفى عددا من شخصيات القوى المتصارعة وكان من جملة المنفيين ثعلبة بن سلامة ، وأعاد النظر في توزيع أراضي الأندلس على العرب ، فأعطى طالعة بلج الشامية أملاكا أندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من أهل الأندلس وسكانها الدائمين .

ونجح أبو الخطار في إدارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم ، لكنه لم يتمتع نفسه بذلك طويلا ، حيث ما لبث أن تخلى عن مصالحه ورزاقته وتعصب لليمانية ضد الجماعات القيسية وبهذا أعاد الانقسام من جديد الى صفوف عرب

الأندلس ، وتزعم الجماعات القيسية الصمـمـيل بن حاتم الكلابي ، وكان حفيدا لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، وكان اعرابيا عنده عنجـهـة البداوة وصـلـفـها ، ولم يكن صاحب ثقافة اوحتى معرفة بالاسلام ، كما كان لا يحسن القراءة والكتابة ، ويروى انه (مر بمؤدب يقرئ ولدا له القرآن فسمع منه الآية : «وتلك الايام نداولها بين الناس» فوقف الصمـمـيل وقال للمؤدب : نداولها بين العرب ، فقال له المؤدب : «بين الناس» فقال الصمـمـيل وهكذا نزلت الآية : قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصمـمـيل : والله اني ارى هذا الامر سيشركنا فيه العبيد والسفـال والأراذل) .

وجمع الصمـمـيل اعدائه من قبائل قيس ، ووثب بأبي الخطار فانـتـزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شي من الفوضى والصراع عين الصمـمـيل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، عينه واليا على الأندلس ، ولم يلق أتباع الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعماء أبي الخطار عدة معارك ضد القيسيين ، كان أشهرها واحدة وقعت سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م بمكان عرف بشقندة ، وكان على مقربة من قرطبة ، وقد تلاقي رجال الفريقان المتصارعان «حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا الى البراز فتنازلوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن في الاسلام صبر مثله» وعندما أصيب الطرفان بالانهك أسرع الصمـمـيل نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح الصمـمـيل وصحبه ، وأعقب المعركة تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الأحداث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمر بدور الحـشـرجة النهائي ، لذلك سـارت الأمور في الأندلس دون أن يكون للخلافة أو والي افريقية أي دور في ايقاف المذابح التي

وقعت ، وازدادت أحوال الأندلس سوءاً أنه حل بها سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وسنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م قحط شديد ومجاعة دفعت بالعديد من سكان الأندلس من العرب الى هجر الأندلس والعودة الى المغرب ، وكان ذلك فرصة أهتبلها رجال المقاومة الاسبانية ، فبدأوا حرب الاستغلاب التي ستستمر أجيالا طويلة ، وتنتهي بسقوط الأندلس وطرد العرب منها .

لقد تهيأت الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قطن للانتقام لفاجعة بلاط الشهداء واستئناف حركة الفتوحات ، لعدة أسباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفانس وسواها تعاونوا مع العرب لكراهم لشارل مارتل ، ولانشغال شارل مارتل نفسه في نشر سلطانه في أماكن أخرى ، لكن حالة التمزق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس وعدم توفر قوى بحرية كافية لدى العرب ، وأخيرا الفوضى التي حلت بالشام والمشرق منذ استيلاء يزيد الناقص على الخلافة ، وبعد هذا أحداث الثورة العباسية حرمت العرب من فرصهم ، ومعروف انه كان من بين نتائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجومية للفتح وشروع المسلمين باعتماد خطط الدفاع .

وبالفعل جرى تجصين بعض المواقع الاسلامية في جنوب فرنسا ومقاطعة بروفانس ومع هذا نجح الفرنجة والاسبان بالاستيلاء على بعض المواقع الاسلامية مثل أفينون Avignon «صخرة أبينون» لكنهم لم يتمكنوا من أخذ نربونه ، حتى شارل مارتل نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع انه حاصرها لبعض الوقت (١٧) .

وكان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العباسية محلها أوسع الآثار وأكثرها حسما بالنسبة للأندلس ، فتاريخيا أنهى الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد ، غدت فيه بلاد الأندلس أول قطر اسلامي يخرج عن الاجماع الاسلامي بالطاعة لخليفة واحد ، واضطرت هكذا الأندلس للاعتماد على طاقاتها الذاتية لمواجهة طاقات القارة

الأوروبية ، مضاف الى هذا أحياناً دسائس ومؤامرات حيكت في دار
الاسلام ، لذلك لاعجب أن ترافق وصول الأندلس الى ذروة القوة مع
الانهيار السريع .

عصر الامارة الأندلسية

بعد معركة شقذدة خلصت ولاية الأندلس الى يوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك ظاهر فقط ، ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب ولاية الأندلس إلا لقب الأمير الاسمي فقط لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الأيام تبرم يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص من الصميل ، واستطاع ذلك بأن أبعد عن قرطبة الى سرقسطة في الشمال ووصل الصميل الى هذه المدينة سنة ١٢٣هـ / ٧٥٠م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني.

ولم يلق الصميل وقت وصوله الى سرقسطة معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك الى أن وصوله تزامن مع احتدام القحط والمجاعة هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء ومأوى الى جميع المحتاجين دونما تمييز ، وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتفاهم وانعدام الشغب والنزاعات بين القيسية واليمانية. لكن ما أن زال الجفاف وعاد الخصب ، وزال الجوع حتى تحركت النفوس بأحقاقها من جديد ، وعقدت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة ، وبالوقت نفسه واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق ، اتخذ موقف الدفاع ، ثم اعوزته الحاجة الى التماس العون من يوسف فطلب منه انجاده ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل ، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب فعلا في التخلص من الصميل ومن نفوذه.

وضاق الحصار على الصميل وأضر به حتى يئس من الحياة وهم

بالالقاء بيده ، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة ، كتب الى زعماء قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت الى مسرح أحداث الأندلس ، وتجيشت قوة من قبائل قيس ، ومن جماعة عرفت بموالي بني أمية ، وانطلقت نحو سرقسطة ، وكان برفقة هذه القوة رجل طرق الأندلس حديثا ، عرف ببدرمولي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدته نحو قرطبة ، وفي سرقسطة قام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره أنه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس ، وأحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البداية « واتفق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال: تأملت الأمر فوجدته صعب المرام » وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل.

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم « قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلا لطلب ثأرهم ، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية الى الأندلس ، وعاد بدر الى مولاه ومعه خمسمائة دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق.

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية، عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا الى طليطلة لأمضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ - ١٤ - اب من سنة ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقة ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقرا في قرية قريبة دعيت بَطْرُش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنا لابد لنا قبل متابعة الحديث عما آلت اليه أمور عبد الرحمن مع أمور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كيما نعود الى الورا

- ٥٥٤ -

لنتعرف الى شخصية عبد الرحمن مع الاسباب التي حملته على ترك
المشرق والقدوم الى الأندلس.

عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م ، وكانت أمه بربرية من سببي المغرب تسمى « راحا » أو « رواحا » وقد توفي أبوه وعبد الرحمن ما يزال طفلا صغيرا ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة إلى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الأطفال ، وعندما كانوا بالباب ، جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك إلى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية بن هشام ، فنظر إليهم متفحضا واستعرضهم واحدا واحدا ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه إلى صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعته الخليفة هشام فراه يفعل ذلك بحنان فسأله: « من هذا يا أبا سعيد ؟ فأجابه مسلمة: ولد لمعاوية ابذك ، ثم مال عليه وأسر إليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله: لنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام: « أهو؟ » فأجابه مؤكدا: « اي والله وقد عرفت العلامات والامارات بوجهه وعنقه ».

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف أحفاده ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية: إن بني أمية كانوا يعرفون عن طريق النبوءات أن ملكهم أيل إلى الزوال في المشرق، لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر أهله معرفة بما سيحل بملك بني أمية وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد.

وتبعا لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني أمية ، وقامت الدولة العباسية تذكر ، فتوجه إلى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك.

لا شك أن طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي

استهدفت اضعفاء الشرعية النابعة عن الارادة الالهية على نجاح أعمال عبد الرحمن ، ولا ريب أن مثل هذه الأقسا صيغ كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الاسلامي ، وقد وجد من روج لها ، ففي عصور الاسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت الى حد عجيب غريب ، وكان هناك من آمن بحتمية الأقدار وأن الانسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت .

لكن يقال هنا: يؤيد هذه النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس ، والاجابة هنا: ليس عبد الرحمن وحده من بني أمية الذي توجه نحو المغرب ، ولو كان هناك نبوءة أخذ بها لما أمضى - كما سنرى - فترة طويلة بالمغرب قبل أن يجرب حظّه في الأندلس .

لقد فر عبد الرحمن الى المغرب لأنه لم يجد سبيلا آخر ، وكان عبد الرحمن وقت تفجر الثورة العباسية قد تخفى في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه الى التستر هو البطش العباسي وعمليات الابادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع افراد الأسرة الأموية ، واقام عبد الرحمن قرب الفرات بسبب إقامة هشام عبد الملك أيام خلافته في رصافة الرقة ، وحدث أنه في أحد الأيام فوجيء عبد الرحمن بثلة من الجند العباسي تقترح القرية التي كان فيها ، فهرب من وجهها مع أخ له وألقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة ، في حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي فذبحوه على الفور ، ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ، ولعله تخفى عند أحد أنصار بني أمية أو مواليهم ، وفي فلسطين لحق به مولاة بدر مع سليم مولى أخته أم الأصبغ ، وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه أخته ، ومن فلسطين توجه الى مصر فاجتازها الى المغرب .

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت أموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبة بن نافع ، وكان

عبد الرحمن بن حبيب هذا قد استولى على أمور المغرب واستبد بالسلطة هناك استيلاءً لا تفويضاً ، فقد كان بالأصل من أهل الأندلس ، هرب منها إلى المغرب ، ثم تدبر أموره فأحدث انقلاباً استولى فيه على حكم المغرب كله .

وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي أفراناً من البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت إلى المغرب ، وقدم لها المساعدة ، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا إلى المغرب ولقوا مساعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويين ، ذلك أنه كان فيمن قدم عليه من الأمويين ولدان للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، يقال لأحدهما القاضي والآخر المؤمن.....فأنزلهما عبد الرحمن بدار....وكانت معهما عجوز في الدار ، فدس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضع تسمعه منه كلامهما ، فقالت: إن البيت الذي هما فيه ، في سقفه غرفة فإن شئت فأنا أوصلك ليلاً إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال: أفعل ، فلما كان في الليل أطلع عليهما وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضي: ما أغفل عبد الرحمن ، أظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحسب أولاد الخليفة ؟! وعندما سمع عبد الرحمن هذا الكلام بطش بالأميرين الأمويين ، وأخذ بملاحقة بقية الأمويين فبادروا إلى الفرار والتجأ بعضهم إلى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بن معاوية .

قد تكون قصة التصنت هذه مخترعة وهي مجرد صدى لتغيير ابن حبيب لسياسته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشيتهم من مطامح بعضهم مع رغبته في التقرب إلى العباسيين ، الذي يعزينا هنا هو أن عبد الرحمن بن معاوية مضى « ينتقل من قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر ، وذرع إفريقية الشمالية من أدناها إلى أقصاها ، فاخترق حينا في برقة ، ولان حيناً آخر ببلاط بني رستم

ملوك تاهرت (من المغرب الأوسط) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلاً بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات - وهي فترة غير قصيرة - دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظه في إسبانيا ، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، المملق ، العديم الأصدقاء ، ودأب على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له ، فطردته مكناسة من أرضها فتركها إلى قبيلة نفزة البربرية التي منها أمه ، وكانت تسكن قرب سبتة .

ومن هناك تعرف عبد الرحمن إلى أحوال الأندلس ، وكان طموحاً ، لاتنقصه روح المغامرة ، فأرسل موله بدر إليه ، فالتصل بدر هناك بجماعة كانت من موالى الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالى زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

وتلفت شخصية بدر الانتباه ، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم تكن سرا البتة ، والذي كان سرا هو وقت العبور وموضعه ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، كتبت زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول : « ابن معاوية قد دخل ونزل بطرُش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، وأصغقت بنو أمية معه ، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه » .

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانفض أكثرهم عنه ، وعاد بعضهم إلى مواطنه وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وبذل يوسف غاية جهده لجمع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت موائماً لذلك ، فأخفق على الرغم من بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، ولقد سعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف و بالتزققات السياسية في الأندلس ، ولم

يضع الفرصة التي واتاه بها حلول الشتاء ، فزاد من نشاطه ، وصار يبدي في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفرص ، وهكذا ازداد عدد أعوانه ويبدو أن حركته قد أخذت بعض السمات الاجتماعية ، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين من عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ونزع من السراق وأهل الخثر والغدر ، ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا إلى النقص ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب ، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، اكفك وأصل رحمك ، وانزلك معي إن أردت ، أو بحديث تريد ، ثم لك عهد الله وذيته الا اغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره » .

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته ، ولاشك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغريب به ، لكن عبد الرحمن كان أكثر نباهة وحذرا ، فرفض طلب يوسف ، وأهمل عروضه ، وطلب منه التنازل عن حكم الأندلس ، وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومع الأيام ازداد اتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العدة للزحف على قرطبة ، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبة التقى جيش عبد الرحمن بجيش يوسف والصميل ، فاستطاع عبد الرحمن إيقاع هزيمة ساحقة بهما وبقواتهما وأجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة ، وكان ذلك صباح يوم عيد الأضحى لسنة ١٣٨ هـ / ١٤ - أيار ٧٥٦ م .

وقام جند عبد الرحمن اليمانيون بنهب قرطبة ، وعندما حاول

إيقافهم عن النهب ومنعهم من القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضبا شديدا ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ، ولحسن حظ عبد الرحمن أنه علم بخبر المؤامرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها ، مما دفع المتآمرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقى الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان آنذاك هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدوا للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة ، ذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك ، مع أن عبد الرحمن لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولا ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الإسلامية الشرعية ، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الإسلامية فصلا سياسيا كاملا ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي ، فعمليا كانت الأندلس دائما مستقلة ، يربطها خيط واهي بالسلطات الشرعية لأفريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهدا جديدا في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام ووحدة أراضيه السياسية ، ورسم بداية النهاية للوجود العربي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، لأن المواجهة الآن باتت بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوحيد لكن نادرا ما التزمت بوحدة الصف، وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المسائل الفارقة الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس وأن يقوم بمعالجة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد

وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن أعدادا لا بأس بها من هؤلاء بدأوا بالتحول إلى الإسلام ، وكانت أسباب التحول هذه أسبابا نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنييسة الأسبانية وإفلاسها أمام الدعوة الإسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في الشرق كما شابها في بعض الوجوه .

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الابداع في ثقافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلّى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الإسلامي وتبنوا كل ما كان للعرب إلا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفاؤه العديد من الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للابقاء على نوع من التوازن بين القيسيين واليமானيين وفي الوقت نفسه أخذ في إعداد جيش من المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السالف ، كما أن تجنيده لجيش خاص جعله يختلف عن متقدميه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبين العربيين ، وبدلاً من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى ، واستدعى هذا إنشاء بلاط ، وإضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لإنشاء البلاط واقامة الجيش المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة مما دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها

وكل هذا لم يكتب له ان يقوم دون ردات فعل ، ومشاكل مستحدثة معقدة .

وبسبب ان عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني فقد وجد ان عليه اولاً ان يعالج مشكلة الحزب القيسي ، ذلك انه بعدما دخل قرطبة ، سيطر على عاصمة الأندلس ، لكن ليس على جميع اجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشبيرته في جندجيان ، واخذوا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد ، وسار أولاً ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة كسبها عبد الرحمن ، استطاع عبد الرحمن ان يجبر خصميه على الاستسلام له ، وجلبهما معه إلى قرطبة ، حيث عاملهما معاملة كريمة وكان يشاورهما احياناً ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصميه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل اقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة ١٤١ هـ - ٧٥٨ م منها ، واخفق جند عبد الرحمن في تعقبه والقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف والقاء في السجن مع ولدي يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت اخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين ألف من عرب وبربر ، وزحف على قرطبة ، وكان ان اصطدم أولاً باشبيلية ، وهناك هزم ولحق فقبض عليه قبيل طليطلة وهناك قتل ، واثر ذلك اجهز عبد الرحمن على ابي زيد بن يوسف وابقى الولد الآخر حياً في السجن .

وكان هذا الولد يعرف بابي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره فانطلق ذلك على سبائيه ، وهياً له الفرصة للهروب ، وقد اثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد . ولم ينعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلاً بعد تفرغه من معالجة مشاكل الحزب القيسي فقد انجر نحو معالجة مشاكل الحزب

اليমানى ، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حبا به بل سعيا وراء الانتقام من الحزب القيسي وحبا لنيل السلطة ، وكان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليماني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمانيين ، إلا أنه كان مضطرا للتعاون معهم ، ولهذا نجده يلجأ إلى سياسة التوازن فلم يحاول إبادة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصر اليمانية تسكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخمدها واحدة تلو الأخرى . ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م بتحريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ، وكادت هذه الثورة أن تقضي على جهود عبد الرحمن وتعيد الأندلس ولاية من ولايات الخلافة ، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه من تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعدادا كبيرة من الثوار وبعث بعدد من رؤوس القتلى فرميت بسوق القيروان ، ويقال أنه بعث ببعض الرؤوس إلى مكة ، وكان المنصور حاجا آنذاك فرميت قريبا من خيمته ، فلما رآها وعرف رأس العلاء بينها أصابه الذعر وقال : « إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان »

وفي سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى بقيادة سعيد اليحصبي ، الذي عرف بالمطري ، واستطاع المطري احتلال اشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي السنة نفسها قتل عبد الرحمن زعيما يمانيا آخر هو أبو الصياح بن يحيى اليحصبي ، وفي سنة ١٥٦ هـ - ٧٧٢ م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى في منطقة اشبيلية بقيادة عبد الغافر اليحصبي فقضى عليها أيضا وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبد الرحمن الكثير من البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمن جميعا ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا

الى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداد قوى غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان بن يقظان العربي الكلبي حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلي «لأنه كان طويلا ، أشقر ، أزرق امعر » وأبي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر الى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٧ م ، فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من اخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق اخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الأندلس عرف بأن الصقلي قد لاقى حتفه ، وأن أبا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كان سليمان بن يقظان قد استولى عليها ، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقسطة بخطط سليمان بن يقظان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفر سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه ، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبرا قضى بالاختفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعا الى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتزمين فرصة غيابه .

لكن كيف تمكن شارلمان من الوصول الى سرقسطة مباشرة ؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فقدوا سيطرتهم على مقاطعة سبتمافيا وخسروا حصنهم المنيع في أربونة ، فقد توفي شارل مارتل سنة ٧٤٧ م ، فخلفه ابنه بيبن ، وقد اعترف البابا ببيبن ملكا شرعيا الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتل نفسه ، وسعى بيبن في الاسمين الأولي من حكمه للسيطرة على اكيثانية وانتزاع حكمها من أبناء أود ، وهيا هذا النزاع فرصة ثمينة أمام العرب ، غير أن ما شهدته

ساحات الأندلس من الصراعات الأهلية لم تحل فقط دون اغتنام الفرصة بل دفعت نحو توريط حاميات الثغور في الصراعات ، وعندما خلت المنطقة اهتبل الفرصة بقايا القوط واخذوا يسعون للاستقلال ، وانتزع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حاصروا اربونة ، وعجزت نجدة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفريغ عنها ، وفي سنة ١٤٢ هـ - ٧٥٩ م استسلمت هذه المدينة لجيوش بيبين ، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتمانيا وغيرها من اجزاء المملكة الفرنجية .

واخذت قوة مملكة الفرنجة تزداد مع مرور الأيام ، وغيّرت سياستها تجاه عرب الأندلس من الدفاع الى الهجوم ، وزاد الطين بلة أن بعض زعماء العرب وضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة واستدعوا شارلمان ليستولي على سرقسطة وسواها ، واخفقت حملة شارلمان واضطر الى الانسحاب .

وفي طريق العودة أثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البرانس انقض رجال البشكنس ومعهم بعض العرب على مؤخرة قسواته حيث مؤن الجيش ونخائره ، فالتفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراسيتها ، وهكذا وقعوا كارثة كبيرة بجيش شارلمان ، وكان بين القتلى عدد من النبلاء من بينهم رولاند الذي قيل انه كان ابن اخت شارلمان نفسه وحاكما لمنطقة الثغور .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوروبية تتناقل اخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلمان ، محيطية ذلك بهالة خاصة أثرت على الفكر الأوربي للعصور الوسطى ودفعت نحو كتابة واحدة من أشهر ملاحم العصور الوسطى الا وهي الملحمة المعروفة باسم «نشيد رولاند» وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هذه المرة ، وكانت حملة شارلمان اخر محنة خطيرة يتعرض لها عبد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث توفي في ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ - ٣٠ ايلول ٧٨٨ م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قرن يعمل على تأسيس ملك لبني أمية في

المغرب بعدما انقطع في المشرق ،وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به
فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما اثار هذا النجاح اعجاب الكتاب
والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمكن
الكتابة عنه (١٨) .

هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا عادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى ويعلو الثقافة ودعوته بالرضا لا شك أنها كانت متصلة بتيارات الربيع الأخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوءات وتطلعات الأمة الإسلامية ، فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الإمام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون وليا لعهد هذه فترة من الزمن .

فهشام أراد أن يقطف ثمار ما صنته والده ، ويتمم العمل في احلال رابطة الأمير محل رابطة العصبية ، وجعل شخصية الأمير محور الأمور في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه ، ولقد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة إلى الهدوء والأمن بعدما فقدت تلك فترة مديدة .

ويشبه هشام الرضا بعمر بن عبد العزيز ، وهو قد نال بتقواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق ، حتى ثمناء بعض المشايخ أن يكون إمامهم بدلا من الإمام العباسي ، فهذا مالك بن انس يقول : «وددت أن الله زين موسمنا - أي موسم الحج - به » .

وشهد عهد هشام الذي امتد حتى سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجح في البداية في التغلب على منافسة أخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه كما روي أن قسواته تمكنت من استرداد مدينة أربونة ، واستأنف النشاط داخل أوربية في فرنسا وسويسرة واهتم هشام بقرطبة فأكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطبة ، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم أسوار

المدينة ، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصره واحدة كانت تتعلق بانتشار المذهب المالكي في الأندلس وحلوله محل مذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معا ، كما أنه يمكن أن يقوم ضمن إطار السياسة الدينية لهشام ، والسياسات الدينية للدول التي عاصرت هشام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثل الامبراطورية الكارلونية ، والامبراطورية البيزنطية ، واخيرا الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمة سواء اكان ذلك قسرا أم تم بالرضا ، ومما يثير الانتباه أن السياسة الدينية لهشام نالت حظا أكبر من النجاح ، مما نالته محاولات اباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وايجاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الايقونات وغيرها من المسائل ومما نالته ايضا سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتزال واعلانه عن أن القرآن مخلوق ، وسعيه لاجبار الناس للأخذ بهذا الرأي .

وحين توفي هشام كان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتوّه قد جاوز سن الأربعين ، فهو كان قد ولد سنة ١٣٩ هـ - ٧٥٦ م ، وكانت أمه أم ولد تدعى جمال ، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الأموية في الأندلس يجد أن غالبية افرادها انحدروا من إمء ، وهذه الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمع الأندلس بشكل عام ، فالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجالا بدون نساء ، وحين تزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الأحيان من شقراوات أوربة تم الحصول عليهن من اسواق النخاسة ولم يؤثر هذا على ملامح وأعراف الأندلسيين فحسب ، بل كانت له آثار خطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات افراده في الملبس والمطعم وحتى في طرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها (١٩) .

الحكم الربضي

قبلما يتوفى هشام الرضا أوصى بالحكم من بعده لابنه الثاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعرف الحكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيث واجه ثورة عارمة فيه سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسفك دماءهم ، ولعل أهم سمات عهد الحكم حماسات الدم التي أقيمت ، وكثرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحكم اللذان كانا قد ثارا على أبيه واجبرا بعد إخفاقهما على مغادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخواه عبد الله وسليمان ، إلى الأندلس ، ودخل عبد الله أولا ، حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجد ويستعديه ، وكان هذا سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م ، وفي سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك) وأعلن الثورة ضد الحكم ، وخاض ضد قوات الحكم عددا من المعارك هزم فيها ، وكان آخر المعارك سنة ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م ، حيث أسر فأتي به إلى الحكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سليمان عاد عبد الله من بلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته .

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الإسلامي ، كما أنها تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هذا مأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ويروى أن ثورة أعلنت فيها سنة ١٨١ هـ - ٧٩٧ م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بإرسال جيش بقيادة قسائد عرف

بعمروس بن يوسف ، واخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ الى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي اهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا ان يقنع اهل المدينة بفتح باب المدينة له وادخاله إليها ، وتذكر المصادر الأندلسية أنه بنى قصرا عند مدخل طليطلة ، وعند ما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرفهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين « ٧٠٠ الى ٥٣٠٠ » وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها .

واهم من ثورة طليطلة وأكثر شهرة ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك أنها كانت مدينة مسورة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها ، وعادت الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو أن غالبية العناصر التي هاجرت إلى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه أن يكون مدينة جديدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة .

وحين نقوم بالبحث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو في ريعان الشباب ، في السادسة والعشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن بن معاوية باقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ أن مجتمع الأندلس كان قد أخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين ، ولقد رأينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالاسلام ، ووصف ابن عذاري الحكم بأنه كان «شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تتقى ، ... وكانت له ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحست يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به » .

واكمل الحكم عملية تطوير أسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الأمير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدأت التحركات ضد الحكم في الربض منذ فترة مبكرة ففي سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٥ م كشف مؤامرة استهدفت الاطاحة به ومبايعة احد اقربائه ، وقد قام هذا القريب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين ، فألقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا وأعدمهم جميعا جملة واحدة ، ثم اتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها .

وجلب هذا الاعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة الى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك أنهم «أنكروا عليه أشياء رابتهم فأرادوا خلعه » ، وأحدث هؤلاء الفقهاء «أنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ، أعني صوامع المساجد ورأوا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : «أيها المسرف المتماذي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك » .

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في إيجاد السبيل لايقافه ، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبس ، ويبدو أنه القى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢ هـ - ٨١٧ م تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم وكانت ثورة عارمة ، ولئن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها ، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الأندلس . وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضى استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا طبقت قوات الحكم

على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هائل ، قتل فيه آلاف من العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم اطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على اقاليم الأندلس ، كما سمح للقسم الأكبر بمفادرة الأندلس إلى المغرب حيث أسهموا في تأسيس مدينة فاس وفي المغرب لم يستطع جميع هؤلاء العيش طويلا ، فتوجه قسم منهم نحو الاسكندرية « فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة مذكرة » ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبار قادتها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية ، وتفاوض معهم بعد ذلك على ترك الاسكندرية على أن يزودهم بالسفن والمؤن والسلاح ويدعهم يذهبون حيث شاءوا ، وغادروا الاسكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها حكما عربيا استمر قرابة القرن والنصف حيث قام في سنة ٣٥٠ هـ - ٩٦١١ م الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزاعها من العرب .

لقد تم الاستيلاء على كريت سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م ، وكان الحكم قد توفي منذ عدة سنوات ، أي في سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢٢ م ، وكانت ثورة أهل الربض آخر ما واجهه من مخاطر داخلية ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن .

وسلفت الإشارة إلى التجاء عبد الله عم الحكم إلى بلاط شارلمان وإلى إخفاقه ، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع الفرنجة ومع حكام جليقية ، فقد قام الملك الفونزسو (أدفونش) ملك جليقية بحملة ضد لشبونة وأسر جماعة من المسلمين ، وفي سنة ٨٠٠ م ، السنة التي كان شارلمان يستعد فيها في روما لنيل تاج الامبراطورية أعلن لويس بن شارلمان عن نيته في انتزاع برشلونة عاصمة كتالونية في شمال اسبانية من المسلمين ، وبالفعل حوصرت هذه المدينة وقطعت المنافذ إليها لمنع النجدة من الوصول إليها ، وبعد حصار طويل ودفاع مستميت استسلمت برشلونة سنة ٨٠١ م

بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة ، وعلى الفور حولت مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستغلاب وأرسل لويس إلى أبيه ببيع الغنائم والأسرى ، والمثير للانتباه أن المصادر غير العربية تذكر أنه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الشهير ، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي - عباسي ضد الحكم الأموي في الأندلس ، قابله تحالف أندلسي بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معا . ومفيد أن نذكر أنه مع قيام الحكم الأموي بالأندلس انشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السفن ، وما لبثت الأندلس أن امتلكت أسطولا قويا للدفاع عن سواحلها والنشاط داخل البحر المتوسط ، ففي أيام الحكم هاجم الأسطول الأندلسي جزيرة سردينية سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م ثم هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكا (٢٠) .

عبد الرحمن الثاني

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم «الفي الملك قد مهد ووطد ، فخلا بلاذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ..»

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدأ في عهد أسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقبسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في أيام أبيه الأخيرة التي قضاه بالمرض ، وكان انسانا متحضرا ، ورجلا ليئا ، طيب الأخلاق مرنا ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرص الشعر ، ويمكن القول أنه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية وإقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخل عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، إنما لم تكن أي من هذه الثورات بدرجة ما حدث أيام أبيه ، ولعل من أبرز دلائل الرفاه والازدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس ، وبذيت أماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطئ الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما اهتم بإنشاء أسطول خاص بالأندلس

وقام عبد الرحمن بإعادة بناء الهيكل الإداري لدولته ، فعدد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد الذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني أنذاك أنه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب .

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطا فكريا كبيرا خاصة

في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من أبرز الشواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته أن زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتل الأمين ، ووفد على أمير قرطبة ، الذي استقبله بحفاوة بالغة وأكرمه خير أكرام

وكان الامبراطور شارلمان قد توفي سنة ٨١٤ م ، وخلفه ابنه لويس الثاني ، الذي افتقر الى مؤهلات أبيه وحزمه ، لهذا فان عرى الامبراطورية التي شيدها شارلمان بعد جهود مضنية شرعت بالتفكك ، وكان لهذا اثره بالنسبة للضغط الفرنجي على الأندلس وإنفاذه وتأثيره

فقد بدا المسيحيون من سكان الشمال الاسباني يشكون من تعسف التسلط الفرنجي فثاروا ولقوا التأييد من قرطبة ، وبالمقابل حاول لويس الانتقام فانتهز قيام ثورة في ماردة فأرسل إلى سكانها يقول : «باسم الرب وباسم منقذنا المسيح ، نحن لويس بعناية الرب امبراطور ، الى القساوسة وإلى شعب ماردة تحية باسم مولانا المسيح

بلغتنا محنتكم وما تحملتموه على يد عبد الرحمن الذي لم ينفك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، انه يصنع مثلما كان يصنع معكم أبوه (أبو العاصي) الذي كان يريد أن يرغمكم على دفع مبالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعل من أصدقائه أعداء ومن الطائعين ثوارا ، إنه يريد أن يحرمكم من حرييتكم ويرهقكم بالضرائب من مختلف الأنواع ويهينكم بجميع الطرق ، ولكنكم لحسن الحظ قمتم برد ظلم ملوككم وعدوانهم بشجاعة ، ولقد قاومتم ببسالة وحشيتة وجشعه ، وهذا الخبر وصل إلينا من مختلف المصادر ، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هذه الرسالة لمواساتكم ، وأحثكم على مواصلة النضال الذي بدأتوه من أجل الدفاع عن حريتكم ، وبالنظر إلى أن هذا الملك المتوحش عدونا بقدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمه ، ونحن ننوي أن نرسل في الصيف القادم بعون الرب ، جيشا ليعبر

جبال البرينيز ونضعه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم ، وحاول هذا الجيش الزحف عليكم فإن جيشنا سيقوم بتحركات واسعة لصرفه عنكم ، ونحن نصرح أنكم إذا خلعتم طاعته وأعلنتم طاعتنا فسوف نرد إليكم حريبتكم التي كنتم تتمتعون بها من قبل دون أن تمس ، وإننا لن نفرض عليكم أقل ضريبة ، ولكم أن تختاروا القانون الذي تودون العيش في ظله ، وسنعتبركم أصدقاء يريدون أن يشاركوا في الدفاع عن امبراطوريتنا ، ندعو الرب أن يحفظكم في صحة وعافية »

واللفت للانتباه أنه على الرغم من توجه لويس بالخطاب إلى رجال الدين المسيحي في ماردة لم يكن في مقدوره توجيه تهمته للتعصب ومنع الحريات الدينية إلى المسلمين ، علما أن الفرنجة كانت هذه سياستهم والأسباب في حروب الاستغلاب ، وامضى أهل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على قرطبة ، وكانوا يأملون في وصول النجدة التي وعدهم بها ملك الفرنجة ، وعندما لم يصل منه أية قوة استسلموا وفتحوا أبوابهم لجيوش قرطبة .

وتردت الأوضاع في امبراطورية لويس التقي وتهيأت الفرص أمام المسلمين لاسترداد ما فقدوه ، لكن طاقات الأندلس لم تكن لتسمع وحدها بذلك ، لا سيما إذا ما ذكرنا استمرار العلاقات التحالفية ما بين الفرنجة والعباسيين ، وقد ساعد على تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الأغالبة في إفريقية (تونس) منذ أيام الرشيد .

وتحدثت المصادر الفرنجية عن علاقات تجارية ما بين مصر وسورية من جهة وامبراطورية الفرنجة من جهة ثانية ، وأنه وصل في سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م سفارة مكونة من ثلاثة أعضاء ، أرسلهم الخليفة المأمون إلى فرنسة ، وقد حمل هؤلاء الرسل هدايا إلى امبراطور الفرنجة كان من بينها اقمشة حريرية وعطور

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثاني بعدة غزوات برية لأراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت عن طريق البحر على مرسيليا، غير أن غزواتهم لم تكن منظمة وشاملة ، بل عابرة ،

وكان من بين اسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني

ففي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاما وقد خلف من البنين الذكور خمسة واربعين ومن الإناث ثلاثا واربعين ، وبعدهما توفي خلفه ابنه محمد الأول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس (٢١) .

من الامارة الى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان شابا ، ذلك انه ولد سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م ، وكانت امه ام ولد اسمها بهير ، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حيا وعند وفاته اوجت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار ، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على ان هذه الصورة كانت خداعة ، وان بناء الدولة كان متماسكا لكن بروابط ضعيفة ، وكان فقط ينتظر حدوث بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه .

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء ، واحدا تلو الآخر ، وكانوا :

أ- محمد الأول : ٨٥٢ - ٨٨٦ م

ب - المنذر : ٨٨٦ - ٨٨٨ م

ج - عبدالله : ٨٨٨ - ٩١٢ م

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء اطلت الأندلس على عهد جديد ، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة ، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عددا من الثورات ، ولقد سارت هذه الثورات على المنحى نفسه الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي ، اي ان الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن ، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك ، ذلك ان سكان المدن كانوا غير راضين لسبب أو لآخر ، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية ، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات ، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار أصيلة يمكن ان تحل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم ، والعجز في تقديم مثل هذه

الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح أحداث الأندلس عدد من الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلتها لماربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور البشري والعسكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها أخلاطا ، صلاتهم أكثر متانة وتفاعلا مع الجانب الأوربي أكثر من الجانب المسلم من البلاد ، ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة ، فيها المنعة والسلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العسكري كان يمنح بشكل دائم ، حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالبا ما كان قادة الثغور أفراد أسر توارثت السلطة واحدا تلو الآخر ، ويرى بعضهم أن نظام ثغور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الإقطاعي الأوربي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شيئا من هذا بعدما نبين أن منطقة الثغور في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة ، ثم الثغر الأوسط ويشمل منطقة طليطلة ، وأخيرا الثغر الأدنى و كانت مدينة ماردة مركزا له ثم حلت محلها مدينة بطليموس وكانت أشهر أسر الثغور أسرة القسي ، وكانت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى بن موسى . وقد بدأ بتحريكه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلا وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الإسبانية النبيلة ، وكان له أقرباء عدة من الأسبان وخاصة مع أفراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار ، وكانت هذه

الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة سامبلونا ، وأعطت علاقات الزواج مع آل القسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهنا لا بد لنا من وقفة نتبين فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام رابط زواج بين أسرتين واحدة مسلمة وأخرى نصرانية ، خاصة وأن الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف ، لقد راق لبعضهم أن يفسر هذه العلاقات على أساس النظام الأقطاعي الذي كان سائدا آنذاك في أوربسة الكارلونية ، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن بشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع أن نفهم بعض ما أورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الأمر يقودنا إلى طرح سؤال أكبر هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطا أساسيا يشد أزرها ، كما أنه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الإسلام ، ولقد رأينا أن أمراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وفي الوقت نفسه لم يتخذ أمراء بني أمية القابا دينية كما لم يقوموا بالسعي الدائمي نحو إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك أنه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين أمير قرطبة وأحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يسارع إلى نقض العقد وإعلان عدم الاعتراف بسيادة أمير قرطبة ، ويلاحظ أن عددا من أمراء قرطبة أدركوا خطورة الحال ، فعملوا من أجل إحلال رابطة الإسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا أنفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، وأثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الإسلام ، ولا شك أنهم هياؤا السبيل نحو تبدل

الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وإبداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه هذه السياسة ، قام بين صفوف الأسباني حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحركة على ظهور عقيدة تعرف بعقيدة القديس جيمس كومبوسيتلا ، وكانت هذه العقيدة مسيحية بالأساس ، اعتمدت على أفكار دينية أيبيرية قديمة ، وكانت هذه تؤمن بالتوأم الألهي ، وهكذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس أخا تواما للمسيح .

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للأسباني ، ذلك أنهم اعتقدوا بأن الله أرسل جيمس مع مساعدة سماوية للأسباني في حروبهم ضد المسلمين ، وأنه حتما سينتصر الأسباني ، وقد اعتبرت هذه الحركة أساس القوة الروحية لحرب الاستغلاب الأسبانية .

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فظل سيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفاته في ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م ، وحاول من بعده ثلاثة من أولاده ثم عدد من أحفاده الاحتفاظ بأملكه فلم يوفقوا كثيرا .

وفي الوقت الذي كانت فيه أسرة آل القسي صاحبة السيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صاحبة النفوذ في الثغر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبد الرحمن الثالث .

ومهما بلغت ثورات أسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءا مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابن حفصون تفجرت أيام الأمير محمد الأول واحتاجت الى وقت مديد حتى قضى عليها ، وتمثل هذه الثورة إحدى حركات جماعة المولدين في الأندلس ، ومع أننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قام الفتح الإسلامي للأندلس ، أصبح مجتمع هذا البلد يضم : (١) العرب (٢) البربر (٣) السكان الأصليون ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس

الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان ابيض واسود ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر أو بين العرب والسكان الأصليين ، وجاء من هذه التمازج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضا من السكان الأصليين اعتنق الاسلام ، وبعض تبني الثقافة العربية وبقي بعضهم الآخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الاسلام باسم المولدين ، كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البزير وسندسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها . وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شيم بن ، ويعود به نسبه إلى إحدى أسر اسبانيا المحلية التي صارت أسرة زمنية بعد الفتح الاسلامي ثم قام أحد أفرادها ولعله جعفر بتبني الاسلام .

وبدا ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصايات ، شارك في العديد من أعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الأندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧ هـ - ٨٨٠ م ، ويوصف جبل بيشتر بالحصانة وتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث أقي القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١ هـ - ٨٨٤ م حيث هرب منها وعاد إلى بيشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحجب إلى أتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف أنصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضامين أفكار ابن حفصون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييدا شديدا من المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشبه شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعا ، وعجزت سلطات قرطبة وأخفقت في التصدي لها ، وإذا ما صدقنا ما كتبه بعض المؤرخين العرب ، نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية إسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ابتغت الانتقام من العرب ، وازادت التخلص من حكمهم ، ومن هنا نجد لها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشعوبية ، هذا وإن عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الإصلاح الاجتماعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالافلاس والخسارة النهائية . وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما أوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وارضاء جميع الرغبات ، ولقد ترك زعماء العصابات أحرارا واعطاهم صلاحيات جمع المال والذهب كيفما شاؤوا ، ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصرفون بما يسمى «الشهامة» ، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ، وكان صارما للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى آخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون العديد من الظروف المشجعة ، كان أهمها الأزمات التي قامت في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبديل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة ،

ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

و في عهد الأمير عبدالله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبدالله ضعفا وتدهورا ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسنائه تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديدة ضد حركة المولدين الموجهة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بها على إمارة قرطبة ويقيم حكما جديدا فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك مر المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيب قواته وأعوانه وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة ، وأخيرا لكن ليس أخرا انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهالك التي أودت بثورته ، ذلك أنه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال العصائب ذوي الأهواء الشخصية ، وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها ، وعاملين على تطبيق مبادئ معينة لها كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية

أما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصائب ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع أول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، أو اضرار بها كان العقد سينفطر ، وهذا ما حصل

فلقد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبدالله بن محمد ، وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة أخرى طالبا منه تقديم الطاعة له شرط أن

يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأماكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب رأسه وتمادى في غروره وشططه ، وأخذ يعمل غاراته ويوجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبدالله أسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م يؤس الأمير عبدالله من الحال التي كان فيها ، وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشا وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض ، وحقق الأمير عبدالله في هذه الملحمة نصرا ساحقا ، كان له أثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد أخذت الحياة تدب من جديد في جسم الإدارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع أمير قرطبة ، وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من أتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاعت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان أمامه أفريقية وأمراء الثغور وأوربة ، فاتصل بالأغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الأهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع آل القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي أخذت فيه أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيت الثوار ، وضرب فئاتهم بعضها ببعضهم الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م بإعلان نصرانيته وردته عن الإسلام ، ومع أن ذلك أكسبه عطف بعض المستعربين وتأبيدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطى الذريعة الكاملة لسلطات قرطبة لإعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في إرسال الحملات ضده ومضايقته عسكريا ، وفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حاول ابن حفصون أن يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت

الحمالات ضده ، فانتزعت اراضيها قطعة تلو الأخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبدالله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شابا في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس ، وأن يقلب الإمارة إلى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م توفي ابن حفصون ، واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث ، الذي سيعرف بالناصر ، أن يصفي هذه الحركة نهائيا (٢٢) .

ولئن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبدالله مضطربة وبدأت تسير لغير صالح الحكم الأموي هناك ، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وإيطاليا قد شهدت تغييرات جمة سيكون لها جميعا انعكاساتها على عصر عبد الرحمن الثالث والعصور التي تلتها ، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ أمد طويل كل من جزيرتي كريت وصقلية - الأمر الذي سيقف عنده في فصل مستقل - وكانت دولة الأغالبة قد زالت من إفريقية وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاريعها التوسعية التي لم توفر الأندلس من حساباتها ، وكانت دولة الأدارسة في فاس قد بدأت بالتلاشي ، ولذا نقتصر حديثنا أولا عن نشاطات العرب في فرنسا وسويسرا ، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث وإعلان الخلافة في قرطبة .

توفي الإمبراطور لويس الثاني سنة ٨٤٠ م ، فوقع صراع مرير بين أولاده من بعده وحروب طويلة كان لها أثرها المأساوي على أوروبا ، وزاد من اضطراب أحوال أوروبا الغربية تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنغ المدمرة ، والذي يعزينا هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانز الفرنسية ، وتوسعهم حتى ما بعد جنيف في سويسرا وإلى حدود ألمانيا أيضا ، وسأدع الحديث

عن النشاطات العربية في جنوبي إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح صقلية وما أعقب ذلك من أحداث .

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر ، وأغاروا على بعض المواقع فيها ، وخاصة على مرسيليا مع نهائية النصف الأول من القرن التاسع للميلاد ، لكن بعد هذا التاريخ شرعوا في تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل .

والشير للانتباه أننا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية بشأن هذا الموضوع وعلينا الاعتماد على الروايات الأوروبية ، ويبدو أن العرب الذين اجتاحتوا بروفانس لم يتلقوا توجيها حكوميا أو مساندة أو تغطية سلطوية ، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج . في حوالي سنة ٨٨٩ م كانت بروفانس ودوفيني تخضعان لزعيم اسمه بوزون Boson ، ولم يكن من أسرة شارلمان ، ومع هذا حصل على لقب ملك ارل ، في أيام هذا الملك قام عشرون من الملاحين العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس ، وقد اضطرتهم عاصفة شديدة إلى الالتجاء إلى خليج غريماذ Grimaud ، وصعدوا إلى البر دون أن يعترضهم أحد ، وكانت هناك غابة كثيفة قرب الخليج ، وإلى الشمال منه امتدت سلسلة من الجبال الصالحة لبناء القلاع ، ويبدو أن هذا كان في كونتية نيس ، وقام على قرية هناك ثم أسسوا قاعدة لهم وأخذوا باستدعاء الأعوان من الأندلس وإفريقية ، وكثر عدد العرب ، وما لبثوا أن تحكموا بأهم ممرات وحصون بروفانس ، وفي العقد الثاني من القرن العاشر شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومنتفرات Montferrat ، وعندما سنقرا أخبار الحروب الصليبية سنجد أن بارونات مونتفرات كان لهم الدور المبرز فيها .

لقد غدت بروفانس كلها خاضعة للعرب ، ومن ثم غدت سويسرا مسرحا لنشاطاتهم ، وكان من بين المدن الفرنسية التي استولى عليها العرب مدينة غرينوبل Grenoble وهذه المدينة يسكنها

اقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيكون للعرب القادمين من
الأندلس دورا عظيما فيها

واخذ الفرنسيون وسواهم يجمعون قواهم لاجراج العرب من
سويسرا وبروفانس ، وحالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر
خليفة قرطبة ، ففي سنة ٩٦٥ م تم اجلاء العرب من غرينوبل ،
وكانوا حوالي سنة ٩٦٠ م قد اخرجوا من مضيق سنان برنارد
الجبلي ، وحدث في سنة ٩٧٢ م ان اسر العرب القديس مايول
رئيس رهبان ديركلوني الشهير ، فسأثار ذلك مشاعر المسيحيين
وتجمعت قواهم واخذت تسعى لاجلاء العرب ، ولم تأت نهاية العقد
الأول من القرن الحادي عشر حتى كان العرب قد فقدوا ممتلكاتهم
الفرنسية وسواها ، ومع هذا لم تتوقف البحرية الأندلسية وغيرها
عن الاغارة على شواطئ فرنسا حتى سنة ١٠٤٧ م ، اي حتى
قبيل جيل واحد من مؤتمر كلير مونت ودعوة البابا أوربان الثاني
للحروب الصليبية (٢٣) .

عبد الرحمن الثالث وعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت «الفتنة قد طبقت أفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحدا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ... حتى دانت له البلاد وانقاد له العباد ..»

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وأن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، وجاء ثانيها من مملكة ليون ، ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ، ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وابعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبدالله ، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف ، فقتله أبوه عبدالله به وقام الأمير عبد الله بضم حفيده إليه ، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه وكان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده بويغ بالامارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه إعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأول من حكمه عددا من الحملات كما وجه العديد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في الوقت نفسه بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في أيدي أمينة مخلصه له .

واستطاع سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م استعادة مدينة اشبيلية ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفا شديدا ، وبعد وفاته سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م تنازع اولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع املاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائيا سنة ٩٢٨ م .

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماما شديدا وسعى نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها ، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م باعلان نفسه خليفة ، وشجعه على القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالشرق ، ونجاح الاسماعيلية في المغرب وإعلانهم عن اقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهمته نحو طليطلة فحاصرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث ، الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخاذ لقب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه إعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون .

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد تمزق الامبراطورية الكارلونية (امبراطورية شارلمان) ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون ... نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة اشتورش التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ م حتى سنة ٩٥٠ م يعرف برنمير ، وتصدى رنمير هذا لحملة عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصارا ساحقا سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة

الف مقاتل ، وعلى الرغم من هذا فإنه لم ينجم عن هزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رزمير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رزمير سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية •

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماما على جميع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهرا وليس فتحا ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم إلى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة •

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلس فقط بل أخذ بالتوسع في شمال أفريقية ، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد في السيطرة على أجزاء من المغرب الأقصى ، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م) استطاع قسائده جوهر الصقلي استرداد معظم أملاك قرطبة ما عدا طنجة وسبتة ، وبقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم

في المغرب ، ومع هذا كان للصراع الفاطمي - الأندلسي على المغرب آثاره الحضارية والثقافية مثل السياسية وأكثر ، فازدياد أهمية المغرب الأقصى كان له بعض انعكاساته على الصحراء الكبرى وقبائلها ، وهذا ما سنرصده في قيام حركة المرابطين ، ودور الأندلسيين في إدارة المرابطين ثم دور المرابطين في الأندلس وتحويلهم هذه البلاد الى ولاية مغربية •

ومن الواضح ان اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار إفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك •

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الامبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه اوضاعا جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالموكب الفخمة ، وبالوقت نفسه ايكال الأمور الى رجال الإدارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الإدارة ، مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الإدارة والجند تهيأت الفرص لاضعاف قوة الخليفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة متأخرا وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء •

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم ان يوطد أركان الإدارة في قرطبة وأن يقطف ثمار ما صنعه من أمن واستقرار في الأندلس ، ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه ثم

أيام ابنه الحكم التي كانت امتدادا لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها .

ووقع الناصر سنة ٣٤٩ / ٩٦٠ م مريضا وظل المرض يلزمه حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني . (٢٤) .

الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمرارا لخلافة أبيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على المناحي نفسها ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال •

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للإدارة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها •

ولعل أهم الانجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرما بالعلم ، شغوفاً بجمع الكتب ، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع أن يكون مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواء اكان ذلك من ناحية الكم أو النوع ، وجاء الى بلاطه عدد من علماء المشاركة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من ابرز علماء المشاركة القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر الشرقي بدأ يتزعزع زمن الحكم ، ونمت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل أهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي اقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات •

وكانت ابرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن

وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاع شأنه .

كما ازدادت أيام الحكم أهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها ، لكن أحداثا كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثيرا مفاجئا ومحولا على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (٢٥) .

هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض الم به وأقعه مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه أثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الأساس بنى خطته في حال وفاة الحكم .

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصميانه وكان هؤلاء صقالبة الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من أبناء جنسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته ، وكان أبرز صقالبة القصر يعرفان بفائق وجؤذر ، وأخفى جؤذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وأرادا تولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، أخى الحكم ، حيث كان شابا يستطيع أن يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبيا في الحادية عشرة من عمره ، وخطط جؤذر وفائق لقتل المصحفي وإعلان خلافة المغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده .

وعندما علم المصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن أبي عامر ، وأرسل المصحفي ابن أبي عامر مع قوة من الجند إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خنقا ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة ، وبقي المصحفي سيد الأندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالبة القصر وأثرهم ، وساعده في ذلك ابن أبي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالبة بالبطش وبالتامر معا ، ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل

الى تقلد جيش المملكة » فحقق ما صبا له ، واخذ يرقى في مصاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية وتفرد بسيادة الأندلس ، ولعله من المفيد الاكتفاء هنا بهذا الموجز عن ابن أبي عامر لأنني سأعود للحديث عنه بشيء من التفصيل في مكان آخر .

لم تكلل محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لانتاج مجتمع عربي واحد ، وعلى هذا ما أن ألغيت الخلافة الأموية حتى تمزقت البلاد شر ممزق ، وظهر فيها أعداد لاتحصى وأنواع لاتعد من المغامرين والطامحين لنيل السلطة ، وانغرست في النفوس طبائع الفرقة وعادات التمزق ، ونادرا ما اصاخ الأندلسيون الى نداءات الوحدة وهجر الفتنة ، وباتت ساحات الأندلس لاتعرف غير الحروب والصراعات وأعمال التامر ، وأفاد من هذا الحال حكام اسبانيا النصرانية ، وزادوا من نشاط حركة الاستغلاب وانتزعوا من المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتذوهم بدون رحمة ، ولا شك أن هذا كله انعكس على الأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة لمسلمي الأندلس ، واشتملت اسبانيا النصرانية في الشمال على ثلاث ممالك هي : ليون ، ونافار ، وأراغون ، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر للميلاد تقدمت نافار بين هذه الممالك ، ولايعزينا هنا الحديث عن ملوك نافار وسواهم ولا عن نشاطاتهم ، بل المهم الاشارة الى أن ألفونسو السادس (الفنش) ابن فرناندو الأول (٤٦٥ - ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ - ١١٠٩ م) ، استدعي لتسلم الحكم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م بعد وفاة أخيه شانجة ، وكان آنذاك ملتجئا الى مدينة طليطلة ، حيث أمضى فيها تسعة أشهر ، وستكون هذه المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حرب الاستغلاب التي خاضها .

وحينما تمزقت الأندلس قام في كل مدينة من مدنها متغلب وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق الى حيث لم يذهب كثيرين من أهل الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطه المجاورة لعباد الصليب ، ليس لاحدهم في الخلافة ارث ، ولا في

الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الاقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العملات والامصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الالقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الاعلام ، وانشدهم الشعراء ، ودونت باسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بابوابهم العلماء ، وتوسلت اليهم الفضلاء ، وهم مابين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، مامنهم من يرضى ان يسمى ثائرا ، ولالحزب الحق مغايرا ، وقصارى احدهم ان يقول : اقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيرا لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك اجالا واعمارا ، وخلفوا اثارا وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل -----» (٢٦) .

وكان اهم دول الطوائف :

- مملكة سرقسطة - الثغر الأعلى : بنو هود
- إمارة قرطبة - وسط الأندلس : بنو جهور
- مملكة طليطلة - الثغر الأوسط : بنو ذي النون
- مملكة بطليوس - الثغر الأدنى : بنو الألفطس
- مملكة إشبيلية - غربي الأندلس : بنو عباد
- مملكة بلنسية - شرقي الأندلس : تداولها أكثر من حاكم
- مملكة غرناطة - جنوبي الأندلس : بنو زيري

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حاضرة الأندلس ودار الولاية والخلافة ، وتقدمت عليها وعلى سواها إشبيلية ، وحكمت إشبيلية من قبل أسرة بني عباد التي ادعت الانتساب الى ملوك الحيرة ، وتأسست الأسرة من قبل القاضي أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد ، الذي شهر بحزمه وقوته ، وقد توفي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م وورثه ابنه أبو عمرو عباد الذي تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد على

درجة كبيرة من الدهاء ، سعى الى توسيع ملكه بشتى الوسائل ،
وصرف في هذا السبيل جهودا عسكرية وسياسية ومالية كبيرة ، لكن
في سبيل الصالح الفردي المحض ، فهو استخدم طاقاته ضد اهل
الأندلس ، لكنه تذل لفرناندو الأول وذهب بنفسه الى معسكره
ليترضاها ويطلب منه الصلح والمهادنة مقابل مبلغ كبير من المال ،
وامضى المعتضد في الملك ثمان وعشرين سنة حيث توفي سنة
٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد
على الله ، وكان شاعرا مجيدا « من الملوك الفضلاء ، والشجعان
العقلاء » اجتمع له من الشعراء واهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله
من ملوك الاندلس ولي امر اشبيلية بعد أبيه وله سبع
وثلاثون سنة ، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه واخراجه عن ملكه في
شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ هـ « (٢٧) .

واتسم جل ملوك دول الطوائف بالبذخ وتبديد الأموال والرعونة
والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية ، وقد تحدث ابن بسام في
الذخيرة طويلا عن بعض هؤلاء الملوك ، وكان منهم المأمون بن ذي
النون صاحب طليطلة ، فقد اراد المأمون يوما أن يبني قاعة خاصة
به ، ارادها أن تكون على درجة لانظير لها من الجمال والأبهة ،
ووقع اختياره على بناء ماهر فيه دل وصلف لتنفيذ هذه المهمة ،
واستطاع هذا البناء أن يذل المأمون أكثر من مرة ، وبينما المأمون
مهتم ببناء القاعة « اتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرناند
(فرناندو الأول) على بلاد المظفر بن الأفطس ، وطئها وطأة محت
رسومها ، واستباححت حريمها ، واجتاحت حديدتها
وقديمها وأياست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء ، فأخبرت
عن وزيره أبي المطرف بن مثنى أنه كان يومئذ بمنزله بين الوجوم
والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، إذ وردت رسل المأمون
عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد
استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا ، فظن أن ذلك الضجر ، لما
كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ،
وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن مثنى يبسطه ويقبضه ،

تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ،
ومرة يقول : قد ان لك ان تذكر على الطاغية هذا الافتيات ، فلما فهم
منحى ابن مثنى منه ، اعرض عنه ، وقال : ألا ترى هذا الضالع
الفاءلي الصانع - يعني عريف بنيانه - صبرت له واغضبيت ،
وفعلت به كيت وكيت ، فما زاد إلا تنغيصا للذتي ، واستخفافا
بإمرتي وتصغيرا لشأني ، واجتراء على سلطاني « وحاول الوزير
مداراته وتهوين الأمر عليه ، ثم خرج لمقابلة البناء ، فلم يأبه به ،
واخذ « يداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، مما أمره
بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس « ثم عاد الوزير إلى
المأمون ووعدده خيرا وخرج بعد ذلك من عنده وهو « لا يدري من أي
الثلاثة يعجب : أمن اغترار ابن ذي النون وجهله ، أم افضاء
الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله ، أم من جراءة ذلك الصانع القصير
اليد ، النزر العدد ، على ذل ابن النون ودله .

قال ابن بسام : فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شيء
في الأرض ولا في السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه ،
الهادم - كان - للدين والدنيا شأنه ، مربطا للأفراس ، وملعبا
للأعلاج الأرجاس ، من رجال الطاغية أنفونش ابن فرنلند ، بدد الله
شيعته « (٢٨) .

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فبدد قوى الفوننسو السادس
بعد ما كاد أن يلتهم الأندلس جميعا ويأخذها من ملوك الطوائف (٢٩)
استجاب جل وعلا بأن أرسل المرابطين فخاصموا معركة الزلاقة
وغيرها من المعارك فأخروا بذلك سقوط الأندلس عدة قرون ، وقد
آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم .

الفصل الثاني

قيام حركة المرابطين

يظهر البحث في تاريخ الاسلام ان قضايا هذا التاريخ قد تفاعلت وتشابكت على الرغم من سعة الرقعة الجغرافية والمسافات الطويلة بين المناطق والبلدان ، وعلى هذا ان الواقعة التي حدثت مثلا في المغرب قد نجد اسبابها المباشرة في بلد اسلامي وغير المباشرة في بلد اسلامي اخر ، ونضرب هنا مثلا بتاريخ الدولة الفاطمية ، حيث ان هذا التاريخ مرتبط في مرحلة مبكرة بتاريخ التشيع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ثم بحوادث بلاد الديلم والعراق ، فالشام فاليمن فمصر فإفريقية فسجل ماسية فمصر والشام من جديد ، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية اسلامية دون أخذ هذا الأمر بالحسبان .

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الأفريقية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإثر هذا تدخلهم في شؤون الأندلس ، فالبحث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة الاسلامية السنية أولا في المشرق الاسلامي ثم انتقالها الى بلدان المغرب العربي خلال القرن الخامس ، وذلك مثمما ترتبط بواقع الحياة القبلية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا في الصحراء الكبرى وفي البلدان المجاورة في المغرب الأقصى وأفريقية ، والمثير للانتباه ان الاستفاقة السنية للقرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البداة التركمان من بلاد ماوراء النهر وتأسيس السلطنة السلجوقية في المشرق ، وكان ايضا من جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغرب الأقصى والأندلس وتأسيس دولة المرابطين ، وتعلق هذا كله بتعميق التبدلات الكبرى على صعيد العلاقات مع أوربة بشطريها الشرقي والغربي ،

ففي الشطر الشرقي كانت - كما رأينا - معركة منازكرد التي عدت فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية ، وفي الغرب معركة الزلاقة وازالة دول الطوائف من الأندلس وتوحيد هذه البلاد تحت راية المرابطين والاستعداد ليس فقط لاسترداد ما فقده المسلمون من بلدان الأندلس بل لاستئناف حركة الفتوحات داخل أوربة من جديد مما كان له أبعد الآثار في قيام الحروب الصليبية أيضا ، فهذا كله قد هيا الأجواء الأوربية حتى جاءت ساعة الانفجار .

في الحقيقة ما تزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم من الأحداث التي تحتاج الى المزيد من الأبحاث المعمقة ، ذلك انه على الرغم من الدور التاريخي المشرق الذي شغله المرابطون في الغرب الاسلامي ، وبرغم كثرة عدد المؤرخين الذين دونوا اخبار احداث هذا الدور ، فإن ما ألت إليه نهاية المرابطين المأساوية بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين واخبارهم طمسا كاد ان يكون كاملا .

ومع هذا لايفقد الباحث الأمل ، فبين يوم واخر يكتشف اثر مرابطي مباشر ، أو غير مباشر ينقل عن أحد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة أكثر فأكثر ، وعلى كل حال حين تتحدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع على ان الحركة كانت دينية اسلامية تولي قيادتها بالأساس داعية اسلامي بعث من المغرب الى قلب الصحراء ، هو عبد الله بن ياسين ، بيد أن ابن ياسين توجه الى الصحراء مرسلأ أولا من قبل عالم اسمه أبو عمران الفاسي ثم ثانيه من قبل عالم آخر اسمه واجاج بن زلو ، وتحت اشراف ابن زلو وتوجيهه عمل ابن ياسين حتى لاقى النجاح .

وابن زلو لم يبادر الى ارسال ابن ياسين من عنده بل جاء هذا أيضا بناء على توجيهات من شيخه أبو عمران الغفجومي الشهير بالفاسي ، وعلى هذا بين أيدينا في البداية شخصيات دينية ثلاثه يتوجب علينا التعرف إليها واحدا تلو الآخر .

وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفاسي القاضي عياض في مداركه ، وتتميز هذه الترجمة مع قدمها بكونها وافية من كثير من الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : موسى بن عيسى بن أبي حاج --- الغفجومي « وغفجوم فخذ من زناته » وفي رواية أخرى « من هواره --- أصله من فاس وبيته بها مشهور ، ويعرفون ببني أبي حاج ، ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن ، واستوطن القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم » (١) *

وفي مقابل هذه الرواية نجد نصا على درجة عالية من الأهمية عند صاحب « بيوتان فاس الكبرى » المنسوبة لبعض مواده إلى اسماعيل ابن الأحمر حيث جاء : « ومنهم - أهل فاس - بيت أبي الحاج القرشي ، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة ، ولهم زقاق بفاس يقال له درب أبي حاج ، منهم الفقيه الامام العلامة المدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى أبو عمران موسى بن أبي حاج القرشي ، المعروف بأبي عمران الفاسي ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرج من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغراوة ، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ثلاثين وأربعمائة ، وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي إلى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس » (٢) *

ولئن اتفق القاضي عياض مع صاحب بيوتات فاس حول مكانة أسرة أبي عمران الفاسي ، فالخلاف بينهما حول نسبه ، فهو غفجومي عند القاضي عياض وقرشي عند صاحب بيوتات فاس ، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب البيوتات على رواية القاضي عياض على قدمها ، وذلك على قاعدة « أهل مكة أدري بشعابها » ، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القيروان وفي أصل قيام حركة المرابطين *

ونص القاضي عياض صراحة على أن الفاسي قد ولد سنة « ثلاث وستين وثلاثمائة » وقيل أيضا إنه ولد سنة ٣٦٥ أو حتى سنة

٣٦٨ (٣) وعلى هذا « عاصر الغفجومي منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجيين خلفاء العبيديين ، والعامريين خلفاء بني أمية ، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى ، وفي طليعتهم زيري بن عطية المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني ، وأبو البهار الصنهاجي ، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى -- وشب وترعرع --- ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تضايق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجرا كارهها للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد » (٤) .

يبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للفاسي ، وقد أرغم على مغادرة بلده أن يرحل في سبيل العلم ، فكان أن قصد قرطبة ، وبعدما أخذ عن علمائها قصد القيروان ، ومن القيروان توجه إلى المشرق ف قضى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث لقي فيها وفي مدن العراق الأخرى قادة رجال اليقظة للقرن الخامس ، وقد تأثر كثيرا بأبي بكر الباقلاني ، فعليه درس الأصول مع علم الكلام برودوه الشديدة على حركات الغلاة ، ومثل هؤلاء في الشمال الأفريقي دولة برغواطة في سواحل المغرب الأقصى مع بقايا الاسماعيلية في إفريقية ، وكان المعز بن باديس نائب الفاطميين في إفريقية قد ملك النزعات والرغبة في الغاء الانتماء للفاطميين ، والاستقلال عنهم وإعادة الخطبة للعباسيين .

وكان الفاسي بعد ما غادر المشرق إلى المغرب استقر في مدينة القيروان ، وفيها نشط وحظي بمكانة مرموقة ومؤثرة بوهكذا شغل دورا فعالا في اقناع المعز بن باديس بالانقلاب على الفاطميين وإيقاع مذبحة بالمؤمنين بالعقيدة الاسماعيلية في إفريقية .

كان الخليفة في القاهرة المستنصر بالله وكانت دولته أضعف من أن تتمكن من اتخاذ إجراء عسكري مباشر ضد المعز بن باديس ، لكنها لم تعد الوسيلة للانتقام منه ، وكان الانتقام في تحريض قبائل هلال وسليم بالزحف نحو إفريقية، وأحدث هذا الزحف أوسع الآثار

السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العربي ،
وفيهما ثبت طابع العروبة بشكل أبدي مطلق (٥) .

وإذا كان الفاسي قد أسهم بنصيبه في أسباب تفجر الأحداث التي
شهدتها إفريقية . فإن شهرته لم تصدر عن هذا الاسهام ولا حتى
عما صنفه أرواء في ميدان الفقه والحديث ، لقد صدرت عن دوره في
قيام حركة المرابطين ، ففي القيروان قيل اتصل به في طريق العودة
من الحج يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وكان يحيى زعيما لقبيلة
جدالة احدي كبيرات قبائل الصحراء ، ديارها واقعة على مقربة من
شواطئ المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال .

واعجب الجدالي بالشيخ أبي عمران الفاسي ، ورأى أبو عمران
فيه رجلا « محبا في الخير ، فأعجبه حاله ، فسأله عن اسمه وبلده
ونسبه فأخبره بذلك ، وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من الخلق ، فقال
له . وما ينتحلون من المذاهب ؟ فقال له : إنهم قوم غلب عليهم
الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فأختبره الفقيه وسأله عن واجبات
دينه ، فلم يجده يعرف منها شيئا ولا يحفظ من الكتاب والسنة
حرفا ، إلا أنه حريص على التعلم ، صحيح الذية والعقيدة واليقين ،
جاهل بما يصلح دينه ، فقال له : ما يمنعك من التعلم للعلم ؟ فقال
له : ياسيدي إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ
القرآن ، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسمعون إليه لو
وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم
ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ، ويعلمهم شرائع الاسلام ،
ويبين لهم سذن النبي عليه السلام ، فلو بغيت الثواب من الله تعالى
بتعليمهم الخير لبعثت معي إلى بلادنا بعض تلاميذك يقرئهم القرآن
 ويفقههم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعوه فيكون لك في ذلك
الأجر العظيم والثواب الجسيم عند الله ، أن تكون سببا لهدايتهم ،
فندب الشيخ الفقيه أبو عمران تلاميذه إلى ذلك فسامتفعوا واشفقوا
من دخول الصحراء ، ولم يجبه منهم أحد ممن يرضاه الشيخ ، فلما
يئس منهم قال : إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها

حازقا تقيا لقيني هنا ، واخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه
واجاج بن زلو اللمطي ، من اهل السوس الأقصى ، وهو الآن يتعبد
ويدرس العلم ، ويدعو الناس الى الخير في رباط هناك وله تلاميذ
جمعة يقرؤون عليه العلم ، اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه
معك ، فسر إليه» (٦) .

ونستخلص من هذه الرواية ان المبادرة بارسال عالم الى
الصحراء جاءت من عند الجدالي ، وان الذي قام به الفاسي هو
مجرد الاستجابة ، وهذا يعني انعدام أية خطط للدعوة في الصحراء
لدى الفاسي ، وان كل ما حدث نجم عن عامل الصدفة : فريق من
حجاج الصحراء التقى بواحد من كبار العلماء في القيروان ، وهكذا
سارت الأمور ، لكن يبدو ان القضية لم تكن ابدا بهذه البساطة ولم
تسر على هذه الشاكلة .

تحدث صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في
القيروان فقال : « وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم
اللمتوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من اهل المغرب وجهاد اهل
برغواطه من السوس » (٧). وقال المصنف نفسه في مكان آخر من
كتابه تحدث به عن اسرة عبد الله بن ياسين في فاس : « وهم من بني
عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لمتونة الى قتال برغواطه من
السوس » ، وبعد ايراده لبعض المعلومات عن كل من برغواطه
وقبيلة لمتونة بين ان ديار لمتونة في « صحراء المغرب التي بين بلاد
السودان المغربية وبلاد المغرب ----- وذلك مسيرة شهرين طولا
وعرضا ----- وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة غانة من بلاد
السودان المغربية ----- وأما غانة فكانوا على دين النصرانية الى
سنة تسع وستين وأربعمائة ، فأسلم أهلها على يد عبد الله بن
ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمر اللمتوني إلى قتال أهل
برغواطه ، وحسن إسلامهم » .

وكان السبب في دخول لمتونة المغرب أنهم على دين الاسلام منذ
أسلموا على يد الامام ادريس ، وكانوا يحاربون السودان ، ثم إن

يحيى وأبا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فمروا بمدينة القيروان يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لئلا يهزمهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم ولما اجتمع مع يحيى بن عمر نذبه أبو عمران الى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده يحيى بن عمر بالندوض الى ذلك ، وطلب منه أن يوجه معه الى بلاده بعض طلبته لينظر في أمور ديارهم واخراج زكاتهم واعشارهم وفيمن تصرف مع أخماس غنائمهم ، فصر ذلك أبو عمران على طلبته فامتنعوا من المسير مع يحيى بن عمر بن ابراهيم لبعد البلاد والمشقة ، وانقطاع الصحراء عن بلاد إفريقية ، ثم قال له أبو عمران : نكتب لك رسالة الى فقيه بالسوس مما يلي بلادك ، يدعى بوجاج - ممن كان قرا عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها - فكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يوجه معه فقيهها الى بلاده ، فصار يحيى بن عمر بن ابراهيم مع قومه الى وجاج ، الى أن وصلوا إليه فدفعوا إليه كتاب أبي عمران ، فلما قرأه رحب بهم وأكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من أصحابه « (٨) » .

الجديد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفد من لتونة وليس من جدالة بقيادة يحيى بن عمر بن ابراهيم ، وحدث هذا اللقاء في القيروان ، والفاسي هو الذي ندب الوفد ليس لقتال برغواطة فحسب بل لقتال زناتة وكانت آنذاك تشكل خطرا كبيرا على حكم المعز بن باديس ، وإن وجاج تتلمذ على الفاسي في مدينة فاس ، وسنرى أن يحيى بن عمر اللمتوني سيتولى زعامة المرابطين حتى وفاته حيث سيخلفه أخوه أبو بكر بن عمر .

وجاءت وفاة يحيى بن عمر سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م حيث قتل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة (٩) .

والاشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقال زعامة المرابطين من جدالة الى لتونة بل أمر آخر يتعلق بشخصية

اخرى يروى من قبل مصادر مبكرة جدا انها التي التقت أولا بسأبي
عمران الغفجومي *

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله : « وخلف بني
لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس
بينهم وبينه احد ، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين
واربعمائة بدعوة الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، وهم
على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه ، وكان
الذي نهج ذلك فيهم ، ودعا الناس الى الرباط ودعوة الحق عبد الله
ابن ياسين ، وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بني
جدالة ، وحج في بعض السنين ، ولقي في صدره عن حجة الفقيه أبا
عمران الفاسي ، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من
المذاهب ، فلم يجد عنده علما بشيء إلا أنه راه حريصا على التعلم
صحيح النية واليقين ، فقال له : ما يمنعكم من تعلم الشرع على
وجهه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال له : لا يصل إلينا
إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم ، ورغب إلى أبي
عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم
أحكام الشريعة عندهم ، فلم يجد أبو عمران فيمن رضي به من يجيبه
الى السير معه ، فقال له أبو عمران : إني قد عدت بالقيروان
بغيتكم ، وإن بملكوس فقيها حازقا ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه
يقال له وجاج بن زلو ، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك ، فجعل
ذلك يحيى بن ابراهيم أوكد همه ، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي
عمران ، فاختر له وجاج من أصحابه رجلا يقال له عبد الله بن
ياسين ، واسم أمه تين يزاملن من أهل جزولة من قرية تسمى
تمامناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، فوصل به إلى موضعه ،
 واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلا فغزوا بني لمتونة
وحاصروهم في جبل لهم فهمهم فزموهم ، فلم يزل أمرهم
يقوى ---- وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم ---- وهم يسمعون له
ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في
أحكامه بعض التناقض ، فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن

سكّم مع رجلين من كبرائهم --- فعزلوه عن الرأي والمشورة ،
وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتبهوا ما كان فيها
من اثاث وخرثي ، فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى أن أتى
وجاج بن زلو فقيه ملكوس « (١٠) » .

عاش البكري في الأندلس ، وكان من الأمراء العلماء ، وهو لم
يزر المغرب ، والمعلومات التي دونها في كتابه كانت مما نقل إليه ،
وقد قام هو بدمج التقارير التي حصل عليها ، وعلى هذا لم تخل
معلوماته من شيء من التناقض والخلل ، لكنها مع هذا هامة
لاستغنى عنها ، وتزداد فائدتها لدى الحصول على بعض المواد
المعاصرة لها أو من طبققتها .

ومعلومات البكري تؤكد هنا على أن الذي اتصل بالفاسي كان من
قبيلة جدالة ، وقد انفرد بإيراده خبر طرد عبد الله بن ياسين وعودته
إلى رباط وجاج بن زلو ، وهام جدا أتباعه على ذكر الجوهر بن
سكّم ، فلقد حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصية ، أو
المطابقة بينها وبين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، والمطابقة صعبة
لعدم التقارب بين الاسمين ولأن جوهرًا وصف بالفقيه ولم يأت
الحديث عنه كزعيم سياسي .

وسلف بي الذكر أن جل المصادر المرابطية قد ناله التلف ، لكن
يبدو أن بعضها نجا ووصل إلى مكاتب المشاركة فنقلوا عنه ، وهكذا
نجد كل من ابن الأثير والنويري والمقرئ يأتون على ذكر جوهر بن
سكّم ، ومن عادة ابن الأثير أن لا يذكر مصادره وكذلك المقرئ لكن
النويري ذكر مصدره بكل وضوح وهو كتاب « الجمع والبيان في
أخبار المغرب والقيروان » لأبي محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير
تميم بن المعز بن باديس ، وقد ذكر أبو محمد هذا « بسند يرفعه إلى
القاضي أبي الحسن علي بن قنون ، قاضي مراکش ، أن رجلا من
قبيلة جدالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بلاد
المغرب طالبا للحج » فالتقى بأبي عمران الفاسي « فلما حج
وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه ، وسمع الكلام فيما

تقتضيه ملة الاسلام من الفرائض والسنن والاحكام ، فقال
الجوهر : يا فقيه ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكرونه إلا
الشهادتين في العامة ، والصلاة في بعض الخاصة ، فقال الفقيه
فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم ، فقال له
الجوهر : فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره وإكرامه ،
وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له : اذهب مع هذا السيد الى
الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الاسلام ، ولك
الثواب الجزيل من الله عز وجل ، والذكر الجميل من الناس ،
فأجابه الى ذلك ، فلما أصبح عمر من الغد جاء الى عمه فقال له :
أعفني من الدخول الى الصحراء فإن أهلها جاهلية ، قد ألفوا سيرا
نشنوا عليها ، فمتى نقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها ، وكان من
طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي ، فرأى الفقيه
وقد عز عليه مخالفة ابن أخيه فقال : يا فقيه أرسلني معه والله
المعين ، فأرسله معه وتوجهوا إلى الصحراء ، وكان عبد الله بن
ياسين فقيها عالما ورعا دينيا شهما قوي النفس حازما ذا رأي وصبر
وتدبير» *

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين الى الصحراء ، فانتهوا الى قبيلة
لمتونة ، وهي على ربوة عالية ، فلما راوها نزل الجوهر عن جملته ،
وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيما لدين الاسلام ، فأقبلت
أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والاسلام عليه . فراوه يقود
الجمل فسألوه عنه فقال : « هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الاسلام » .
فرحبوا به وأنزلوه أكرم نزل .

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم أبو بكر
ابن عمر . فقالوا : « تذكر لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا ؟ » فقص
عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم حتى فهم ذلك
أكثرهم ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : أما ما ذكرته من الصلاة
والزكاة فذلك قريب وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ،
ومن زنا يجلد ، فأمر لانتلزمه ولا ندخل تحته اذهب الى غيرنا .

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين..... قال: وكان بالصحراء قبائل..... ، كل قبيلة قد حازت أرضا تشرح فيها مواشيها ، ويحمونها بسيوفهم.....

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله الى قبيلة جدالة ، فخطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم ، فمنهم من سمع واطاع ومنهم من أعرض وعصى ، ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا •

فقال عبد الله للذين قبلوا منه الاسلام : « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا دين الاسلام ، فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزبا ، واقيموا لكم راية ، وقدموا لكم أميرا فقال له الجوهر : أنت الأمير ، فقال عبد الله : لا يمكنني هذا إنما أنا حامل أمانة الشرع ، أقص عليكم نصووصه وأبين لكم طريقه ، وأعرفكم سلوكه • ولكن أنت الأمير • » فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي ، لا رأي لي في هذا • فقال عبد الله : « فهذا أبو بكر بن عمر ، رأس ملتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع في قومه ، نسير إليه ونعرض تقديما لامرة عليه ، فلاحب الرئاسة يستجيب الى ذلك بنفسه ، ولما كان الجاه مستجمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا ، والله المستعان •

ذكر ولاية ابي بكر بن عمر اللمتوني

قال : فأتوا ابا بكر بن عمر فأجاب ، وعقدوا له راية وبأيعوه بيعة الاسلام ، وتبعه زمرة من قومه ، وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين .

ورجعوا الى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم . ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم ، وحرصهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله ، وسماهم المرابطين . وتألفت عليهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفساد ، وجيشوا لمحاربتهم ، فلم ينجزهم الحرب ولا بادروهم بلقاء بل تلطف عبد الله وأبو بكر في أمرهم ، واستمالوهم ، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسبونهم قوما بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق ما يذيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أياما بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقد خندقوا حوله ، ثم أخرجوهم قوما بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم .

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها ، وقويت شوكة المرابطين ، هذا وعبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء ، وكل من انقاد الى الحق على طريق الورع والتقوى والخشية لله والمراقبة ، فرتب له اوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد ، فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم .

ذكر مقتل الجوهري الجدالي

قال : كان الجوهري أصبح القوم عقيدة ، واخلصهم له ديناً ، واكثرهم صوما وتهجدا ، فلما استبد أبو بكر بالأمر دونه ، وعبد الله ينفذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما * وبقي الجوهري لاحكم له فداخلة الحسد ، وأزله الشيطان ، فشرع في إفساد الأمر سرا ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس ، فثبت عليه ما ذكر عنه ، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق ، فقال الجوهري : وأنا أيضا أحب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عند ه * فاغتسل وصلى ركعتين ، وتقدم طائعا ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى *

قال : وكثرت طائفة المرابطين ، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسبي إلا من أسلم منهم وسالم ، وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحرير ، فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على إرساله ، وكتب له في ذلك ، فأجابه عبد الله بن ياسين : أما إنكارك علي ما فعلت وندامتك علي إرسالتي ، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية ، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى ، فتأتي المرأة حاملا من أخيها ولا ينكرون ذلك ، وليس دابهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض ، ولا دية لهم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحرير ، ولا توقي بينهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولى أديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته * والسلام « (١١) » .

إن نص ابن شداد هذا على درجة عالية من الأهمية ونقاط

التوافق بينه وبين مادة البكري كبيرة ، فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية ، وعلى أنه كان أشبه بالفقهاء الأمر الذي أكده ابن الأثير بقوله «وكان - الجوهر - محبا للدين» (١٢) واهله ، وكذلك اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن ياسين وروى ابن الأثير أيضا خبر اعدام الجوهر بعدما «بقي لاحكم له تداخله الحسد ، وشرع سرا في فساد الأمر ، فعلم بذلك منه ، وعقد له مجلس وثبت عليه ما نقل عنه فحكم عليه بالقتل ، لأنه نكس البيعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق فقتل بعد أن صلى ركعتين» (١٣) .

ومن الواضح أن كل من ابن الأثير والنويري قد نهلا من المصدر نفسه ، وهكذا أوردا أن الجوهر بن سكم صاحب معه عبد الله بن ياسين من القيروان ، نضيف إلى هذا أن التادلي حين ترجم لوجاج ابن زلو أوضح أنه لحق بالفارسي إلى القيروان ، اسمعه يقول : « وجاج بن زلو اللمطي .

من أهل السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ، ثم عاد إلى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه» (١٤) .

لقد طارت شهرة أبي عمران الغفجومي أثناء اقامته بالقيروان ، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قصدوه إليها ، وأنه لأمر مرجح أن يكون كل من عبد الله بن ياسين ووجاج بن زلو التقيا بالقيروان ، وهناك تعرفا إلى بعضهما في حضرة شيخهما الغفجومي ، وبناء عليه أرى أن صورة الأحداث ربما وقعت على الشكل التالي :

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن ياسين من القيروان إلى الصحراء وبعد شيء من النجاح اختلفا ، وهكذا أرغم ابن ياسين على الالتجاء إلى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طريف الصحراء ، ومجددا مر بالقيروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه - أو على رأسه - يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وأن موضوع أوضاع الصحراء أثير من جديد ، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط

وجاج ويصطحب معه عبد الله بن ياسين ، وهذا ماكان ، وعلى أساسه يمكن أن نفهم مسألة اعدام الجوهر بن سكم . وكان عبد الله ابن ياسين كما رأينا من أهل الصحراء ، وكان قد رحل في سبيل طلب العلم حتى أنه زار الأندلس ومكث فيها سبع سنوات (١٥) وكان أصله وتكوين شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهله أكثر من غيره للعمل في الصحراء ومن ثم النجاح .

وهناك خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث ، ولابد أنها حدثت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م وأميل هنا الى الأخذ برواية صاحب روض القرطاس حيث ذكر أن يحيى بن ابراهيم الجدالي توجه الى الحج سنة سبع وعشرين وأربعمائة (١٦) وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية .

في الصحراء حقق ابن ياسين برفقة الأمير الجدالي بعض النجاحات غير أن رجالات جدالة مالبثوا أن أخذوا بالاعراض عنه ، وهنا فكر بالرحيل عنهم « الى بلاد السودان » (١٧) ، والسؤال الذي لابد من طرحه هنا لماذا الى بلاد السودان ، وليس مجددا الى بلاد رباط واجاج بن زلو؟ لعل السبب هو لجوئه قبل هذا الى واجاج ثم تفكيره بالعودة الى بلده أو المناطق المجاورة لها ، لكن لماذا اعرض عنه الجداليون ، هل فقط أنهم لما « رأوه قد شدد عليهم في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرأوا منه وهجروه ونافروه ، وثقل ذلك عليهم » (١٨)

القضية أكبر من هذا ، كان مشروع عبد الله بن ياسين مشروعا سياسيا ، وقف في سبيله في المرحلة الأولى الفقيه جوهر بن سكم ، والآن بمعاونة الأمير الجدالي ، أو بالحري أمير جدالة تخلص من الجوهر باعدامه ، ولابد أن ردت الفعل القاسية جدا على ذلك هي التي أرغمت ابن ياسين على قرار النزوح ، لابل أكثر من هذا أفقدت يحيى بن ابراهيم سلطانه ومكانته ، فقد كان يحيى بن ابراهيم على رئاسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم « (١٩) .

وصنهاجة كما سنرى كان اسم « الجد الجامع » لقبائل الصحراء

خاصة جدالة وملتونة ، ولا يفقد الأمير سلطانه الا بسبب كبير جدا ، ومن هنا لم يسمح يحيى بن ابراهيم لابن ياسين بالذهاب وتمسك به ووضع خطة يستطيع بوساطتها استعادة قواه ومن ثم الانتقام مجددا واسترداد سلطانه فقال لابن ياسين : « إن هاهنا في بلادنا جزيرة في البحر اذا اندسر البحر دخلنا اليها على أقدامنا ، واذا أمتلا دخلناها في الزوارق ، وفيها الحلال المحض الذي لا شك فيه من اشجار البرية وصيد البر ... فدخلناها ودخل معنا سبعة نفر من جدالة ، فابتدنا بها رابطة ، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر ، فتسامع مع الناس بأخبارهم ... فكثرو الوارد عليهم ... فلم تمر عليهم ايام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو الف رجل من اشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته » (٢٠) .

ومعروف أن تجربة المرابطة في الثغور تجربة مبكرة قامت منذ العصور الأموي وتركزت أولا على شواطئ البحر المتوسط الشامية ، ومن أشهر النماذج الأولى لها رباط بيروت الذي عاش فيه الامام الأوزاعي ، وفي حياة الأوزاعي وعدد من أئمة الزهد في الاسلام مثل عبد الله بن المبارك وعلاقتهم مع السلطات بعض التعليل لنمو حركة المرابطة وتطويرها وتنظيمها حيث غدا الرباط مؤسسة عسكرية فقهية ، له مقوماته وأدواره في جميع المجالات حتى الاقتصادية منها ، فالفقهاء والصلحاء فروا من التعامل مع السلطان وأخذوا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٢١) .

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرباط الى شواطئ افريقية وهناك تطورت تطورا عجيبا وشغلت أوسع الأدوار (٢٢) وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغالبة وتأسيس مدينة المهدية ، فقد سدد هذا ضربة موجعة للرباط المتوسطي وبالتالي أدى الى انتقال التجربة الى سواحل الأطلسي والى داخل الأراضي المغربية ، ومنذ هذا التاريخ شغل الرباط أهم الأدوار في اقامة الدول والحكومات واسقاطها ، فقد أقام رباط عبد الله بن ياسين دولة الرباط ، وكان لرباط تينملل الدور الحاسم في اسقاط

دولة الرباط واقامة الدولة الموحدية ، وهكذا من رباط الى اخر ومن دولة الى اخرى حتى رباط درعة سجلماسة واقامة دولة الاشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب .

وتباينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بن ياسين ، واقرب ماروي الى القبول ماذكره ابن خلدون ، حيث يستخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال (٢٣) .

واستبعد بناء رباط محصن عسكريا ، فعند النين جاءوا الى الموقع أولا كلن ضئيلا وكانوا جميعا من بداء الصحراء بلا تجربة أو خبرة بأعمال البناء ، ولعل الامم لم يتعمد نوعا من انواع المعسكرات أو المخيمات المؤقتة فيها خضع الملتحقون لبعض التدريبات خاصة في المجالات التثقيفية الدينية ، طبعا حسب مذهب الامام مالك ، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربية . وخلال عدة أشهر اجتمع لابن ياسين حوالي الألف وهنا شعر مجددا بالقوة والقدرة على التحرك ، انما لم يلجأ هذه المرة الى استخدام السلاح مباشرة ، فقام في أصحابه « وقال لهم : يامعشر المرابطين انكم جمع كثير ، وانتم جم كبير ، وانتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد اصلحكم اله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأملوا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو امرتنا بقتال أبائنا لفعلنا ، فقال لهم : اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعننا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وانذرهم ودعاهم الى الاقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل يرجع ، فخرج اليهم عبد الله بن ياسين ، فجمع اشراف القبائل ورؤساءهم ،

وقرا عليهم حجة الله ودعاهم الى التوبة ، وخوفهم عقاب الله ، فاقام يحذرهم سبعة ايام ، وهم في كل ذلك لا يلتفتون الى قوله ولا يزدابون الا فسادا ، فلما يئس منهم قال لأصحابه : قد ابلغنا الحجة وانذرنا ، وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله » (٢٤) .

وبلغ الآن تعداد اتباع ابن ياسين ثلاثة الاف مقاتل فغزا بهم أولا قبيلة جدالة ، فهزمها وأوقع بين صفوفها اصابات كبيرة جدا ، ثم التفت الى قبيلة لتونة فأذعنت له وكذلك فعل بقبيلة مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء ، وتضاعف عدد اتباع ابن ياسين وملك الأموال ، واتخذ بيت مال » أخذ يركب منه الجيوش ويشترى السلاح ، ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها » (٢٥) .

وأرسل عبد الله بن ياسين » بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس الى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها » (٢٦) وفي عمله هذا مؤشر على تطلعاته المستقبلية في التوجه نحو المغرب الأقصى ، فقد حال بينه في الصحراء وأراضي المغرب الأقصى جبال الأطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصموده ، وكان شراء رضا مصموده أمرا استراتيجيا ، وفي مستقبل الأيام أحسن المهدي بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في سبيل اسقاط دولة المرابطين .

ويقتضي هذا منا وقفة نتأمل فيها أوضاع بلاد الصحراء ، مسرح العمليات التي اتينا على ذكرها ، ولنتعرف على الأوضاع القبلية هناك والاجتماعية .

بلاد الصحراء التي شهدت حركة المرابطين هي اليوم اقليم مقفر ، قليل السكان ، وذلك بعدما قضى الاستعمار على العمران الموروث الذي كان فيه ، وهذا الاقليم موزع اليوم بين المملكة المغربية وموريتانيا ومالي وغانة مع معظم النيجر ، وقد عاش في هذا الاقليم مجموعة من القبائل ، ووجدت فيه بعض المدن والواحات ومراكز العمران ومحطات القوافل (٢٧) .

وانتمت قبائل الصحراء الى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة ، واعتقدت صنهاجة أنها من أصل عربي من قبائل حمير اليمن ، وحتى يومنا هذا ما يزال المنتمون اليها يستخدمون لغة خاصة بهم اسمها الحسانية ، يرون أنها لغة حمير لما قبل الاسلام ، وأطلق على قبائل صنهاجة اسم « قبائل الملائمين » لأن من عادة كل واحد من الرجال وضع لثام على وجهه لا يرفعه مطلقا ، ومع أن عادة اللثام نشأت - كما هو مرجح - عن طبيعة الحياة في الصحراء ، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تقليدا وأعطوها مسحة تقديس ، وتصدر قبائل صنهاجة : لتونة وجدالة ومسوفة ، ومسراته ، ومداسة وبنو وارث (٢٨) .

وتحدث الشريف الإدريسي عن قبائل لتونة بقوله : « وهم أصحاب إبل ونجب عتاق رحاله لا يقيمون بمكان واحد ، ولباس الرجال منهم والنساء أكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكراري ، وعيشهم من البان الإبل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب أكثر ، لأنهم كثيرا ما ينقعون الزبيب في الماء بعد الدق ويشربون صفوه نقيعا حلوا : وفي بلادهم العسل كثير ، وجل طعامهم وأحفله الطعام المسمى بالبربرية أسلوا ، وهو أنهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليلا معتدلا ، ثم يدقونها حتى تعود جريشا ، ثم يمزجون العسل ، بمثله سمننا ويعجنون به تلك الحنطة على النار ، ويضعونه في مزاول لهم ، فيأتي طعاما شهيا وذلك أن الإنسان منهم إذا أخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ، ثم مشى بقية يومه لم يشته طعاما الى الليل ، وليس لهم مدينة يأوون اليها الا مدينة نول لمطة ... وبهذه المدينة تصنع الدرق اللطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهرا ، ولا أحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة حملها : وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الإبل ، وتباع بها الأكيسة (٢٩) على هذا كان بداية لتونة بغيدين عن أسباب المدينة الى حد أنهم لم يعرفوا صناعة الخبز ، وكانوا جمالة ، لم يبرعوا في استخدام الخيول ، والصناعات التي

وجدت في مدينتهم الرئيسية قد ارتبطت بتقديم الخدمات الأساسية البسيطة للبداة

وأوفى من وصف الادريسي ما أودعه البكري في كتابة المسالك والممالك حيث ذكر أن « لتونة ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، ويصيفون في موضع يسمى امطلوس وآخر يسمى تاليوين ، وهم الى بلاد السودان أقرب ... وليس يعرفون حرثا ولازرا ولاخبزا ، انما اموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفد عمر احدهم وماراى خبزا ولااكله الا ان يمر بهم التجار من بلاد الاسلام او بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق ، وهم على السنة مجاهدون للسودان ... وخلف بني لتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ، ليس بينهم وبينه أحد ... ولهم - لتونة - في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولايحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب واكثر قتالهم رجالة صفوفوا بأيدي الصف الاول القني الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطىء ، ولايشوى ، ولهم رجل قد قدموه امام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبه ، وإن امالها الى الأرض جالسوا جميعا ، فكانوا اثبت من الهضاب ومن فر امامهم لم يتبعوه » (٣٠) .

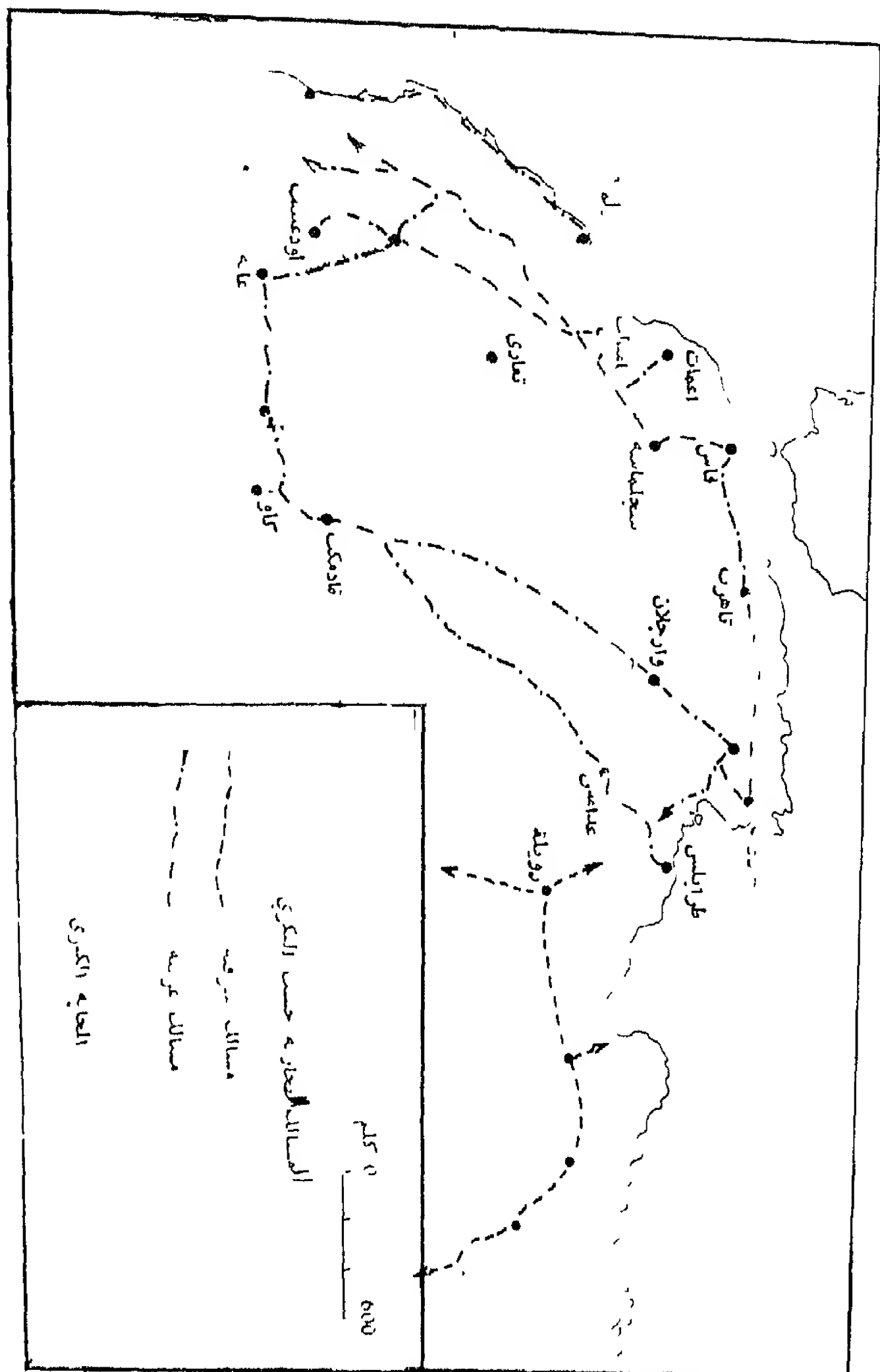
واجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكري لدى قبائل الملائمين على الحديث عن الدرق اللمطية ، ووصف ابو عبد الله محمد الزهري هذه الدرق في كتابة الجغرافية بقوله : « وهذه الدرق من أعجب ما يكون ، وذلك أنه اذا ضرب فيها برمح أو سيف أو سهم وتبخش منها موضع بقيت بعد ذلك يسيرا ، فتفتش فلا يوجد فيه أثر الا رجع صحيحا كما كان وهذه الدرق تهدى للوك المغرب والأندلس .

واللمط حيوان على قدر العجل أو اقل منه ، طويل العنق ، رأسه كراس الاشكر ، له اذنان كأنني المعز ، في رأسه قرون طوال سود أو

مزوقة الخلقة خارجة من يافوخه راجعة الى خلفه ، تبلى الى كفه ، ولا يوجد الا في هذا الصقع ، ومن جلده تصنع الدرق اللطيفة ، وانما سميت بهذا الاسم لأنها نسبت اليه « (٣١) » .

ووصل الاسلام الى الصحراء منذ أيام الفتوحات ، ومع الأيام ازداد تسربه وانتشاره وعمق الأخذ به ، وكان لتأسيس النواة الاولى لمدينة فاس ، ثم قيام دولة الأدارسة واسع الآثار على تعاظم انتشار الاسلام ، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشار الاسلام والثقافة العربية في بلدان افريقيا خاصة الشمال الافريقي أن القيروان بعد تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الاسلامي والثقافة العربية ، انما مع سعة الانتشار قامت مدينة فاس ، بعدما تأسس فيها جامع القرويين بدور الوارث الكبير لنشاط القيروان ، وبعد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمل اعباء العمل الثقافي والديني ، ثم كان أن قامت شنقيط ايضا بالمشاركة بشكل قيادي فعال ، لكن دور شنقيط عطله الاستعمار الابرقي .

ومنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على اطراف الصحراء وفي قلبها عدة مراكز حضارية ، كان أهمها سجلماسة ، فلقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحتى السياسي على سكان الصحراء مكة ما قبل الاسلام بالنسبة لشبه جزيرة العرب (٣٢) ومع سجلماسة والى الجنوب منها عند اطراف الصحراء مع السودان (افريقيا السوداء) قامت مكة اخرى هي اودغشت التي ارتبط ازدهارها « بازدهار سجلماسة ، فقد كانت تمثل محط رحال قوافل التجارة الكبرى بين سجلماسة باعتبارها آخر مدينة مغربية في اتجاه الجنوب وبلاد غانة ، هدف القوافل التجارية لتوريد الذهب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رحال القوافل لمجرد الاستراحة ، ثم مواصلة السير ، فذلك أمر لا يكفي لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمراني ، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضائعهم المستوردة الى اودغشت من بلاد غانة ولاسيما الذهب « (٣٣) ومع الذهب الملح ، وربما ايضا الرقيق .



وعدت مدينة اودغشت مدينة لتونزية ، وقد شدت اودغشت مع تجارة الذهب قبيلة لتونة نحو السودان ، وهكذا ارتبط التاريخ المبكر لهذه القبيلة بالصحراء والسودان ، وظل مرتبطا حتى بعد قيام دولة المرابطين وتأسيس مدينة مراكش .

وسكن الملائمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين اوداخل اكواخ من الخوص والشجر او في خيم من الشعر والوبر ، وكان اثاث البيوت مثله مثل البسة الناس من الصوف ، وكان للمرأة بين الملائمين مكانة سامية ، وعدت احيانا مساوية للرجل ، اقتنت الثروات وتمتعت بنفوذ كبير ، ولم يباشر الذمومة الأعمال المنزلية ، حيث قام بها العبيد ، وسيمر بنا خبر زينب النفزاوية زوجة يوسف ابن تاشفين ومكانتها لديه ، وصدوره عن رايها ومشورتها وانقسام مجتمع كل قبيلة او عشيرة الى فئتين اجتماعيتين امتازتا عن بعضهما : السادة والأمجاد او الرقيق ، ورست مقاليد الأمور والرساميل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السادة وكان الأمجاد لا يباعون ولا يعتقون ولكن يورثون ، ويقومون بمختلف الوظائف من رعي وأعمال يدوية ، ولهم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شريطة دفعهم لنصيب محدود منها لساداتهم .

وكان الملائمون بشكل عام طوال القامة ، فيهم رشاقة ، لهم وجوه سمراء ، لايمشي الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمحين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحوز من فولاذ جيد (٣٤) .

وقد قرأنا في صفحات تقدمت أخبار انطلاق عبد الله بن ياسين ومعه الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، واخضاعهما لقبيلة جدالة ثم قبائل لتونة داخل الصحراء ، وطارت شهرة حركة المرابطين ونجاحات رجالها وعمت الأخبار « في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب ، وأنه قام رجل بجدالة يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، ويحكم بما أنزل الله ، وأنه متواضع زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان» (٣٥) وفي هذه الأثناء توفي يحيى بن ابراهيم الجدالي ، ويرجح أن ذلك كان سنة

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م وهنا عقد عبد الله بن ياسين مؤتمرا لمقدمي المرابطين وأقدم على اختيار الأمير اللمتوني يحيى بن عمر اللمنوني ، ودلل عبد الله بن ياسين بقراره هذا على أنه ملك بصيرة تاريخية ، ولعل علاقاته المتقدمة ، مع قبيلة جدالة ، وقدرات قبيلة لمتونة ، ولأنها كانت « أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا ، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة ، وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس» (٣٦) .

« وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره به ، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب : أيها الأمير إن عليك حقا أدبا ، فقال له يحيى : ما الذي أوجبه علي ؟ قال عبد الله : اني لا أخبرك به حتى أؤدبك وأخذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضربات بالسوط ، ثم قال له : الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم» (٤) .

وعلى هذا كان « عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي ويأخذ » (٣٨) .

ويروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل من بعض مناطق الصحراء ، وخاصة من أهالي سجلماسة ، تشكو سوء الأوضاع وظلم الحكام ، وبالتالي تدعو المرابطين ليتولوا أعمال الانقاذ ، ويبدو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفوس قادة المرابطين لكن يستخلص من مواد البكري أن مدينة أودغشت خضعت في هذه الآونة لملك غانة السوداني ، ورأينا من قبل أن هذه المدينة عدت مدينة لمتونية ، ولعل لمتونة فقدت هذه المدينة في مجرى أحداث الصحراء ودخول لمتونة تحت ظل عبد الله بن ياسين ، لهذا أثرت القوات المرابطية التوجه أولا نحو أودغشت لاستردادها ، ويرجح أن هذا كان سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وتم الاستيلاء على أودغشت عنوة ، ونهبت ، واستباح « المرابطون حريمها ، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيديا » ، واثّر هذا بدات تفقد أهميتها الاقتصادية ليس فقط

نتيجة لما لحقها من دمار وانما بسبب التحول الذي ألم بطرق التجارة ومسالكها لاسيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتأسيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس (٣٩) .

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان ، أو ما عرف آنذاك باسم غانة ، وظلت هذه الجبهة مشتتة تستحوذ على قسط وافر من الامكانيات العسكرية لقبيلة لتونة ، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب ثم الأندلس أبعاد الآثار على تحديد مصير الدولة المرابطية ، ولأقصد هنا الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة ، بل أعني الطاقة البشرية ، فقد غدت طاقة لتونة أدنى من أن تفي بمتطلبات الصحراء وجبهتها والدولة المرابطية واتساعها ، ولنتذكر في هذا المقام ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصبية الدولة . والذي يعنينا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بإمكانه الالتفات نحو سجلماسة .

إن بقايا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة المغربية في إقليم تافلالت أو الراشدية ، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة واسم حاكمها مسعود بن وانودين المغراوي ، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماسة والصلحاء فيها ، وهكذا اجتمع سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م « فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا الى الفقيه عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليظهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي .

فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين ، جمع رؤساء المرابطين ، وقرا عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له : أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ،

فأمرهم بالجهاز ، وخرج بهم في الموفى عشرين لصفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٢١ - أيار ١٠٥٥) في جيش عظيم من المرابطين ، فسار حتى وصل بلاد درعة ، فوجد عامل أمير سجلماسة فأخرجه عنها ووجد بها خمسين الف ناقة كانت بها في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فعلم الأمير مسعود بذلك ، فجمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان ، فكانت بينهم حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة ، فقتل مسعود بن وانودين المغراوي وأكثر جيوشه وفر الباقون ، فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الابل التي أخذ في درعة ، فأخرج منها خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين . وارتحل من فوره حتى دخل مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى هدنها وأصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير ، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس ، وأسقط المغارم المخزنية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه ، وقدم عليها عاملا من لتونة وانصرف الى الصحراء ، (٤٠) .

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهامه في سجلماسة غادرها عائدا الى الصحراء ، غير أن أهل سجلماسة مالبث أن وجدوا أن حكامهم من بداء لتونة أشد قسوة وخشونة ممن تقدمهم ، فشعروا بالخيبة والذم ، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم ، وشجعهم على هذا أن قبيلة زناتة أعادت جمع قواها ، وأن عبد الله بن ياسين يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومع اللامتونيين ، وهكذا ثارت سجلماسة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها .

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماسة قرر استعادتها بأي ثمن ، فندب « المرابطين الى غزو زناتة ثانية فأبوا عليه ، وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا الى ساحل البحر ، فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ ، في طوله ستة أيام وفي عرضة مسافة يوم ، وهناك حصن أزقي حوله نحو

عشرين ألف نخلة ، كان بناه يانوا بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر ، فصار يحيى في جبل لتونة ، وذهب عبد الله بن ياسين إلى سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ، ونزل موضعا يقال له تامدولت ، حصن فيه مياه ونخل كثير» (٤١) .

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين أن يجمع جيشا من قبائل الملائمة سرطه وترغة كما أنه استدعى إليه الأمير أبو بكر بن عمر ، وهو أخو يحيى بن عمر ، وكان معسكرا في درعة ، وبهذا امتلك مايكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة ، وهكذا توطد سلطان المرابطين في إقليم الواحات ، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين واليا على سجلماسة ، ولما ولي يوسف بن تاشفين أحسن إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة » (٤٢) .

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد جمعت قواها وأرادت اغتنام الفرصة فعادت نحو « يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان وأربعين وهم في نحو ثلاثين ألفا » وقاوم يحيى بن عمر جدالة ، غير أنه عبتا فعل حيث قتل « وقتل معه بشر كثير » (٤٣) .

وأمام الوضع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفا لأخيه ، وسعى للانتقام من جدالة ثم للخروج من الصحراء لقتال برغوطه ، تنفيذًا لوصية أبي عمران الغفجومي ، ويرجع أن سجلماسة باتت الآن حاضرة مؤقتة للمرابطين أو لنقل لدولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويحملان اسم الأمير أبي بكر بن عمر ، وتاريخ الأول منهما سنة ٤٥٠ هـ والثاني ٤٥٦ هـ ، ونعرف مما جاء على الدينارين أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة أعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد (٤٤) .

وازداد تعداد القوات المرابطية ، ووجدت القيادة الموزعة مسابين أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراء إلى الأراضي المغربية ، وهكذا تورطت الحركة المرابطية في

حماة مداخلته جميع الثورات والحركات الاصلاحية وسواها في الاسلام بتوجيه امكاناتها نحو داخل ارض الاسلام ، وبسبب سلطانها على المسلمين ، وقد يرى بعض الباحثين نوعا من الاستثناء في تاريخ المرابطين ، حيث سنجد فيما سنزويه بعد قليل انشطار القوات المرابطية ، وعودة قسم كبير منها الى الصحراء بقيادة ابي بكر بن عمر ، لكن ابا بكر عاد لغايات دفاعية عاد للدفاع عن الصحراء ضد السودان ، وليس للتوسع في بلادهم ، ذلك انه اتخذ من الصحراء مقرا له ، ومن سجلماسة عاصمة ، وقد تكرر هذا بعد بناء مدينة مراكش ، وفي الصحراء مات ابو بكر بن عمر فخلفه في سلجماسه ابنة ابراهيم ، فقد وصلنا من بنانير ابراهيم ببنار ضرب في سلجماسه سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م (٤٥) .

وكانت مسوغات الخروج من الصحراء الى المغرب القتال ضد زناته وضد برغواطية وبعض القوى المتطرفة الأخرى ، وازالة الفوضى والظلم ، والسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية وعجل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصحراء للجفاف ، روى النويري عن ابن شداد قوله : « وفي سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلاد الملائمين ، وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة ، فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج الى السوس الأقصى وأخذ الزكاة ، فخرجوا وقالوا : نحن مرابطون خرجنا اليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم ، فجمعوا لهم شيئا له بال ، فرجعوا به الى الصحراء ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشيظفها وكثرتهم ، فطلبوا اظهار كلمة الحق ، فخرجوا الى السوس الأقصى ، فتسامع بهم أهل البلاد فاجتمعوا وجيشوا وخرجوا لقتالهم » (٤٦) .

لقد اصطدم المرابطون أولا ببعض قوات مصمودة ، لكن هدفهم كان اقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة برغواطية ، وبرغواطية بالأصل من قبائل المصامدة ، وقامت دولة برغواطية على اساس ديني مزج بين بقايا الوثنية لما قبل الاسلام لدى البربر وافكار الشيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وقيل أسس الدولة صالح بن طريف وكان طريف من موالى موسى بن نصير بعثه كما رأينا في بعثة

استطلاعية الى الأندلس قبل فتحها ، وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتدت فيما بين نهري سلا (قرب الرباط الحالية) الى نهر أم الربيع ، وعاشت منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوها من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ، وقد كان القضاء عليها مطلباً دينياً وسياسياً ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين .

ومهما يكن من أمر سار الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيوش المرابطين وبرفقته فقيهه عبد الله بن ياسين وخاضت الجيوش المرابطية قتالاً قاسياً ضد برغواطة استمر حتى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وفي أثناء القتال أصيب عبد الله بن ياسين باصابات مميتة توفي أثرها وقد دفن بكر يقلة ، ومازال قبره معروفاً في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة .

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجه أبو بكر عائداً مع جيوشه نحو أطراف الصحراء فعسكر في مدينة أغمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصمودة ، وفي أغمات تزوج أبو بكر من زينب الزفراوية ، وكانت امرأة جميلة ثرية ، أرملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن أبا بكر لم يقيم طويلاً في أغمات حيث وردت عليه الأخبار من داخل الصحراء باختلال أمورها ، فاتخذ قراره بالعودة الى الصحراء وصحب معه شطراً من جيوشه ، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين ، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك أنها كانت « امرأة حازمة لبية ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة » .

كان أبو بكر « رجلاً صالحاً كثير الورع ، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم » لذلك أثر العودة الى الصحراء « ليصلح أحوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، فلما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها : يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وانت لطيفة لاطاقة لك على بلاد الصحراء ، واني مطلقك فإن تمت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ،

فهو خليفتي على بلاد المغرب » واخذ أبو بكر الطريق الى سجلماسة ويبدو أن الأمور لم تستقم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري « وأمير المرابطين الى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر ، وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء » (٤٧) .

إن مسألة تأسيس مدينة مراكش ، ودور يوسف بن تاشفين - الذي لم يذكره البكري - في اقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط ، ثم مد الحكم المرابطي الى الأندلس هو ما سنتناوله في الفصول التالية ، ولعله من المفيد أن نختم هذا الفصل بالتعرف الى نهاية أبي بكر بن عمر ، حيث قيل إنه مكث في الصحراء حتى استقرت الأمور فيها ، وهنا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن تاشفين في المغرب ، فقدم الى مراكش وفي نفسه عزل يوسف ، لكن ابن تاشفين احتاط للأمر وأخذ بنصيحة زوجته زينب ، مما أدى الى نجاحه ، فما كان من أبي بكر بعدما تسلم هدايا كثيرة من يوسف ، وبعدها عرف أنه لن يتخلى عن عمله ما كان منه الا أن سلم للأمر الواقع فالتقى بيوسف وخاطبه قائلا : « يا يوسف اني وليتك هذا الأمر ، واني مسؤول عنه ، فاتق الله في المسلمين وأعتقني واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنهم ، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم ، ثم ودعه وانصرف الى الصحراء » (٤٨) .

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا ؟ من الصعب الحصول على تاريخ متفق عليه ، فقد ذكر ابن عذاري صاحب الحل الموشية أن ذلك كان سنة ٤٦٥ هـ ، وأن أبا بكر عاش بعد عودته الى الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل أثناء حروبه ضد السودان ، ولا شك أن أبا بكر عاد من الصحراء بعد سنة ٤٦٠ هـ ، لكن ليس سنة ٤٦٥ هـ ذلك أن زينب النفزاوية توفيت في سنة أربع وستين وأربعمائة » (٤٩) ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق مع رواية روض القرطاس في أنه توفي سنة ٤٨٠ هـ ، وكذلك فعل لسان الدين بن الخطيب (٥٠) .

وقد نفترض أن زينب النفزاوية توفيت بعد سنة ٤٦٤ هـ لكن
هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة
٤٦٢ هـ جاء عليه فقط اسم الأمير ابراهيم بن أبي بكر (٥١) ومقدر
أن في ذكر ابراهيم لاسمه وحده دون إضافة اسم أبيه ، أن الأب كان
في سنة ٤٦٢ هـ في عداد الأموات ، فهل كان فعلاً ؟ إن هذا ما أكدته
كل من ابن الأثير والنويري نقلاً عن ابن شداد (٥٢) .

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول الى الاندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م لم يعرف يوسف بن تاشفين مع أن الرجل كان كما توحى المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من أبرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحب روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم أبي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمه ، يجتمع معه في حدهم «إبراهيم بن تورقيت» والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرجل بهذه المكاه وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري ؟

والمثير للانتباه أن الإدريسي عندما تحدث عن أهم قبائل صنهاجة أوحى إلينا بأمر آخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأحويين أبي بكر ويحيى بن عمر . يقول الإدريسي « ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولتونة ، وبنو إبراهيم وبنو تاشفين . وبنو محمد وجمل من صنهاجة » (١) فهل ياترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر أبو بكر مع أخيه من بني إبراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وترجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين ، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المغرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتد الى مؤلفه غير أنه وجد في مطلع النسخة التي نقل عنها أنها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة «وجاء في

هذه النسخة « كان بر المغرباربة الجنوبي لقبيلة تسمى زناطة ، فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملتزمون يقدمهم أبو بكر بن عمر ، وكان رجلا ساذجا خير الطباع ، مؤثرا لبلاد على بلاد المغرب ، غير ميال الى الرفاهية ، وكانت ولاية المغرب من زناطة ضعفاء لم يقاوموا الملتزمين ، فأخذ البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط ، فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور سمع أن عجوزا في بلاده ذهبت لها ناقة في غداة فدكت وقالت ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله الى بلاد المغرب ، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ، ورجع الى بلاده الجبونية . وكان يوسف هذا رجلا شجاعا عادلا مقداما ، احتط بالمغرب مدينة مراکش » (٢) .

وكما قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمرة الأولى لدى توليته سحلماسة تم في الحملة صد برغواطة ، ولقد عاد مع أبي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلا في أغمات بل عاد نحو الصحراء ، وحين فعل ذلك أوكل الأمور في بلاد المغرب الى يوسف بن تاشفين حتى أنه طلق زوجته زينب النهرأوية وأوصاها بالزواج من يوسف ففعلت

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مردهرة غير أن سكانها كانوا من مصمودة ، وكانت منقسمة الى بلدين هما أغمات وريكة وأغمات هيلانة ، وكان أن تخلص أغمات للمرابطين معناه اخراج أهلها منها واسكان المرابطين محلهم ثم توحيد المدينة وتحصينها بالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفاعية ، ولم يكن هذا ممكنا ، يقول الزهرري : « والمصامدة خلق كثير ، مسيرة بلادهم عشرون يوما ، وعندهم بالمغرب الكسب الكثير من بقر وغنم ، والزرع قليل ، وأكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ... »

وأما مدينة أغمات التي هي في أقصى هذا الصقع فهي مدينة موسومة بالقدم ، وكانت حاضرة المصامدة ، وبالقرب منها البركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه أغمات كلها ، وهي كثيرة الفواكه والكروم والزروع والضرع» (٣) .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلا من أغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوق الاختيار على موقع مراكش. وجاء عند صاحب الحلل الموشية : « لما خرج - أبو بكر بن عمر - من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على أهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شكوا أشياخ وريكة وهيلانة الى الأمير أبي بكر بن عمر ما يلحقهم في ذلك من العناء والمشقة وأنهوه اليه المرة بعد المرة ، الى أن قال لهم : عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله.

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمير أبا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظرنا أيها الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك. وقالوا له : (وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فدائها وزمام جبل درن بيد أميرها» (٤) .

ولعل النقطة الهامة في هذا ليس تبيان الامكانات الاقتصادية للموقع المرتاد وانما «زمام جبل درن» فهنا مفتاح السيطرة على المنطقة وضمان التواصل مع الصحراء ، ويستخلص مما رواه صاحب الحلل الموشية أن بداية هذا المشروع العظيم جاءت سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٥٨ م ، وذلك في ظل قيادة أبي بكر بن عمر ، فهو كان موجودا في أغمات ، ويضيف صاحب الحلل أنه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين وأربعمائة» وأنه بينما «الأمير أبو بكر ابن عمر قد نزل بها وأخذ في بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة أغارت عليهم ، وكانت بينهم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ولأخذ ثأرهم من عدوهم» (٥) .

وليس من السهل الركون الى هذه الرواية والاعتماد على ما جاء بها من تواريخ ، فلقد رأينا من قبل أن أبا بكر بن عمر عاد الى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه ابراهيم وما ذكره ابن الأثير والنويري قد دعانا الى مراجعة الروايات المعطاة الينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته ذلك أن المعتمد دوما هو الوثيقة لاسيما اذا دعمتها بعض الروايات ، هذا وجعل صاحب روض القرطاس تاريخ تأسيس مراكش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م (٦) .

ومهما يك من أمر يبقى تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين لابل أكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالأندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» او ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وارجح الآراء الحديثة أن معناها «هو حمى الله أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله» (٧) أو المرعى فقط .

وبذيت المدينة الجديدة بدون تصور موحد او خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بنى ليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق. إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصل من عدة احواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا الى أن كل عشيرة او مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختطت عليها مساكنها ، وحين قلت مجموعة بشرية متجانسة هدفت الى الإشارة الى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من أغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبتهم الدولة الجديدة ، والهجرة من الأندلس الى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في

ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضاريا وعمرانيا وثقافيا.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولا القراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللاتونيين فقاموا بدور الإداري والمترجم ، جاء عند ابن خلكان : «وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية» (٨) .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين ، (٩) ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفا وقمع على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه « قرية صغيرة في غابة من الشجر » (١٠) وفي الحقيقة لانعرف فيما إذا كان الأندلسيون قد شغلوا دورا ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننا لانعرف كم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا أنه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك - بالوقت نفسه - المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للإسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة (١١) ، لكن لم يكن بإمكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى أمرها أمير عرف بأبي حفص عبد الله (١٢) ، وقام يوسف بن تاشفين أولا بمراسلة برغواطة فبعث بسوفد من علماء المالكية الى بلاد تامسنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة انفا (الدار البيضاء حاليا) المظلة على المحيط الأطلسي ، وقرر البرغواطيون «إعدام السفراء ونفذوا قرارهم ، وعبأوا بعد ذلك



جيشا قوامه خمسون ألف محارب قاصدين طرد قبيلة لتونه من مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بذلك انتابه أشد غضب انتابه في حياته ، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدوم العدو الى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة أيام الى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما رأى أهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهةهم بحمية شديدة ، انتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر أبي الرقراق في اتجاه فاس ، تاركين اقليمهم ، وحينئذ أباح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشه ، فأصبح طعمه للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع.

وفي خلال الأشهر الثمانية التي جاس فيها البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض أطلال من المدن التي كانت قائمة فيها ، أضف الى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصد أهل تامسنا عبور نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنة مع قبائل زناته ، واتجه نحو النهر المذكور على رأس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذي كانت قواته منهوكة القوى تماما بسبب الجوع والبؤس ، ولما حاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الأمر مسدودا في وجهه بتأثير قوات ملك فاس ، وهكذا اضطر هؤلاء البؤساء بعد أن أصبحوا مطاردين ويأسوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعد أن طوقوا وحاصروا من قبل الجيوش الملكية أبيدوا بثلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعلا في مياه النهر ، وبعضهم الآخر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحتى الذين استطاعوا أن يخرجوا من الماء سقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم أبيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقدر أن عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال.

وعاد يوسف ملك لتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم» (١٣) .

وقرأنا قبل قليل ما نقله ليون الافريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد الى مراكش بعد القضاء على برغواطية ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية (١٤) ويعني هذا ان الحملة على برغواطية انتهت قبل هذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٦٠ هـ أن « جميع برغواطية اليوم على ملة الاسلام » (١٥) هذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس كان « يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين واربعمائة (١٦) (١٨ / أيار ١٠٧٠ م) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قسداً بدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٤ م ، وأرجح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وأنه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء أبو بكر ابن عمر ناويا عزل يوسف فأخفق وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القرطاس وفي سنة أربع وخمسين « تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه..... وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيراً من البلاد ، واتخذ كثيراً من الطبول والبنود ، وأخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزاز والرماة ، كل ذلك ارهاباً لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة أزيد من مائة ألف فارس » (١٧) .

واعطانا صاحب الحلل الموشية مزيداً من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى « قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عندهم مائتان

وخمسون فارسا ، شراء بما له ، ومن العبيد نحو ألفين ، فأركبهم
فرسانا ، فغلظ حجابيه ، وعظم ملكه « (١٨) .

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد
كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود اتخذهم حرسا له ، ومقدر أن
مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية
لمتونة والمرابطين .

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر أبي بكر بن عمر ثم دفع
أيضا بسهولة أكثر خطر إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي قدم من
الصحراء بعد وفاة والده « يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في
خلق كثير من أخوانه لمتونة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه
الأمير مزدلي فقال ما الذي تريد يا إبراهيم ؟ قال أطلب ملك أبي
الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي : إن الملك بيد الله يؤتيه
من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فإن كنت
عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك ، وإن
طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيда ، ويحبسك عنده
عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له : يا عمي
مزدلي رضي الله عنك ، عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفا بخدمة
الملوك ، فهدن إبراهيم المذكور ، وقال له أقم في موضعك حتى أتيك
بكل ما يرضيك ، فأنصرف عنه ووصل إلى الأمير يوسف بن
تاشفين فحسن كلامه إليه ، وأنعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل
وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك
مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وأنصرف عنه من هنالك ولم يجتمع
بالأمير يوسف وما راه وأنصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى أن
مات ، (١٩) .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على

فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت فاس دوما حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما: عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما: الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين « وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين أهل العدوتين... وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر أمر لتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله... وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لتونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلّى عن المدينة فولّوها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لتونة وقتل من بها من زناتة» (٢٠) .

وبعد استيلاء يوسف على فاس « أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبني الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها» (٢١) .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه في مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغرب الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تلمسان قد تملك شواطئ المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطئ المتوسطية فانتزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه أسطولا خاصا (٢٢) .

والآن وقد عدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء

بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق به وعن الشرعية أيضا .

كان هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملا مسوغا ومرغوبا به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العودة إلى الصحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمال العسكرية المربحة كان أمرا لا يمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهاد في سبيل الله ، وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما رأينا قد توفر للتركمان فقط في الأراضي البيزنطية بعد الاستيلاء على ديار المسلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها موانئة تماما لمقاصد يوسف والمرابطين ، وكما فعل بداية التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قاتلوا بيزنطة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشئ نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالا ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهادا في سبيل الله .

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس وأوربة وخاصة السيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من ملوك الطوائف كانوا يرقبون بقلق ما كان يجري على أرض المغرب ، ورأينا من قبل أن أفضل المعلومات عن حركة المرابطين حتى سنة ٤٦٠ هـ تلك التي دونها الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ، والبكري لم

يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : « له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الأعداء فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عن أطاعتك من أهل المغرب » .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبحث به فجاء حسبما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم - من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » (٢٣) .

وهام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله « فاستديموا وفاءنا بوفائكم » .

فهنا تهديد مبسطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة أدنى وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية .

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده ، وكتب « إلى أمراء المغرب وأشباه القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه ، فكسبوا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد

احوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس » (٢٤) .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن « يدعى بالأمير ، فلما ضحمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه أشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاشى لله أن نسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لا بد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخطب به من العدوتين ، وأمر كتابه أن يكتبوا عنه في ذلك » (٢٥) .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة آنذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم استطع الوقوف عليها ، لكن أخبرت أنها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

وأعرف أيضا أن ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها أبو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع أبيه ، وأودع أبو بكر بعض أخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لاسيما في كتابه العواصم ، وكتب كتابا مفردا عن رحلته ، عثر على أجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رأيت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط رديء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها أنها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعا حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب

وقيل إن أخباره أَرْضَتْ كَبَارَ الْفُقَهَاءِ فِي الْعِرَاقِ وَخَاصَّةً الْأَمَامَ الْغَزَالِيَّ حَتَّى رَوَى أَنَّ مَرَاثِلَاتٍ تَمَّتْ بَيْنَ الْغَزَالِيِّ وَيُوسُفَ ، وَذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُرَابِطِينَ عَارِضُوا نَشْرَ كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ لِلْغَزَالِيِّ إِلَى حَدِّ أَنْهُمْ أَمَرُوا بِأَحْرَاقِ نَسْخِهِ .

وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ جَمِيعَ مَا عَرَضَ لَنَا حَتَّى الْآنَ عَنِ التَّسَارِيخِ الْمُرَابِطِيِّ كَانَ الْهَدَفُ مِنْهُ التَّوْطُّؤُةُ لِلْحَدِيثِ عَنْ دُخُولِ الْمُرَابِطِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَمَا نَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَتَائِجٍ فِي تَوْحِيدِ الْأَنْدَلُسِ ، وَدَفْعِ خَطَرِ السَّقُوطِ عَنْهَا ، وَجَعْلِهَا وَلايَةً مَغْرِبِيَّةً الْأَمْرَ الَّذِي نَجَمَ عَنْهُ نَتَائِجُ خَطِيرَةٍ عَلَى صَعِيدِ الشِّمَالِ الْأَفْرِيقِيِّ وَالْأَنْدَلُسِ مَعًا وَعَلَى صَعِيدِ عِلَاقَاتِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ بِأُورْبَا الْمَغْرِبِيَّةِ .

لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدية ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من أراضي المغرب الأقصى.

لقد حدث التدخل الأندلسي في أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر أيام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت بثاستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، ينتمي الى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة أصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م في قرية طرش ، موطن أجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة أهتم بثقافته وعلومه ، طموحا ، أراد أول حياته أن يكون قاضيا لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (٢٦) .

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد إلا بعد أمد طويل ، وأنجبت له الولد السيدة صبيح وكانت من أصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم أنجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الإقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبيح ليشراف على إدارة أملاكها مع أملاك ولي

العهد ، وحظي ابن عامر باعجاب السيدة صبيح واسعددها! وأدخل السرور على حياتها ، وكان كريما متلافا ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة (٢٧) ثم ما لبث ان تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جأه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره (٢٨) .

وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر ادارة أملاك أخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على رأسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف ابن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيش وقامت علاقات بينه وبين القائد غالب ، الذي كان غارس الأندلس وأعلى العسكريين فيها شأنًا (٢٩) .

ومع الأيام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد ان يوصي بالخلافة من بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلا بدون مؤهلات ، ومع هذا اثر الحكم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وليا لعهد ، مع أنه كان بإمكانه تسمية واحد من آل فيه الأهلية ، وتسمية هشام وليا لعهد هذا المسمى (٣٠) .

واستفاد ابن أبي عامر منبيعة هشام بولاية العهد نظرا لعلاقاته الوثيقة به وبأمه ، وتعاون ابن أبي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م توفي الخليفة الحكم ، وكنم نبأ وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن أخو الحكم (٣١) ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن أبي عامر على تصفية قوى الصقالبة الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمتبيعة هشام وقتل الأمير المغيرة.

وبعد هذا سعى ابن أبي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية

ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله (٣٢) وظل يعاني من الزكبة حتى توفي مسجوناً.

وطبعاً عندما عزل المصحفي حل محله ابن أبي عامر ، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والتخلص من كل نوع من أنواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء للزعم ومؤامرات ، واستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير واستعدادات خاصة.

قام ابن عامر أولاً بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة - مدينة الزهراء - كلياً ، وأبتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن أبي عامر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب له مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبق عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك آنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاع على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن أبي عامر مجاهداً من الدرجة المثلى قاد أكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها ينقادون إليه ، غير أنه لم يقض على أي منها ، وتصاهر مع أكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوار الضعف على الأندلس وتمزيقها أنقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها.

واهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن أبي عامر ، ويروى أن ابن حيان - مؤرخ الأندلس الكبير - أوقف كتاباً خاصاً على أخبار حملات ابن أبي عامر ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف اسمه ذكر بلاد الأندلس أتى المؤلف على أخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

ونعود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب ، لقد

فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة به جندها وأشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات من المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته ، ووصلت إلى الأندلس على شكل قبائل وأفراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغاربة بأبي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (٣٣) .

وهام جدا مسألة اعتياد الأندلسيين على التقوي بالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنه لمن المثير أن نعرف أن السيدة صبيح وقد ضاقت باهمال ابن أبي عامر لها وانصرافه عنها ، فحدثت عن شخصية تستعين بها للتخلص من ابن أبي عامر ، فوقع اختيارها على زيري بن عطية المغراوي الخزري أول ملوك زناتة بالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملت على إرسال الأموال ليأتي إلى الأندلس لازاحة ابن أبي عامر ، لكن هذه المؤامرة كشفها ابن أبي عامر ، وأرسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكن من انزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية (٣٤) .

وكان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن أبي عامر ، خاصة تجنيده لرجال قبائل زناتة ، فتحالف مع ملوك الشمال من الأسبان ، لا بل هم بقتل ابن أبي عامر بيديه ، وجرحه في وجهه وأبان بعض أنامله ، ونجا منه ابن أبي عامر ، وأخذ بجمع قواته وفي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م نازله وقامت معركة شديدة بين الطرفين أنجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته (٣٥) .

وهكذا غدا ابن أبي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير أنه ظل عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تأمر عليه ، فاعتقله وأعدمه. (٣٦) ولا شك أن المنصور بن أبي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسعة نحو الوحدة والوئام والاكتفاء الذاتي ، وكانت طاقات أهل البلاد العسكرية كافية ، غير أن المنصور أبعد الأندلسيين عن الميدان العسكري وأسقط العرب من الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية من زناته بشكل

خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان « وائل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملاها وحشا وذنابا ، وأعراها من الأمان» (٣٧) .

وتحدث الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين - كما سيمر معنا - تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذا كانوا صنفًا واحدًا وتألّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رايه أن تكون أجناده قبائل مختلفة واشتاتًا متفرقة ، إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقويه عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماتها وانجسدها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لاخفاء به ؛ وبهم كان يصل ابن أبي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ، ومعتك الوغا.....

فرتب ابن أبي عامر الرتب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ، ولم يكن القوم أهل حرب ، فقأطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من الأجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى أن

عمت الاندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الاثار ، ودأبه في ذلك إنما كان على ما وصفناه

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد مقدمة النظر لنفسه ، واتخاذ العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة واهواء مختلفة (٣٨) ١٠

على هذا إن التدخل الاندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهد السبيل لتحويل الأندلس الى ولاية مغربية ، وهكذا صار كلما تغير الوضع السياسي في المغرب تغير بالاندلس ، ففي ايام زناته وحكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بالاندلس ، وعندما قامت دولة لمتونة ازاحت زناته عن حكم المغرب ، فكان بالتالي أن الت الأمور في الاندلس الى لمتونة وبعد امد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بوساطة قبيلة مصموية فما لبثت الأندلس أن غدت ولاية موحدية حكامها من مصموية ، وبعد زوال ملك مصموده وحلول المرينيين في ملك المغرب الأقصى ، تغير الحال في الأندلس مجددا وظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتى سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس.

صحيح رأينا من قبل ان عبد الرحمن الداخل عزل الاندلس سياسيا عن بقية دار الاسلام ، وجعلها تتحمل بطاقتها لوحدها مواجهة قوى اوربا الصليبية ، غير ان عبد الرحمن اوجد شرعية استقطب اهل الاندلس حولها بدلا من العصبية القبلية والصراعات العرقية ، وفي ايام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية الى خلافة ، وتسارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن ابي عامر فأوقفها وجلب المرتزقة البربر الى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك ما ان زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : « وبقي الناس بلا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد مقدمة النظر لنفسه ، واتخاذ العساكر وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،

وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة » (٣٩) .

وإنه لأمر مثير أن نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس وأشدّهم نكالية في العدو ، وأكثرهم حذكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق ، والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يك من أمر واجه المنصور بن أبي عامر مدينته سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالام ، وكان قد اتخذ لنفسه الكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فأوصاه ونصحه وأرسله لتسلم مقاليد الأمور في قرطبة ، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد أخيه ، ثم استدعى قادة جنده وغلمانهم فودعهم وأوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ / ١١ - آب ١٠٠٢ م ، وكان يوم توفي « ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة الى أن توفي خمسا وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوما ، وترك من الأموال الناضجة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة الاف وخمسمائة ، واجناد الثغور قريبا من ذلك » (٤٠) .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بسالاه ، وقد نعى الى الخليفة المؤيد وفاة أبيه وأخبره بتوليته تدبير الدولة مكانه ، فآقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدا بولايته ، « فاستوسق له الامر ، ولم يرد أحد ... طاعته واجتمع الناس على حبه » (٤١) .

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغلبة « النبيذ عليه واستغراقه في لذاته » (٤٢) .

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للأندلس التفوق العسكري والسياسي، واستمر ورود الزعماء من زناطة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ، وتعرض عبد الملك

لأكثر من أزمة ، وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه « وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات من علة الذبحة...! سنة تسع وتسعين وثلاثمائة » (٤٣) (١٠٠٩) .

واستحوذ على الملك اثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول ، وكانت أم شنجول ابنة شنجة (ساندشو غارسييس الثاني) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك انه « كان أشبه الناس بجده » (٤٤) وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجابة والانفراد بالسلطة « وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظرا غير سديد ، وانفق الأموال في غير وجهها ، وأعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ، ونسب اليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وابغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه » (٤٥) .

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على ولايته طلب من الخليفة هشام « أن يوليه العهد من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره ، ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان سبب انحراف اكابر الأندلس عن عبد الرحمن لما تبين لهم من سخف عقله ، وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه » (٤٦) .

من الصعب القول ان عبد الرحمن طمع ان يملك الأندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصارى ، حيث يبدو انه كان غير متوازن فيه فسولة وبدون مؤهلات قيادية او عزيمة جهادية ، وكان اقرب الى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضحك والتسلية واشرك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات ، وأغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعا خاصة رجالات الدولة لانه عرضهم للمهاناة حتى انه امرهم بتغيير أزيائهم وشاراتهم واذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٩ م ثار في قرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفة

هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائبا في الشمال ، وعندما وصلتته الاخبار قرر العودة الى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل الى احواز قرطبة القى عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

ولم يترك محمد بن هشام الكفاءة او القدرات على النهوض بالاندلس واعادة رونق الدولة والخلافة لهذا « لقبته العسامة المنقش لهشامته وطيشه وخفته » (٤٧) وهكذا انتشرت الفوضى بالاندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغلاب لاتعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول ايضا في صراعات القوى الداخلية في الاندلس وسلف بنا القول ان الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، واسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة (٤٨) .

ودخل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لاحياء الخلافة باخلاص وفي سبيل اعادة الوحدة للبلاد ، وتابعت الاندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي، واهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد من الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وانفاق هائل وتميز العصر بكثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداصة الارض وحب الوطن ، واخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيدا كل البعد عن الاخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالالقباب وكان هناك اكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : « واما حال سائر الاندلس بعد اختلال دعوة بني امية ، فان اهلها تفرقوا فرقا ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسّموا القباب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالأمون ، وآخر تسمى بالاستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ،

والموفق ، والمتوكل « الى غير ذلك من الالقاب الخلافية ، وفي ذلك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في ارض اندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد « (٤٩) .

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبذرت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبالسفن الداخلية ، وكانت الأندلس في عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جدا ، ففقدت الآن اساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول اوربا خاصة دول مدن ايطاليا ، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها وزادت الروح الصليبية التهابا وحدة وتعصبا وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر اثار هذا الفقدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدته الى الجانب التجاري ثم الصناعي ، وكان لهذا اسوا الآثار على ازدهار الأندلس وقدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية احيانا على ملوك الطوائف لدى موت واحد من كبار ملوك الشمال وحدثت خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث اثر وفاة شانشو (شنجيه) الكبير ، حيث انهار صرح الوحدة التي اقامها واقتسم اولاده الاربعة املاكه وهم : غارسيا ، وفرناندو ، وراميرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ان يستولى على مملكة ليون ، ثم قام منذ ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المسلمين في سرقسطة وطلايطلة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع والحصون واجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتاوات له (٥٠) وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م فقام صراع بين

اولاده حول توزع املاكه واستطاع سمانشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم اخاه الفونسو السادس ، وبعدها اسره نفاه الى ديار المسلمين فالتجأ الى طليطلة ، وقد سلفت الاشارة الى هذه المسألة ، ومفيد ان نعود هنا لنبين ان الفونسو السادس امتلك بعد وفاة اخيه سمانشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جيلقية ، ومن ثم اقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس امرأؤهم « في الملذات وصارهمهم الوحيد منافسة بعضهم بعضا في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة » (٥١) .

ومعروف ان الحضارة عند ما تغدو انغماسا في الملذات تفرغ من محتواها الاخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على ايدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الاداب السلطانية بوصف درجة الحضارة التي وصلت اليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات ، ثم حكى عن واحد من امراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : « كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ، وتحتة فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحتة فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من راه ، ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الامر ما كان » (٥٢) .

لقد ملكت الهمجية الاسبانية الصليبية المتعصبة القدرة على الفتك بالحضارة الاسلامية والوجود العربي بالاندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب ان تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت ان

تأثرت بحضارة الأندلس أو تصادمت معها ، وكان لذلك نتائج خطيرة .

لقد أخذت حرب الاستغلاب التي قادها الفونسيو السادس سمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون من كل طرف اوروبي ، وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بصكوك الغفران ، وهكذا اشتعلت الحروب الصليبية على ارض الاندلس وامتدت الى صقلية قبل ان تشتعل في ارض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية او الوطنية « فقد عد ملوك ليون انفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الاسلامي لها ونقل أحد رسل الفونسيو السادس الى الامير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسيو : « انما كانت الاندلس للروم في اول الامر ، حتى غلبهم العرب والحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الآن عند التمكن ، طامعين في اخذ ظلاماتهم » (٥٣) .

وكان الفونسيو على بينة بأحوال حكام الأندلس وبتهور احوال الناس فيها ، وبهدف زيادة اضعاف البلاد بنى خطة في حروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قوله : « انا من غير الملة ، وكل الناس يشنّاني ، فبأي وجه اطمع في اخذها ، ان كان من باب الطاعة ، فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب اموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجوه إن صارت الي ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ، ولا من الممكن ان نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الراي ، كل الراي تهديد بعضهم ببعض ، واخذ اموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتأتي عفوا كالذي جرى بطليطلة ، انما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت الي بلامشقة » (٥٤) .

والثير للانتباه ان أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بأهداف الفونسيو وخططه ومع هذا « كان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ويقول : من هنا إلى ان تتم الأموال وتهلك الرعايا يأتي

الله بالفرج وينصر المسلمين « (٥٥) وكان كل منهم يشتري رضى الفونسمو ، ويطلب منه أن يكون معتدلا في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قويا في وجه الفونسمو ، فقد حاصر الفونسمو غرناطة وطلب مبلغ خمسين ألف مثقال مقابل انصرافه « على خير » فأجابه الأمير عبد الله : « إن ذلك لا يقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فانه لو أخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رmqا لانستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت » (٥٦) .

لقد استنزف ملوك الطوائف أموال أهل الأندلس في شراء السلم من الفونسمو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهدا ، التقى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخببت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكييا ، وقد « رأت مرة نسوة من الممتهنات قد وضعن أرجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا الى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبكيك ؟ فقالت له : اه إني لتعسة ، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحاة ايام أن كنت أنعم بكوخي الحقيير ، وانا سجينه هذا القصر العابس ، اسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل الثقاايد وعادات القصر المملة ، انظر الى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ النهر ، وانظر الى أرجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن اعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، واطيت الحرية التي استطيع بها أن أفعل ما اريد ، فأجابها وقد شاعت على شفثيه ابتسامة لطيفة : بل انك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها الى فناء القصر ، وأمر باحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الاعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وأمر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، الى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما اراد من ذلك صعد الى اعتماد وقال لها :

لتنفضلي بالنزول الى فناء القصر أنت وجواريك ، فان معجن
الطين في انتظارك فنزلت الأميرة الى ساحة القصر ، وخلعت هي
وجواريتها نعالهن وصرن يعجن باقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف
وهن في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه ان تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهظا
واموالا طائلة ، وقد كان في استطاعته ان يغضي عن هذه
الحادثة « (٥٧) » .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معاوية
ابن أبي سفيان حين ضاقت ذرعا بحياة القصر ، غير ان الفارق كبير
جدا فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبيث به وذلك قالت :
وليس عباءة وتقرعيني

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب
الفونزسو او يحتاج الى المال والمؤن ، كان ملوك الطوائف يهبون
لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له ان يتسمى بملك الملتين وان يحمل
لقب امبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ان حاصر مدينة
طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جدا ،
فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شمال
الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصول المؤن الى
جيش الفونزسو ، واصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندما اصبح
الفونزسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتاله واغتنام
الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج
عنه وعن جيوشه « ولولا اهتبال ملوك الطوائف باقامة مرافقة ،
واصغاؤهم الى هدر شقاقه لطار شعاعا ، وذهب ضياعا » (٥٨) .

وسقطت طليطلة ، ودخل الفونزسو عاصمة القوط القديمة وانتهت
دولة بني ذي النون ، ورثى احد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة اباح الضد منها
حماها إن ذا نبا كبير
محصنة محسنة بعيد
تناولها ومطلبها عسير
الم تك معقلا للدين صعبا
فذلكه كما شاء القدير
واخرج اهلها منها جميعا
فصاروا حيث ساء بهم مصير
وكانت دار ايمان وعلم
معالمها التي طمست تدير
مساجدها كنائس أي قلب
على هذا يقر ولا يطير (٥٩) .

لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين
وتغير الوضع الاستراتيجي بالاندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة
في اقصى الشمال ، أما الآن فبات في وسط الاندلس ، في موقع
مسيطر على جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيرية ، يقول ابن
الكردبوس : « ولما حصل الطاغية الفذش لعنة الله بطليطلة ، شمع
بأنفه ورأى ان زمام الاندلس قد حصل في كفة ، فشن غاراته على
جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون
واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (البلدات) والقرى
المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة الى طلبيرة وفحص اللج
واعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقي أقل كلب من
كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفذش
مهندين ، وبأنفسهم واموالهم مفتقدين وفي ان يشركهم في بلاده له
عاملين ، ولاموالهم اليه جابين ، حتى ان صاحب شنتمرية حسام
الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة
القدرسنية ، متقربا اليه ، وراغبا ان يقره في بلده عاملا بين يديه

فجازاة على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفذش من وقوع البأساء .

وانتخى الفذش انتخاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماشي على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلغتهم امير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه : من الانبراطور ذي الملتين « (٦٠) .

واجمل ابن الكردبوس وصف علاقات الفونسو السادس مع حكام الاندلس بقوله « واستحكم في المسلمين طمعه ، وصح في قياسه الفاسد ان يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه فلم يذم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف ايام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيما ، وضعف بعضهم عن البعض الا بمعونة الروم ، فبذلوا للفذش ما يحبه من الاموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجال ، واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشغولون بشرب الخمر ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرات من المشرق ، كي يوجهها الى الفذش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه ، الى ان ضعف من اولئك الثوار الطالب والمطلوب ، ونزل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعاية ، وفسدت احوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ، واذعن من بقي منهم خارج الذمة الى اداء الجزية ، وصاروا للفذش عمالا يجبون له الاموال ، لا يخالف امره احد ، واكلوا امور المسلمين الى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الأسود وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا .

وتطوف الروم في كل عام على الاندلس يسبون ويغتمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون « (٦١) .

وبعدما صار الفونسو سيد طليطلة اخذ يتطلع بجدية نحو اشبيلية للاستيلاء عليها وازالة ملك آل عباد منها ، واتبع في سبيل ذلك

خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، واشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع الفونسيو السادس عنه فراسله وحاول شراء رضاه بالأموال والقلع وغير ذلك ، وبعث اليه في احدى المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف اترك مجانين (ج.ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم : المعتضد والمعتد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في النّب عن نفسه سيفاً ، ولايرفع عن رعيته ضيماً ولاحيفاً ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سدى» (٦٢) .

وكذلك بعث الفونسيو الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه واخرجوا اليه المال العين والاسبائل ، قال لهم اليهودي : والله لاأخذ منه هذا العيار ، ولاأخذ منه الا مشحرا ، ولايؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، واساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، وأسر من كان معه من النصاري ففعلوا ما أمرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك أنفذهش ، أقسم بأيمان مغلظة أن لايرفع يده عنه وأنه يحشد من الروم عدد شعر رأسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أنفذهش في جيش لا يحصى كثره ، وافسد في الشرف (ربض اشبيلية) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطئ بحر الزقاق ، والبحر يضرب أرساغ

فرسه» (٦٣) ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة الى يوسف بن تاشفين .

وكيف لا يفعل هذا ولا يشتط حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه او يدفعه ، فقد «انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاثوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم أقصى بلاد الاسلام مرتعا ، ولقد بلغ الروم ان اغاروا في ثمانين فارسا ممن لا خلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائدا من قواده ، ومعه من خيار جنده اربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ، انهزموا ، وما وقفوا ولا أقدموا» (٦٤).

والمثير للانتباه هنا ان المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية ان القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وان ملوك الشمال لم يلق أيا منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب « هدنة على دخن» .

ويذكر اهل الأندلس من ملوكهم فكان ان توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود أندلسية «وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى أوطانهم» (٦٥) .

وشدد الفونزسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله ان يخلي له معاقل كان الموت عنده أولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» (٦٦) .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار وراس ، ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفذش فيهم وانه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية ، رأوا ان الرجوع الى الحق أحق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على ان ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه» (٦٧)

لم تكن الأمور بمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط الى جادة الصواب ، وأبدا لم يروا أن الرجوع الى الحق أحق ، بل أرادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معا فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر الفونسمو «بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض» (٦٨) .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بوساطة مستشارية من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسمو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف . ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة الفونسمو التي جاء فيها : «لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، واهتك الأسفار ، وأقتل الشبان والأسر الولدان ، ولاعذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا ... فان كنت لاتستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وأنا أقاتلك في أحب البقاع اليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة» (٦٩) .

وأخذ يوسف بن تاشفين يعيد العدة للجـواز الى الأندلس ، واقتضى الحال منه تأمين ما يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الامدادات اذا لزم الأمر ، وهكذا «شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ، وطاعة أهله ، ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الأعمال ، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال ، فاكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا

بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعا كثيرة ، وسماهم بالحشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخلين ، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة الاف فارس» (٧٠) .

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة الى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين وأعدائهم ، ولهذا «بعث الى الأندلس برسم شراء العدة والآت الحروب ، فاشترى له منها كثيرا » وأمضى عاما في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه الى اثني عشر ألف فارس ، كلهم نخبة أنجاد» (٧١) .

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف يطلب منهم جمع قواتهم وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع اليه بعد عبوره الى الأندلس لقتال العدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز الى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدا من كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسيا من أهل المرية ، فقد روي أنه قال له: «أيد الله الأمير تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة أثمان يعمرها

النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لا يخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه مئات قديم ، ولا صداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكذب إليه إنك لا يمكنك الجواز إليه إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (٧٢) .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي له عن الجزيرة الخضراء وأن يخليها له ويكتب بذلك صكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الرازي يزيد بن المعتمد ، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل أيضا فكره الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة اشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد « بمداواة الأنفدش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقل ، وهذا اللعين أنفدش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بكل كلة ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي ، ملك العدو نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجباننا وتبددت أجنادنا ، وابغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت أ تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير » (٧٣) .

لاندري مدى صحة هذه الرواية اخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلوة بين أب وابن ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع (٧٤) « القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة

الخضراء ليوسف بن تاشفين وتسلميها له بمحضر ذلك الجمع ،
وبعث به إليه » (٧٥) .

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمد بن
الأفطس ملك بطليوس ، وعبد الله بن حبوس ملك غرناطة ، وطلب
منهما أن يرسل كل منهما قاضي حاضرة دولته وحين فعلا استحضر
قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم
وفدا للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلس
وبعد مفاوضات تم الاتفاق والتعاقد على أن تتصل الأيدي على غزو
الروم بمعاونته ، والا يعرض لأحدنا ببلده ولا يقبل عليه رعيته ، ومن
يروم الفساد عليه » . (٧٦) .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبته للعبور إلى
الجزيرة الخضراء ، وفعل هذا بعدما وردت عليه رسائل
المعتمد « تعلمه أنه يتأهب للجهاد ، وتعدده بإخلاء الجزيرة
الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبته إلا ويخضعها في يديه ، فلما وصل
متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد
فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متقلق
لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ اشبيلية من يقول له : تربص في
سبته مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى
هذا » (٧٧) .

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ وسيء النوايا
باتجاه يوسف بن تاشفين ، ونبه يوسف إلى هذا وقيل له : « لم
يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى الفونس
يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له منه ما يرغب ، ويسأله أن يعاقبه على
أن يهبه الجزية أعواما فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة ،
ومنحك الجواز ، فاسبقه إليها ، وإن كان النصراني لا يتأتى له ،
أرسل اليك في الجواز » (٧٨) .

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبته ، وبناء عليه لما

انفصل الرسل عنه بذية التربص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوما ،
جهز عسكريا مقدما من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ،
فلم تصل الرسل إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد
عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت
محلتها ، لم يدر متى أقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها
يزيدون ويترادفون ، حتى اكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود
بن عاذشة ، وأحدقوا حواليتها يحرسونها ، ونادى داود بالراضي ،
وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ، ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر
بسلطان ، إنما أتينا للجهد ، فإما أن تخليها من هنا إلى وقت
الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع .

وخاطب أمير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له :
كفيك مؤنة القطن وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فأرسل
المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى
الأمير إليها ودخلها ناظرا إليها ، ثم انصرف إلى سبته إلى وقت
إقباله « . (٧٩) .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما أسفر عنه العبور
الأول الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه من
ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له ، ولعدم وثوق يوسف بابن
عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفور « شرع في بناء
أسوارها ، ورسم ما تشعث من أبراجها وحفر الحفير (الخندق)
عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكريا انتقاها من
نخبة رجاله وأسكنهم بها » (٨٠) .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبدل
استراتيجي بشأن أحد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قد
امتلكوا منفذ الزقاق (مضيق جبل طارق) من طرفيه في العصر
الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبته وطنجة من جانب المغرب
والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل ، وبعدها حاولوا

فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسيس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجاذب الأندلسي فقط ، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي الممر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربيا ، (٨١) وآذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية للنورمان ، الأمر الذي سيكون له أبعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصليبية وسيتضح ذلك أثناء الأعداد لما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء ، وقارب عدد هذه القوات العشرة آلاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة ، وعندما تمت عملية العبور كان الفونسو السادس بعيدا في الشمال ملقيا الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت أجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجيء بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين (٨٢) .

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية « فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبط مع في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظر إلى العسكر فرأى عسكرا نقيًا ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركة » (٨٣) .

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية أقام بها ثلاثة

أيام ، ثم ارتحل نحو مدينة بطليوس ، لكن لماذا نحو هذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية ؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد به قائلا « الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء(٨٤) .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية(٨٥) أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخائل والتدابير يتزايد حتى تخلط القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو ومدينة سرية(٨٦) وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصين والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوي في فيء الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما احضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى « (٨٧) .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفاع عن ثغور مملكة ابن الأفطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس (وهي منطقة تقع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية) لقد جاء للتفريغ عن هذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخل الأراضي التي غلب عليها الفونسو ، ويؤكد هذا التعليل ما ذكره الأمير عبد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بن تاشفين بأرض الأندلس واثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قوااتهم ، ففعلوا باستثناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه

وبقي هو « متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر
بكبر السن مع الضعف » .

وتحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف
ابن تاشفين وأنه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : « ورأينا
من اكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن
نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطس
محتفلا بعسكره ، كما برغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على
الموت نفسه ... والعجب في تلك السفارة من حسن الذيات ، وإخلاص
الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك » (٨٨)

هذا من جهة يوسف بن تاشفين أما من جهة الفونزو السادس
فقد عاد إلى طليطلة ، ومن هناك حشد قواته كما تلقى نجدات من
المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من
المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابوية ، وقد بالغت
المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب
الحلل الموشية « واحتفل - الفونزو - في الاستعداد ، وخرج معه
ثمانون ألف فارس لابسين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى
فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين ألف فارس ،
أربعة وعشرون ألفا من فرسان الأندلسيين مابين مدرع ولابس ،
ومثلها أو أكثر منها مرابطون وأهل العدو » (٨٩)

وأرى في هذه الرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض
القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة آلاف ، ونقلنا من قبل عن
صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى
اثنى عشر ألف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلس كل
ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار
يقول في مادة « زلاقة » اختار الفونزو ممن اجتمع إليه
أنجادهم « وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أقاتل
الجن والأدس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء

المختارون من أجناده أربعين ألف دارع ، ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأما النصاري فيعجبون ممن يزعم ذلك ويقول ، واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين ألف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا ، لكن ليس أكثر من خمس وعشرين ألفا ، ونزلت القوات الإسلامية قرب أسوار بطليوس ، فهي جاءت للتفريغ عن أراضي هذه الدولة ، وهناك وردت الأخبار بزحف الفونزسو نحوها على رأس جيش كبير ، يقول الأمير عبد الله : « وتلومنا ببطلاننا أيما حتى صبح عندنا اقبال الفونزسو في حفله ، يروم الملاقاة ، ويظن أنه يهزم الجيش لقلته معرفته به قبل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنصاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيها ونعمت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوي إليها ، وأمير المسلمين يدبر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجسا بأن يكون الرومي لا يخرج إليه أحد فينصرف طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال » (٩٠) على هذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف الفونزسو نحوه ، لكن الفونزسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ، وجاء بعدما أكل الطريق قواته ليقاتل قوما اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ، وكتب الفونزسو إلى يوسف يقول : « هاأنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وأنت تتربص وتختبئ » (٩١) .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونزسو قبل أن ترتاح قواته وتتخذ معسكرا خاصا بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى الفونزسو كتابا « يدعو فيه إلى الجزية أو الاسلام أو

الحرب ، فلما وصل كتابه إلى الفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبير
وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك »

وجاء في كتاب يوسف إلى الفونسو السادس: « وقد بلغنا يا
أنفذش أنك دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر
البحر عليها إلينا ، فقد اجتزنأه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة
بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك (ومساعداء الكافرين إلا في
ضلال) - سورة الرعد - الآية: ١٤

فلما وصل الكتاب إلى أنفذش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، وقال أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال: يزحف إلي فإنني أكره أن ألقاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعي منه ، فلا أشفي نفسه بقتله ، ولا أبلغ أملي فيه وبينني وبينه هذا البسيط المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما أظهر من طغيانه وكبريائه « (٩٢) .

وأثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب الفونسو « إلى أمير المسلمين مكرًا منه يقول: إن غدا يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين: اتركوا اللعين وما أحب « (٩٣) .

وحذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكرا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش الفونسو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم الفونسو ، وفقط المعتمد اتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظا خشية هجوم مفاجيء ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة (٩٤) « (٢٣ - تشرين أول ١٠٨٦ م) دون قيام هجوم ليلي فمسال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستدلال واتفاق على خطة القتال ، أنما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة الفونسو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد الفونسو للهجوم « وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه ، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولعان دروعهم... فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي

وتقول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمأنينة ، وقد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل بن الألفس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدو كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه بادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل ، وظنوا أنه وهية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عباد في طريقه بأهل أشبيلية وسائر عماله ، ف وقعت بينهم حروب صعبة كانت الدائرة فيها على أهل أشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخرج ابن عباد بجراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا.... قال ثم ثاب العسكر من المسلمين لأففسهم وحملوا على محلة أذفدش حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بما وقع ، إذ كانت محلاته بعيدة عن محلة ابن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابن القصيرة فأخبره ، فركب وأحرق به زعماء لتونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره « (٩٥) » .

واحتاج إيصال الخبر إلى معسكر يوسف بن تاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسف تباطىء في إرسال النجدة إلى ابن عباد ، ولعله أراد التخلص من القوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس: « فأعلم أمير المسلمين بأنهمزام الرؤساء فقال أتركوهم قليلا للفنا فكلما الفريقين من الأعداء (٩٦) ومع هذا بعث بعد حين بعدد صغير من الجند للوقوف إلى جانب الأندلسيين والتفريج عنهم ، ويبدو أن الفوذسو قد تصور أنه اشتبك بالقتال ضد جميع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين ، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسية واستنفذ طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من احتياطات ، لهذا ما أن وصلت

طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحال هكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحركة التفاف وتهاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من نبح المدافعين عن المعسكر الصليبي والقضاء النار فيه ، وفوجئ الفونزو وقواته ، وتمزق الجيش الفرنجي بعدما حاول الفونزو ارسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقت التقت القوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هذا جمع الفونزو بقاياها وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صفوف الصليبيين وأصيب الفونزو بفخذه بجراحة كبيرة ، وحدث هذا ورجالات الفونزو « كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة » فانهزموا « فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات من جيشهم خلأئق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل، وميت مثقل صريع » (٩٧) وتسلس الفونزو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنده وهم جميعا مثقلين بالجراح ، وكما بلغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسائر هذه القوات وأوحى أن جيش الفونزو قد دمر وأبىد ، وتحدث الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال: « ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل ، وأنصرف أمير المسلمين راجعا إلى أشبيلية على حال سلامة ونصر » (٩٨) ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي أحرزته ، وكان أقل ما هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا؟

الشبه هنا شديد بين ما حدث في معركة منازكرد وهذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفاعي ولم يمتلك المسلمون أية خطط للتوسع أو الهجوم ، فبعد انقضاء معركة منازكرد لم يحاول الب ارسال حتى إسترداد المواقع الشامية التي قد استولى عليها أسيره الامبراطور رومانوس داجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريغ عن بطليوس ، ولم يأت لاستعادة

طليطلة أو غيرها ، يضاف الى هذا أنه كان من عادات لتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملتزمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» (٩٩) وطبعاً لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الامكانيات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن ان نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بامكانيات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الفونسيو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجاد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلل الموشية لدى حديثه عن فرار الفونسيو قال : « ففر ... ويوسف المسلمين تتبعه حتى لجأ الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، واحتدقت بها الخيل ، فقال لهم امير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا ارهق لا بد أن يعرض قد سلم الله المسلمين من معرفته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء ابلوا بلاء عظيم ، ولكن اتركوهم ولا حظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا واصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم اثر ، ثم ثنى امير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد ابان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل اولئك الجموع المشركة» (١٠٠) .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وارااء جديدة بالاعتبار ، قال الحميري : « ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلسل ابن فرناند ، وهو لايلوي على شي ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من اثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجهه الرأي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين أسر حسوا في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب» (١٠١) .

المهم ان سوء النوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحل الموشية : « ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع أسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلات أيديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما اغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، سياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزبها رؤساء الأندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس من خناق ، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون » (١٠٢) .

وعاد يوسف الى اشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وأنهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله : « ولما انقضت غزوته

تلك جمعنا في مجلسه - أعني رؤساء الأندلس - وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تفترصنا

الا للذي كان من تشبثنا واستعاناه البعض بهم على البعض، فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة، ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعض الحكام ضد بعضهم بعضا وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله ، ثم أخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته الى المغرب ، «وقد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهنا لبقائنا في الجزيرة ، وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه ، فكل من شكا اليه ذلك الوقت من رعيته يقول له : لم نأت لهذا ، والسلاطين أعلم بما يصنعوه في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى ما كان عليه في قلوبنا ، واليه استنامة وميلا ، ورجع الكل الى وطنه» (١٠٣) .

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف الى العودة الى المغرب ، من ذلك ما نقله صاحب الحل الموشية : « ولما فرغ من وقعة الزلاقة وانصرف اهل الأندلس الى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبا أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابيه من العدو وصدره ، وقد قضى في عدو الملة وطره ، » (١٠٤) .

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه ابراهيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف الى هذا أن الزلاقة وقعت سنة ٤٧٩هـ ، وذهبت المصادر التي نحضنا رواياتها الى ان ابا بكر قد توفي سنة ٤٨٠هـ ، وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال : « واتصل بأمر المسلمين يوسف ... وفاة ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضا بسببة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدو بسبب وفاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ، فجاز الى العدو ودخل حضرة مراکش ، فأقام بها الى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته» (١٠٥) .

ويرجح ان جولة يوسف على أعماله كانت روتينية ، أو انها

ارتبطت بتفجر مشاكل خطيرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد (في جزائر اليوم) فقد أغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس ، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع الى ابن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه النخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين الى ابن حماد (١٠٦) .

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية الى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا ، فقد أعاد نصر الزلافة التوازن العسكري والسياسي الى ديار الأندلس، وأجل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المرابطين على أرض الأندلس أتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وإزالة ملوك الطوائف .

ولقد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس وأظهرت أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم جدارة ، وأنه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لالازالته فحسب بل للحط من شأنه وذفيه ومعاملته بسوء كبير . ولقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الإسلامية - أو لنقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الإسلامي - منذ القرن الرابع هـ / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لابل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشئ نفسه حدث الآن في جبهة المواجهة الإسلامية مع أوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ما حقة على بسيط الزلافة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعذف أبواب

أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لاسيما وقد اجتاحت التركمان أسية
الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من
القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي
قصة إعادة الوحدة الى الأندلس وأخذ المسلمين مجددا بزمام
المبادرة العسكرية ، ولاشك أن هذا كله شحذ أجواء أوروبا
الغربية ، وزادها تعصبا وتأثرا بالنشاطات الدينية ، وهكذا
استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية - كما سنرى - وحمل
الأوروبيين شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لازالة
الاسلام منه وتحويله الى وطن لاتيني وراء البحار .

الفصل الرابع

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وازالة دولة الطوائف

راينا في الفصل المتقدم أن الأمير عبد الله بن بلقين صاحب
غرناطة ، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف
ابن تاشفين وشاركوا في معركة الزلاقة ، ومذكرات هذا الأمير
الأندلسي على درجة عالية من الأهمية ، حيث أن مبادئها
وثائقية ، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجواز الأول ليوسف
ابن تاشفين قال : « وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى
بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسمعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهها
لبقائنا في الجزيرة » (١)

ونظرا لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم إياه نصر الزلاقة
ما لبث الفونسو السادس أن سعى إلى لم شعثه وتدارك بعض ما
خسره ومتابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو آخر ، واستغل قيام
صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وآخر تغلب عليها اسمه ابن
رشيق ، وفي الوقت نفسه نشطت بعض العصابات الأسبانية في
منطقة مرسية وأعمال لورقة وبسطه ، وهي الكورة التي عرفها
المسلمون باسم تدمير ، وقام على مقربة من لورقة « حصن حصين
على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو » (٢)
واسمه لبيط ، شحنه الفونسو السادس بأعداد وافرة من العساكر
وأمرهم بالانغارة على الأراضي الإسلامية ، وهكذا كانت سراياه
تغير شرقا وغربا ، إذ كان في موسطة بلاد المسلمين » (٣)

وخلال عامين انقضيا بعد معركة الزلاقة تردت الأوضاع كثيرا
وشرعت الوفود الأندلسية بالتوجه إلى مدينة مراكش والالتقاء
بيوسف بن تاشفين حيث شكت إليه سوء الأحوال الأمنية في
الأندلس ، « فلم يزل وجوه الأندلس من تلك البلاد ، يترددون إليه

بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا «(٤) أبرمت الاتفاقات مع ملوك الطوائف .

وكنا قد رأينا أن المعتمد بن عباد قد تصدر يوم الزلاقة ملوك الطوائف ، وأدراكا من الفونسو لهذا الحال « عمد إلى حصن لبيط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيول والرجال والرماة ، وأمرهم أن يدخلوا من حصن لبيط المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس ... فكانوا يدخلون منه خيلا ورجالا فيقتلون ويأسرون في كل يوم ، جعلوا ذلك وظيفة عليهم ، فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعا «(٥) .

ومن المقدر أن ابن عباد عرف بتفاصيل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشفين ، وأن يوسف أبدى استعدادا للجواز إلى الأندلس شريطة عقد اتفاق رسمي حول هذا الموضوع ، ونظرا لتبدل الأوضاع بعد الزلاقة ولأن يوسف بن تاشفين لم يعد الآن «الصحراوي ملك العدو» بل أمير المسلمين والسيد القوي ، لم يقدم ابن عباد على مراسلته واستدعائه ، بل توجه إليه شخصيا فغادر اشبيلية على رأس وفد كبير وجاز البحر والتقى بيوسف ابن تاشفين على مقربة من تطوان وليس في مدينة مراكش ، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف إلى هذه المنطقة ، وروى صاحب الحل الموشية أن يوسف بن تاشفين «قابلته بالسلام والترحيب بوجه طلق وصدر رحب وأكرام جم ، وقال له : ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا ، وهلا كتبت بحاجتك فقال له : جنيتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الحظ الأوفر وقد اشتد ضرر النصراني المستولين على حصن لبيط ، وعظم أذاه بالمسلمين ، لتوسطه في بلادهم ، ولأجهاد أعظم منه أجرا ، ولا أثقل منه وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ، ووعده بالحركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه ، وصدر إلى حضرة اشبيلية ، وتقدم إلى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد ، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات «(٦)

في رواية صاحب الحل هذه مسحة دعائية واضحة ، وأكثر واقعية منها ما حكاه الأمير عبد الله في مذكراته حيث قال : «وإن المعتمد بن عباد لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراد أن يضع ابنه الراضي بمرسية عوضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريد الطمازينة ويحكم معه ما شاء من عمل في مرسية وغيرها ، وعظم له شأن لييط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لراحة للمسلمين إلا بفقده ، وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله لكي يتهيا سلاطين الأندلس حربه بعددهم واجماعهم فيأمنوا من يقلعهم عنه» (٧) .

«وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد ... فركب البحر من قصر المجاز إلى الجزيرة الخضراء ، فتلقياه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء ، كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ، وقال لهم : الموعد بيننا حصن لييط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (حزيران ١٠٨٨ م) فنزل على حصن لييط» (٨) .

وتجمعت القوات المرابطية والأندلسية أمام حصن لييط «وكان بداخله من الروم ألف فارس ، واثنان عشر ألف راجل واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلاً ونهاراً مدة أشهر ، وكل أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله .

واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما يسهم عنه ... وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاول ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد بن عباد ، فشكوا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاعه عليه ، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أنفدش ، فحضر

ابن رشيق ، واستفتى يوسف بن تاشفين في أمرهما الفقهاء فوجب الحكم على ابن رشيق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه وإسلامه في يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلاته إلى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاخذت أمورها ووقع الغلاء بها ، وارتفع السعر فيها ، فضاقت بالناس الأحوال .

وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الحشد ويمم الحصن في أمم لا تحصي ، فاقتضى رأي يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلاته ... وظهر له أن الأنفدش إذا وصل فغايته تخليص قومه وإخلاء الحصن ويزول ضرره ، ورأى أن الصواب إخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا لا يقدر على إمساك الحصن فأحرقه وأخرج من كان فيه من قومه» (٩) .

ومثير للانتباه أخفاق هذه الحملة لحصانة لييط ولتفجر مشكلة مرسية ، ومن أجل هاتين المسألتين جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، والمثير أكثر أن ابن تاشفين تجذب الصدام بقوات ألفونسو السادس ، وفعل الشيء نفسه ألفونسو وقد نعل تصرف ألفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في الزلافة ، لكن لماذا تجذب يوسف بن تاشفين الصدام معه ؟ لعل السبب قد كمن في وضع القوات الأندلسية وفي أوضاع الأندلس بشكل عام ، ووصف ذلك كله الأمير عبد الله بقوله : "وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيته في ذلك ياتون أفواجا شاكين لما وجدوا لمن استندوا إليه فالراضي منهم يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ، وجعلوا في شكوايهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا لكل صادر ووارد يجد السبيل إلى الطلب للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم

من مغارم الأقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم الى الانفاق ما قلق به وساء الظن من اجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتجف متوالية لو فرط منها في شي لانخرمت عليهم الأحوال ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة فلا حيلة الا بين صبر يؤدي الى ملامة توجب عقوبة ، أم امتناع يؤدي الى استئصال كالذي جرى .

ونسمع في هذا كله من اهل جهاتنا تهديدا وعصيانا انكرناه لانتم به مملكة ، ولايتها معه قضاء حاجة ، ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا الا يعطونا شيئا ، ويعددهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الخفر منا يقعدون بنا ، ونحن أحوج ما كنا اليه للانفاق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدنا فيها الأقوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعونة ... وكشفت العورات ، فلم يزيد الرؤساء الا توحشا ولا الرعية الا تسلطا ... وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق ، فمن اغتر منهم طالب صاحبه وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هو في سبيله ... وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا وسعدا للمرابطين مقتبلا»

ثم قدم الأمير عبد الله تفاصيل جيدة عن مسألة ابن رشيق وبين «أن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشيق واختلاف ما بينهما ، أعمل في ذلك عقله ، ودبر برأيه وقال : ما تنبغي لنا مفاسدة ابن عباد من أجل ابن رشيق ، لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله . ونحن لم نأمن أمر الرومي ، والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى نرينا الأمور وجوها» (١٠) .

ويستخلص الانسان من صورة التفاصيل التي حكاهها الأمير عبد الله أن المسلمين انشغلوا أثناء حصارهم لحصن لييط بخلافاتهم وليس بالشؤون الحربية ، وان قدرات المرابطين في القتال ضد الأماكن الحصينة كانت متدنية ، ومن المقدر أن يوسف بن تاشفين

كان مدركا لهذه الناحية وكان يعرف ان جميع المدن الأندلسية حصينة لا يمكن لقواته الاستيلاء عليها ، ولهذا تغاضى ، الآن عن احيانا شجع على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم ، وتحالف بالوقت نفسه مع الفقهاء ، فلم يبخلوا بإصدار الفتاوى بخلع ملوك الطوائف ، ولابد ان تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعا حتى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين .

وشجع الفقهاء شعب الأندلس على الامتناع عن دفع الضرائب للوكلهم ، ووجد هؤلاء الملوك الآن بحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتقوية جندهم واسترضاء بعض القضاة والفقهاء ، ونيل رضى رجالات المرابطين وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لألفونسو السادس ، (١١) وهكذا تعقدت الأمور كثيرا وجاءت المحصلات جميعا لصالح المرابطين .

في الجواز الأول لم يتدخل يوسف بن تاشفين في المسائل الداخلية للأندلسيين ، لكنه في هذه المرة لم يكتف بأن أصبح يقوم بالاصغاء إلى الشكاوى بل مارس صلاحيات السيادة ، فهو الذي أمر باعتقال ابن رشيق ، وهو الذي استفتى الفقهاء ، وحين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحكم الأندلس ، ويحق للمفوض بالسلطة اتخاذ الاجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبة وغير ذلك ، وهذا ما كان .

وامضى ابن تاشفين في الأندلس أربعة أشهر ، وحين عاد نحو المغرب عاد وقد اتخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حكمه المباشر ، وسيكون هذا في الحقيقة تنفيذا للرغبة المرابطية الأساسية في التوسع بالأندلس ، لكن الذي حدث أن هذا التوسع تموه بلون الجهاد وإنصاف المظلومين وبالتحالف مع رجال الدين ، ولقد أدهشت أوضاع الأندلس وتقدمها وغناها يوسف بن تاشفين والمرابطين ، ولعله رأى أنه إن تركها لملوك الطوائف لابد وأن تسقط للأعداء ، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مع القناعات الجهادية والدينية ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وهو يصف

أحوال يوسف بن تاشفين بعد عودته إلى المغرب إثر الجـواز الثاني : « ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنني قد ملكت شـيئنا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ فاتفق رأيـه ورأي أصحابه على أن يرأسـلوا المعتمد يستأذنوه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو ، والكون ببعض الحصون المصاوبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مـبـثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد اشربت - كما ذكرنا - حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجين ، وأسر إليه ما أراد ، فجـاز بلجين المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال له أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه .» (١٢) .

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مع المرابطين من درس لبيط ، لكن ملوك الطوائف لم يأخذوا حذرهم ، أو لعلمهم تصوروا أن هؤلاء المرابطين سيوفرون عليهم مادة بشرية تـحـمـيهم داخل المدن ، وذلك بعد سحب الحاميات كلها أو بعضها من الحصون وإحلال المرابطين محلها ، والمهم أن خطة يوسف بن تاشفين هي التي نجحت .

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجـواز بدأ يعد العدة لتصفية ملوك الطوائف ، فهو واقعيـا قد اعترف به الجميع سـيـدا للمغرب والأندلس ، ولكنه من حيث الواقع الشرعي لم يختلف وضعه عن

أوضاع ملوك الطوائف فالجميع كانوا من أهل السنة ، ولأهل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم وأعني بذلك الخليفة العباسي ، وبالنسبة للخلافة العباسية كان الوضع في الأندلس تعوزه من البداية الشرعية ، والآن بعد سقوط الخلافة الأموية لم يكسب ملوك الطوائف أية سمة شرعية ، فقد عدوا من الثوار المتغلبين ، لذلك توجب خلعهم ، وطبعاً لم يحاول أي من ملوك الطوائف الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد للحصول على اعتراف بحكمه وتفويض لابل أنكي من هذا سعى بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند الفونزسو السادس .

فبعد العودة من لييط دفع الأمير عبد الله لالفونزسو جزية ثلاث سنوات تقدمت ، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيوجهون إليه اللوم الشديد على فعله ، وقد أخبره الفونزسو مطمئناً له : « حتى أدرككم في ذلك طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم » . (١٣) .

وحاول الأمير عبد الله عبثاً التعاون مع الفقهاء وشراء رضاهم ، لهذا التفت نحو جنده وقلاع وحصونه ، وأراد استخدام الجند وسيلة قمع ، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي ، وأغدق على الجند الأعطيات فوثق بهم ، وهكذا قال : « وأراني جميع الجند من التآتي والانقياد والمناصحة ما حسبت أنهم يقاتلون عني الدجال فسررت بهذه الحالة واطمأنت إليها ، وقلت : هؤلاء أمة لا يرون بي بديلاً لانصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد رأوا جند العدو ، وإن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالة ، فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل » .

وشغله أيضاً أمر المغاربة من المرابطين الذين أسكنهم في القلاع فسمع لشراء رضاهم أيضاً ، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقاً بشعب مملكته وهكذا قال : « وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، ولذي شعاع من الزكاة والعشر عند المرابطين » وطمأن نفسه أنه مع وجود الجند على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه ، ثم حدثته نفسه ببناء على ما رآه في لييط أن

يزيد من مناعة قلاعه ، فقلعة واحدة قد تعرقل مسيرة جيش كامل اسمعه يقول : « وكم عسى يستطيع الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول فصرفت وجهه اهتبالاً إلى تشييد الحصون وبنيانها وإعداد ما يصلحها لحصار إن كان ، فلم أدع وجهها من وجوه الحزم إلا فعلته : من إقامة الأجباب ، وإعداد المطاحن ، وأنواع العدد من التراس والنبل والعرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعددت لكل حصن قوته لأزيد من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، مما استغني عن تحديده لاشتهاره »

وحدثته نفسه أن يوسف بن تاشفين لن يقدم على اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل « إبرامه لأمر الروم ، ولا بد عند مناظرتهم من فرج : إن غلب المرابط لم يفتنا الدخول في طاعته وإن غلب الرومي كنا منه على حذر » وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المنكب القريب حتى إذا « تغلب الرومي ، أكون على البحر متصلاً بالمسلمين ، ندافع منه جهداً ، إلى أن نضطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشمة أنفسنا ونتف من أموالنا » (١٤).

كان هم كل واحد من المتغلبين في الأندلس ملكه ، وقد انعدم من قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بالقلاع في هذه المرحلة أمر جديد في تاريخ الأندلس ، تشابهت به مع ما شهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاها من الاهتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ البلاد ، وعاش الحكام في قصور خاصة بهم ، لكن منذ أواخر القرن الحادي عشر أخذت كل مدينة شامية تمتلك قلعة حصينة ، فيها استقر الحكام ومنها حكموا ، وفي أيام الحروب الصليبية تم بناء المزيد من القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهكذا انتزعت القلاع من المدن دورها ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عودة إلى سياق الأحداث نجد أن إجراءات الأمير عبد الله وأمثاله لم تكن مجدية ، ذلك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة

الخلافة العباسية في بغداد ، وحصل من الخليفة على الاعتراف مع التفويض بحكم المغرب والأندلس ، وهكذا بات بالامكان اتخاذ أي إجراء ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جدا فيه ضمان للنجاح .
ففي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م دخل يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة .

لكن جاء دخوله هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحاجة إلى استدعاء وأبرام عهد مع واحد من ملوك الطوائف ، لقد دخل إلى بلاد هو مالكيها الشرعي ، يريد الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين أفتوه جميعا «بخلعهم - أي خلع أمراء الأندلس - وقالوا ليوسف: نحن خصماؤك عند الله ، لأن هؤلاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم ، وضيعوا غالب البلاد» (١٥) .

ولدى وصول ابن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء «وافاه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه بعبادته من التعظيم ، واحتفل في التضييف والتكريم .

وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده (١٦) ذلك أن ابن تاشفين سأل المعتمد «عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك الذي كان في نفسه ... وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابا يقول فيه : أقبل إلينا ، ولاتتأخر ساعة واحدة

فرابنني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضره جميع أعدائنا ، والحاجة إلينا في الوصول ، واعتذرت إليه بتوجيه رسل : أحدهما ولد حجاج والأخر ابن ما شاء الله ، فساعة وصولهما قرعها بكل ما نقل إليه ، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام ، وقال لهما : بالله ، اني غزوته كما نغزو الفونش والذي يقدر عليه فليصنع ، واتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حالة ، مضروبين ملهوفين ... فدهمني من هذا الأمر مالا مرفع فيه ولا حيلة ، ولا ظننته أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسل على المقام كتباً إلى إيسانه ، فأول ما طاعت له ، وإلى

جميع حصون الغرب ، ... وكان من كتبه اليهم : أما بعد فقد
(جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (١٧) ان لم
تطوعونا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) (١٨) وان خطابه لم يرد على
معقل منها الا وألقى بيده ، وقام أهله على اخراج قائدهم حتى
تناثرت المعقل كلها كانتثار العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرعية
... حتى يلقي بيده .

فلم ندر ما نصنع ، واتسع الخرق على الراقع ، وقلت : لاطاقة
لي بجميع اهل البلاد ، اذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ، فبمن
نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعقل
... ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ، ولا ثم غيره
يسند اليه فندستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى
ولامنا الممكن ان نوجه الى الرومي ... وان شعر بذلك اهل
حضرتنا كانوا اول من يقاتلنا قبل المرابطين» (١٩) .

وبذل الأمير عبد الله غاية جهده لنيل الرضى من ابن تاشفين
فأخفق وطلب منه المشول بين يديه وبعث اليه رسولا يقول
له : «الطاعة ولا صلح الا بالخروج» وذلك مع امان «في النفس والاهل
دون المال» ، وبعد مراسلات كتب يوسف اليه «ان كنت استوحشت
من النزول الينا فتخير من بلادك موضعا تصير فيه ، ولتكن غير
غرناطة لنرى فيها رأينا» (٢٠) .

ووصف الأمير عبد الله الأحوال داخل غرناطة فبين ان الجند من
البربر فقد هجروا طاعته ، وأعلنوا عن سرورهم بقدوم المرابطين -
وباتوا «طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية ، واتفق رأيهم على
الا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة» ووعده بالخروج اليه
وتسليمه الأمير عبد الله والتبرؤ منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجار
انه لاطاقة لهم بالحرب وغادر كثير منهم غرناطة «وأما الرعية
فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي ، طمعا منها في الحرية وانها لا يلزمها
غير الزكاة والعشر» وتخلّى عن أمير غرناطة الجميع «حتى الخدم من
النساء والخصيان»

وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة
فهجروا المدينة الى الأرياف جل سكانها وعلم الأمير عبد الله بإقبال
يوسف نحوه فأسقط بيده ، وبعد تقلب لجميع أوجه الاحتمالات
رأى عبد الله أنه لا مفر أمامه من مغادرة دار ملكه والنزول الى
مخيم يوسف بن تاشفين مسلماً نفسه وملكه ، وطلب يوسف من
الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن ، ففعل ، ومالبت
أن تعرض لاهانات شخصية وأعمال تفتيش جسدية ، ثم نفى بعد
هذا كله الى المغرب الأقصى ، فأقام فترة في سبته ثم في مكناسة
الزيتون وبعدها في أغمات . (٢١) .

وقيل بعد هذا ليوسف بن تاشفين « ثقفت صاحب غرناطة وأخوه
منه ، وإن تركته ينصرف الى بلده ، طلبك بالثأر ، وأفسد عليك ما
ترجو صلاحه ، مع شرته وحدته فهو بذلك مرسوم معروف ، فعاجل
بثقافه يصفى لك ماتؤمل » ، وفوجى الأمير صاحب مالقه والقى
القبض عليه وصودرت ممتلكاته ومقتنياته ، ثم « القى في
الحديد ، وأمر به الى السوس ، ولما كان طريقه على مكناسة
لقيناه ، فأخبر بهول ما قاسى وبصرنا وهو على تلك الحال قد شقي
بالكبل لعظمه ، أن يتحرك به ، فأوجب ذلك ما وسم به من
الشر ، وإن أهل مالقة رفعوا اليه حينئذ أفعالا قبيحة ، وأيادي
سيئة أسداها اليهم » ثم بعث الى السوس ليعيش هناك مذنيا (٢٢).

وإن تنفيذ هذه العملية عاد يوسف بن تاشفين الى سبته ليتولى
من هناك الاشراف على تصفية بقية ملوك الطوائف ، وقبل تبليغ
هذه الأعمال لابد من سؤال عن موقف ملوك الطوائف تجاه ما حدث
في غرناطة ؟

أما صاحب الحلل الموشية فقد أورد أن « المعتمد بن عباد والمتوكل
ابن الأفطس قدما عليه - يوسف - بغرناطة يهنئانه بما تهيأ له من
ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما ، وانصرفا
عنه الى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الزندم على استدعاء يوسف بن
تاشفين الى الأندلس ، وقال لخليفة المتوكل بن الأفطس : والله

لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقى عبد الله بن بلقين» (٢٣) .

لقد أورد صاحب الحل هنا بعض حقيقة ما حدث ، وأوفى منه وأكثر امانة وقربا من الأحداث الأمير عبد الله صاحب غرناطة المعزول ، فقد ذكر أن يوسف بن تاشفين وعد المعتمد بن عباد عندما التقاه إثر جوازه الثالث ، بغرناطة «وقال له : أنا رجل مغربي وليس قد مني أخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع علي صاحب غرناطة ، ونتوقع عليها من الرومي ، وليس غرضي أكثر من تخليصها ، فإذا صارت في يدي ، ولا يمكنني إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدو ، وضعتها عندك في يدك ؛ فتكون أعلم بما تصنع بها ، واقعد لما يصلح المسلمين

فلم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن ، وعمل حسابا آخر أن قال في نفسه : إن لم يتهيا أخذها بعود صاحبها عن الخروج اليه ، فليست مما تؤخذ من وقفه واحدة ، ستنجر الحال من أجلها ، وتشيع عليها المحلات كما صنع بلبيط ، وتدخل الشتوة فيحتاج إلى الانصراف ، وتبقى هذه المعازل التي طاعت للأمير أكون زعيمها ، وفي خلال ما يتلوى أمر غرناطة احتيج إلي ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين، ولانخلي من بركتها» (٢٤) لكن ما أن حقق يوسف بن تاشفين نجاحاته الأولى ضد غرناطة حتى بدا يغير سياسته تجاه ابن عباد وحليفه ابن الأفطس ، وفقد الرجلان زمام المبادرة ، لابل فقد استقلالهما ، وهكذا لم يتمكننا من فعل شي لصالح ابن بلقين ، وعندما خاطب كل واحد منهما بما نصه «هذا الأمر منجر إليكم ، واليوم بي وغدا بكم ، فلم يمكنهم قراءة الكتب دونه - ابن تاشفين - وعرضوها عليه ، فحنق علي ، وكتبت الأجوبة باملأته يقولون : إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك ، ونحن قد برأنا الله » ، ولم يكن هذا الموقف غريبا بالنسبة للأمير عبد الله ، فقد أملاه «الطاعة للمرابط والطمع ، عسى يحصل لأحد مزيد في بلاده ، ولا يمكن لأحد منهم معونتي ولا الاستفساد من أجلي فنحن لم يعن بعضنا بعضا على الرومي فكيف على المسلم (٢٥) .

وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبه المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتفت اليه ، وشعر المعتمد بالتهديد «وجزع جزعاً شديداً ، وخاف أن يذتني به» فسارع بالفرار نحو قرطبة ، وحاول يوسف ثنيه ورده اليه فأخفق ووصل الى قرطبة ، وهناك حذر ابن الأفطس وقال له: « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغدا بنا .

ثم انه بعد ان ظهر للأمير نفوره ، وجهه اليه يأمره بالقدم عليه ، ويقول له : نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ، ليقول لا، فيجد السبيل ، كما فعل ، فراجع ابن عباد : إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو ، فلزمتني معـونتك بنفسي وجميع أموالي ، والآن انما انت لي جار مثل باديس وحفيده ، وانت أقدر مني على الشر بجنودك ، فلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى أنك تريد اخذ بلدي ، ان لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الأندلس» (٢٦) .

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات الى المرابطين بالحصون فثاروا عليه (٢٧) وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل ان ذاك الى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه خيفة من التغرير ، ... فلما تبين للأمير خلافة وقعه عنه شاور الفقهاء في أمره ، فأشاروا عليه بغزوه» (٢٨) .

وسيرت الجيوش المرابطية ضد مدينتي قرطبة واشبيلية وسقطت قرطبة وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالمأمون ، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة ، ثم توجهت الجيوش ضد اشبيلية ، وبعد مقاومة شديدة سقطت للمرابطين يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ ٩ - ايلول ١٠٩١ م (٢٩) .

واستباحات القوات المرابطية اشبيلية «ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبباً ولا لبداً ، واذتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا وأخذ هو قبضاً باليد» وأرغم على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسليم

الحصنين اللذين كانا بأيديهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ماكان يملكه ، وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدو بطنجة ، فأقام بها أياما « (٣٠) ثم أخذ إلى مكناسة الزيتون ، فبقي بها مدة ثم أخذ إلى أغمات (٣١) حيث أمضى بقية حياته في فقر مدقع ونل لم يرتفع حتى موته .

وفي الربع الأول من هذا القرن زار صاحب أزهار البساتين أغمات حيث أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته مع أسرته ، فقال : « في هذا المكان الساحر الذي تقع فيه أغمات حيث تنحدر المياه الصافية من أعالي الجبال المقاربة ، فتجعل من هذا المكان موضعا ساحرا فتشت عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربيع . . . فلم أعثر على أثر ، ولا أتأسف على ذلك فقبره هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الأشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك التلوج التي نراها تشرق عن بعد ، هو ذلك الشيء لا يوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة ، ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقتته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي » (٣٢) .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجه بعض قواته ضد المرية ، وذلك بعد الفراغ من أمر غرناطة ، وعرف صاحبها المعتصم بن صمادح أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معز الدولة إلى معسكر المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذا الأمير فقيها ، وقد خيل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن تقديره هذا لم يصب ، فالأمور كانت مشتتة وكان يصعب إطفاء لهبها بالوعظ ، لذلك أمر يوسف بن تاشفين بساعتقال هذا الأمير ساعة وصوله إليه ، وهنا تحيل المعتصم في تخليص ولده من الأسر فافلح ، وبالنظر لانشغال ابن تاشفين بأمر المعتمد بن عباد ، فتر

الضغط على المرية ، وكان ابن صمادح متقدما بالسن على الصحة ، ولما شعر بدنو منيته أوصى ابنه وولي عهده بقوله : « امسك في هذه القصبية طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت ، فإن رأيت ابن عباد قد خرج ، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة ، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائر ، إذ لامطمع لك في البقاء بعده » .

وبعد سقوط اشبيلية للمرابطين وفي السنة نفسها ركب البحر فورا وتظاهر أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تاشفين ، وفي وسط البحر ، وبعدما بعد عن عين الأسطول المرابطي تحول نحو الجزائر وهناك التجأ إلى قلعة بني حماد « وأكرمه صاحب القلعة وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكن فاخترت تدلس لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السلطان خوفا من الطلب ، وانخمل في ذاته (٣٣) .

وباستيلاء المرابطين على المرية باتوا سادة لمعظم ديار الأندلس ، وبيدهم كبريات مدنها مثل : اشبيلية وقرطبة ، وغرناطة ومالقة ، والمرية ، وجيان .

وفي سنة الاستيلاء على اشبيلية استولى المرابطون أيضا على مرسية ودانية وشاطبة (٣٤) وبعد هذا أعدوا العدة للاستيلاء على بلنسية وأعمالها ، وكان الحكم في بلنسية بيد الأمير يحيى بن ذي النون ، وكانت الولاية تحت حماية مملكة قشتالة وقد عسكر فيها المغامر الأسباني السيد الكذبيطور مع فرسانه وقوات متنوعة من المرتزقة ، ومع هذا تمكنت جيوش المرابطين من الاستيلاء على بلنسية ، وقد فقد أثناء ذلك أميرها حياته ، وبموته انتهى حكم أسرة ذي النون ، أصبح طليطلة ثم بلنسية وكان ذلك سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م .

وبقي على المرابطين الآن تصفية ملك المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو الذي كان أول من استنجد بالمرابطين ، وفي أراضيه قامت معركة الزلاقة ، واحتاج المرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا

من إزالة ملك ابن الأفطس ، وذلك بوساطة إثارة الفقهاء والشعوب ضده بسبب سياسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين « باظهار الطاعة والمشاركة في امر الرومي ، ويخاطب الفونش لىستعين به على ملمة إن دته من المرابطين » (٣٥) .

وكان ابن الأفطس شيخا يتبع هواه ويقدمه على عقله ، وعلى عكسه كان ابنه المنصور ، وقد حذره ابنه من اتباع هواه ، ونصحه بالتخلي عن بطليوس وقال له: « هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغني عنك ما ترى من اظهار الطاعة للمرابط ، ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك ، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة لما أبقوا عليك ، كالذي رايت صنع بغيرك ، فأما أن تصفي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ، ووضع البلد في يديه ، وتقنع بأن تكون متحريا متخليا عن الرياسة فعاجل ذلك تجد عنده الأمان ، وإن نفرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ، يجعلك الرومي في أي بلد شئت ، وربما سوغها لك ، كما فعل بابن ذي النون في بلنسية ، وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخله ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ، فقال له أبوه ، وسفه رايه : لا أترك موضعي وعسى أن تهيب الأقدار ضد ما تظن ، فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، واخذ لنفسه بالرأي الذي أشار به على أبيه ، فبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه » (٣٦) .

وحاك المرابطون مؤامرة للاستيلاء على بطليوس ، بأن أطلقوا من سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد ، وطلبوا منه أعداد خطة للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق الى هذه المدينة ، وهناك عمل على شراء بعض الحرس وزعماء المدينة ، « حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ، ويفتحون له الباب ، فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالاسور عند الأمانة التي كانت مع من داخله ، وتقبض على الشيخ وابنيه: الفضل

والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة ، وأمر.... بإخراجه للقتل بعد أن رأى في نفسه هوانا عظيما ، وشدة على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصراني والمعاقل التي أعطاهم ، فأمر بقتله مع ابنه: الفضل والعباس .

وطاع جميع ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم ، ... ثم صار ابنه المنصور من جملة الروم حنقا لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين « (٣٧) » .

لم تبق دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الثغر الأعلى في سرقسطة ، وكانت سرقسطة محاصرة من قبل قوات الفونزسو يوم دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى ، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضيرات لمعركة الزلاقة ، بأن رفع عنها الحصار ، فهيأت أمامها الفرص للتماسك ، وخاصة بعد نصر الزلاقة ، وشكلت دولة بني هود سدا منيعا في وجه الاسبان ، وكانت أراضيها متداخلة مع ممتلكات ملوك قشتالة ، وكانت هذه الأراضي نائية في الشمال ، لم يكن من السهل على المرابطين الوصول إليها ، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس . وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إداريا وعسكريا وأمنيا ، وذلك قبل الدخول في أية مغامرة عسكرية جديدة ، أضف إلى هذا أنهم أعلنوا دوما أنهم أزالوا ملوك الطوائف لتتاح أمامهم الفرصة للجهاد ضد الأعداء ، وكان لسان حالهم دوما يقول : « إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، ونترك وراءنا الأعداء ، ممن يواسي علينا معهم » (٣٨) .

وكان العمل على إزالة ملك بني هود فيه خدمة للأعداء وضرر على المسلمين وأدرك المستعين بالله أبو جعفر أحمد بن هود هذا « فحصى بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخيف أمره ، ولم تدخل عليه بسبب ذلك داخله ، وكان مع ذلك يهادي أمير المسلمين ويكاتبه ، وقال له في مكاتبته :

نحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ، ومناعين

تطرف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منابها ، إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر... فأجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراد... فأقام ابن هود رضي البال ، يهدد النصاري بالمسلمين ، ويهدد المسلمين بالروم ، لكونه حائلا بينهم وبين بلاد الأفرنج والأرمنانيين (النورمانديين) وكان يتحلف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ، ورفيع الدنانير» (٣٩) .

على هذا تأخر إسقاط دولة بني هود ، ولم يقدم المرابطون على إخضاعها لأنه كان لديهم في الداخل ما يكفيهم من مشاكل ، فلقد سقط جل بلاد الأندلس سياسيا وعسكريا بيد المرابطين ، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوربا التي جاشت فيها بشدة روح الحروب الصليبية ، ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب ، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن سقوط المغرب الأقصى في أيدي الأندلسيين إداريا واجتماعيا واقتصاديا وحضاريا بشكل عام ، ولهذا كله « تركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم أخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو ، وشن الغارات ، ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم ، مع الاحسان إليهم ، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدو ، بعثوا بها إلى أهل الثغور » (٤٠) .

وبعد مضي عدة سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م بزيارة رابعة إلى الأندلس ، وبرفقته ولداه أبو طاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، الذي تولى الملك بعده ، وتجول في أقطار الأندلس وتفقد بقاعها ونظر في أحوالها فشبهها « بعقاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة » وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الأيسر بلاد الشرق » (٤١) .

وبعد هذا عاد يوسف إلى المغرب ليرتب شؤون الملك من بعده ، وذلك بعدما طعن بالسن وقارب المائة عام ، وفي سنة

٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م توفي يوسف بن تاشفين ، وحين توفي كان قد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر من عقد من الزمان ، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرن من الزمان ، وبعدما طبــــــــــــــــــــع تــــــــــــــــــــارــــــــــــــــــــيــــــــــــــــخ هــــــــــــــــــــذا القرن في المغرب والأندلس بطابعه الشخصي ، فعلى يديه جاءت شخصية المغرب الأقصى الى الوجود الفعلي ، وبتوحيده للأندلس وضمها للمغرب الأقصى أعطى هذه البلاد هوية مائتزال قسائمة حتى يومنا هذا ، قال عبد الواحد المراكشي يصف هذا الأمر: «وحيث ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ، ولم يختلف عليه شيء منها عُدَّ من جملة الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون اليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقمــــــــــــــــارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، وأعدل الأقاليم هواء وأصــــــــــــــــفها جوا ، وأعذبها ماء ، وأعطرها نباتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكرما مستعذبة وأصالا .

.....فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار «(٤٢) .

بعدما قدم يوسف بن تاشفين الى أرض المغرب الأقصى وحد البلاد وأزال منها الفساد والاضطراب ، وسعى الى محو الظلم والاستغلال ، وهذا أيضا ما فعله في الأندلس ، فلقد كانت أنظمة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمتع بأي رضى أو قناعة شعبية ، وكان شعب المغرب والأندلس ينادي بالخلع من الفرقة والذل والضرائب الثقيلة والمغارم ، أراد شعب الأندلس أن يحصل على شيء من الأمن وأن يسترد المسلم هناك كرامته ، وصحيح أن إزالة ملوك الطوائف تم بكثير من العنف ، ومرد هذا ليس لطبائع

المرابطين الاجتماعية ولأسويتهم العقائدية ونظرتهم الإسلامية إلى الأمور فقط ، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس بعدها درجة ، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف الشديد .

أما موقف الأندلسيين بعد أمد من حكامهم من بداية الصحراء فذلك موضوع اجتماعي حضاري ، ولا بد لكل تحول اجتماعي وحضاري وسياسي من ردات فعل ، المهم أن المرابطين تمتعوا أيام يوسف بن تاشفين بقسط كبير من الشعبية في الأندلس لأنهم « أظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيش بعد الجيش ، والخييل إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما هممة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لأعهد لهم بالدعة ، ولأعلم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفربه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٤٣) .

وطبعا لم يعش يوسف بن تاشفين ليحقق هذا الحلم الكبير ، ولم تتح الفرصة للمرابطين من بعده في استئناف النشاط الإسلامي في الشمال لأسباب كان منها طبيعة أهل الأندلس ، ثم قيام حركة الموحدين التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين ، فشعب الأندلس سلم القيادة للمرابطين بعدما عانى كثيرا من ملوك الطوائف ومن العدوان الخارجي ، فاستسلم بذلك للأمن المنفذ من قبل رجال الصحراء بكل خشونة وجفاف وقسوة ، لكن والحياة تتطور والأفكار

تتبدل ، ما أن استرد الأندلسيون أنفاسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية .

لا شأن في هذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين ، ومفيد أن نختم حديثنا عنه بما وصفه به مؤرخ أندلسي غرناطي من أهل القرن الثامن ، ثم بالانطباعات التي خلفها رؤية قبره على صاحب كتاب ازهار البساتين : قال صاحب الحلال الموشية تحت عنوان « سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » : « كان رجلا فاضلا ، خيرا ، ذكيا فطنا ، حاذقا بيبسا ، زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، يذيب إلى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم .

أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش ، وعلى احسن حال ، ولم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة العامر ، إلى حين دخوله إليها ، قدم أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما ربّتهم الصحراء ، ذيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل » (٤٤) .

وبعدما فرغ صاحب ازهار البساتين من زيارة أغمات قصد مدينة مراكش ، قال : « فدخلت في ذلك المساء نفسه لمراكش ، وهنا ذهب لزيارة قبر آخر ، فإذا رجعت من أغمات ومررت بباب أكنو تمر في طريق طوله ثلاثمائة متر ، تتبع في مشيك حائطا من الطين فتصل إلى باب الواحه غير متصلة ، وكلها مرقعة عليها سمة الفقر ، وتبصر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبنات متجمعة بغير فن مسح عليها بالجير الأبيض : هذا هو قبر يوسف ابن تاشفين مؤسس مراكش ، وقائد المجاهدين الملتزمين في فتح غرناطة وقرطبة .

وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهل الفضل بناء قبعة على ذلك القبر ، ولكن ذلك الدفين العظيم المتعود على الهواء الطلق ، والعيشة تحت الخيام كان في كل مرة يهدم ما يبنون على قبره ، لأنه لا يقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدى سقفا من غير الأوراق المتحركة . مات وسنه يفوق المائة ، وزاد ملكه على الخمسين سنة ، وخطب باسمه على منابر أفريقيا والأندلس ، أي على ألف منبر ، وتسعة منابر ، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طارق ، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان ، أي على مسافة ثلاثة أشهر طولا وعرضا ، وكان لا يكتفى إلا بأمر المسلمين « (٤٥) » .

الفصل الخامس

العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط

امتلك الوطن العربي شواطئ طويلة جدا على سواحل البحر المتوسط ، وأبحر العرب منذ أقدم العصور في داخل هذا البحر ، ووصلوا بين أطرافه ، فقد أبحر الفينيقيون بين سواحل الشام وسواحل المغرب وأسسوا المدن والمراسي والمحطات التجارية ومسألة تأسيس قرطاج معروفة وكذلك حروب قرطاج مع روما ، وقامت هذه الحروب من أجل السيطرة على البحر المتوسط ، وانطلقت شراراتها الأولى من صقلية.

وكان عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام يعرفون البحر المتوسط ويدركون مدى أهميته خاصة بالنسبة للتجارة ، فقد اعتاد أهل مكة على رحلتي الشتاء والصيف ، وأوصلتهم رحلاتهم التجارية أحيانا إلى سواحل الشام ، فهاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم توفي في غزة.

واهتم النبي صلى الله عليه وسلم ببلاد الشام ومصر ، وفي أيامه راسل عليه الصلاة والسلام هرقل وملوك الغساسنة ومقوقس مصر ، ووجه أكثر من حملة عسكرية ضد بلاد الشام وكانت آخر حملة جندوها بقيادة أسامة بن زيد صممت لترسل ضد بلاد الشام، وهذا ما كان بعد وفاته.

وفي أيام أبي بكر بعثت الجيوش لفتح بلاد الشام ، فور الفراغ من حروب الردة ، ورسمت خطة فتوح الشام على أساس اهتمام بشواطئ المتوسط أولا ثم بداخل البلاد ثانية ، فجيش يزيد بن أبي سفيان تكلف بالشواطئ الشمالية ، وجيش عمرو بن العاص تكلف

بالجنوب ثم بفتح مصر ، ومن ثم توبعت أعمال الفتوح حتى الأندلس فجنوب فرنسا وشواطئها المتوسطية.

وشرع العرب منذ العصر الراشدي بالاهتمام ببركوب البحر المتوسط والمرابطة على شواطئه ، ومن مزايا البحر المتوسط كثرة الجزر فيه ، وللاسيطرة على هذه الجزر فوائد جمة ، تتخذ قواعد للملاحة ومحطات للتجارة وللتزود بالمؤن ولأعمال عسكرية وسواها . ففي ولاية معاوية على الشام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرت المحاولات الأولى لركوب البحر المتوسط ، أوروبما لتصنيع أسطول عربي يدافع عن شواطئ الشام ومصر ويحول دون أية عمليات إنزال بيزنطية ، وفي أيام عثمان بن عفان ، أذن هذا الخليفة الراشدي لمعاوية سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ببركوب البحر لغزو جزيرة قبرص ، وبالفعل قاد معاوية أسطولاً تألف من عدة مئات من السفن بني بعضها في بلاد الشام وبعضها الآخر في مصر ، ووصل الأسطول قبرص ، وتمكن من فرض الصلح عليها دون قتال ، وتبعاً لشروط خاصة بأن يدفع القبارصة للمسلمين جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار ، وأن يندروا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وأن يقوم إمام المسلمين بتعيين البطريرك على قبرص ، وليس للمسلمين حق طلب النصر العسكرية من القبارصة ، وعليهم أن يسمحوا لهم بدفع مبلغ سبعة آلاف دينار سنوياً للامبراطورية البيزنطية ، وفي مرحلة تالية من حكم معاوية وضعت حامية عسكرية مسلمة في قبرص ظلت فيها حتى أيام يزيد بن معاوية (١) .

وفي أيام معاوية بعدما آلت إليه الخلافة ، استؤنفت حركة الفتوح العربية في الشمال الأفريقي ، وأمتلك العرب استراتيجية متوسطية ، استهدفت تحويل هذا البحر إلى بحيرة شامية ، وهكذا ربح العرب الحرب ضد الأساطيل البيزنطية في ذات الصواري ، ثم حاصروا القسطنطينية في محاولة لفتحها.

وفي أيام الوليد بن عبد الملك أكمل العرب فتح الشمال الأفريقي ثم فتحوا الأندلس فسيطروا على أحد منفذي البحر المتوسط ، وفي أيام

سليمان بن عبد الملك خليفة الوليد حوصرت القسطنطينية مجددا برا وبحرا لمدة سبع سنوات ، ولم يفلح العرب في الاستيلاء عليها .

وحكي الكثير عن نتائج هذا الاخفاق ، وأنه حمى أوربا النصرانية وحضارتها ، وتحدث أميل لودفيغ في كتابه البحر المتوسط عن هذه المسألة بقوله : « وإذا ما تركنا جانبا حروب الاسلام ضد فارس ومصر لعدم وجود علاقة مباشرة لهما بحياة البحر المتوسط ، وجدنا العرب يحاربون فريقين من الدول فيما بين القرنين السابع والتاسع ، يحاربون بيزنطة والجرمان ، وماتفق لسلطان ابناء الصحراء من سرعة نشوء في قوتهم البحرية يقضي بالعجب ، ومن قول محمد (صلى الله عليه وسلم) : « نصر فوق البحر يعدل عشرة انتصارات فوق البر » ومن الواقع ان العرب غلبوا اسطول بيزنطة عدة مرات ، فتقدموا حتى رودس وقبرص ، ووجدوا بيزنطة مفتوحة امامهم ، وهم لم يوقفوا إلا امام هذه المدينة نتيجة لمقاومة أسوار ثيودور ، وبفعل النار اليونانية ، التي اخترعت حديثا ، وكان حصار العرب لبيزنطة الذي دام سبع سنين أطول حصار تم في تلك الزاوية من العالم منذ عسكر اشيك أمام طروادة ، أي أطول من حصار صور وكورنثة وقرطاجة وسرقوسة ، ومع ذلك فإن بيزنطة قاومت ، فأنقذت أوربة كما يقال عادة ، ومن أي شيء أنقذت في العادة؟ لو صارت أوربة مسلمة منذ اثني عشر قرنا ما أصبحت أقل حضارة ولا أقل سعادة... وذلك إلى ان جميع البحر المتوسط كان يحيى بحركة ثقافية ، وما كانت منذ سنة تمران حتى كانت الامم المسنة قد تلقت من العرب علم الجبر والحساب العشري والرقاص ، واستعمال الآلات الفلكية والأدوية المخدرة ، وكما تعلمت منهم الصباغة والدباغة والوشى وصنع الزجاج والخزف والبسط والورق ، كما تعلمت منهم البستنة والري وزراعة الاثمار الجديدة ، وفي فن البناء اقتبست أوربة من العرب الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس ، والنقوش على هيئة النباتات والحيوانات وفن الترصيع ، ثم إن العرب فجروا الماء داخل البيوت وفي الساحات والحدائق وفي كل مكان » (٢) .

وكان العرب بعدما أسسوا مدينة القيروان في داخل إفريقية وتقدموا في فتوحاتهم عادوا نحو ساحل المتوسط حيث أعادوا تأسيس مدينة تونز في موقع قرطاج ، واتخذوا هناك دار صناعة ، وامتلكوا أساطيل خاصة بهم نشطت ضد الشواطئ الإيطالية وضد صقلية وغيرها من جزر المتوسط وكانت أهم النشاطات حسبما يلي :

— حملة سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م بناء على أوامر عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وقد قادها ابن رافع الهذلي ، وقدمت الحملة من مصر الى سوسة ، وكان والي إفريقية موسى بن نصير ، ومن سوسة توجهت ضد سردينية ، على الرغم من تحذيرات موسى بن نصير ، فقد كان الموسم خريفا ، ولهذا تدمرت السفن أثناء العودة نتيجة لتعرضها للعواصف ، وحاول موسى استرداد بعض السفن المدمرة.

— حملة سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها ابنه عبد الله ، وسميت غزوة الأشراف ، لكثرة الشخصيات العربية التي شاركت فيها ، وقد تكالفت هذه الحملة بنجاح كبير.

— حملة سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها عياش بن أخيل ، وسارت ضد سرقوسة.

— حملة سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م ، بعث بها موسى بن نصير ضد سردينية ، وقادها عبد الله بن مرة ، وقد عانت بأعداد كبيرة من الأسرى وكميات من الغنائم.

— حملة سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م بناء على أوامر موسى بن نصير توجهت أيضا ضد سردينية ، وقد غرقت في طريق العودة.

وتوقفت الحملات اعتبارا من هذا التاريخ ضد صقلية وسردينية ، لانشغال الأساطيل في عمليات فتح الأندلس.

— حملة سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م قادها محمد بن أوس الأنصاري ضد صقلية ، وعاد محملا بالغنائم الى إفريقية فوجد والي البلاد يزيد بن

أبي مسلم الأنصاري قد قتله حرسه ، فعرضت عليه أعمال الولاية
ريثما يعين الخليفة واليا جديدا.

— حملة سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م قادها والي إفريقية بشر بن صفوان
نفسه.

— حملة سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م وجهها والي إفريقية الجديد عبدة
ابن عبد الرحمن الأسلمي ضد صقلية فاصطدمت بالقوات البيزنطية
وهزمتها.

— حملة سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م وجهها والي نفسه ، شاركت بها
مائة وثمانون سفينة ضد صقلية ، لكنها تعرضت لكارثة بسبب
العواصف وقلة احتياط قاندها.

— حملة سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م وجهها والي نفسه ضد
صقلية ، وعانت مظفرة.

— حملة سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وجهها أيضا والي نفسه ضد
سردينية وكانت أيضا مظفرة.

— حملة سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م وجهها مجددا والي نفسه
واصطدمت مع القوات البيزنطية ففقدت عددا من السفن.

— حملة سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م وجهها والي إفريقية الجديد عبيد الله
ابن الحبحاب ضد صقلية فاصطدمت بالأسطول البيزنطي ونشبت
معركة غير حاسمة.

— حملة سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م وجهها عبيد الله بن الحبحاب ضد
سردينية

— حملة سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م وجهها والي نفسه واستهدفت
سردينية

— حملة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م وجهها والي نفسه واستهدفت
فتح صقلية ، وبعدما حققت بعض النجاحات استدعيت للعودة بسبب
ثورات الخوارج التي تفجرت

— حملة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م أمر بها عبد الرحمن بن حبيب
الفهري المتغلب على المغرب ، فتوجهت ضد صقلية ،

- حملتان سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م بعث بهما عبد الرحمن بن حبيب ضد كل من سردينية وصقلية ، وفي هذه الآونة سقطت دولة بني أمية (٣) ، وشهدت بلدان المغرب مرحلة تاريخية جديدة ، ولم تعرف البلاد الاستقرار حتى تأسيس دولة الأغالبة ، وفي عصر الأغالبة في القيروان ورقاد تمت عملية فتح صقلية ولم يقدر جيوش الفتح الى صقلية قائد عسكري بل قادها قاضي المسلمين اسد بن الفرات ، وهاكم الحكاية :

نقرأ في كتب الأخبار التي أتت على ذكر الامام اسد بن الفرات وفتح صقلية أنه في أحد أيام سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م تجمهر أهالي مدينة سوسة في تودس يتقدمهم أمير البلاد زيادة الله بن الأغلب ومعه أركان دولته ، تجمهروا قرب مرسى المدينة لوداع الامام اسد بن الفرات ، الذي كان متوجها على رأس اسطول كبير لفتح جزيرة صقلية .

وخاطب اسد المتجمهرين قائلا : « والله يامعشر المسلمين ماولي لي اب ولاجد ولاية قط ، ولا رأى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ماترون الا بالأقلام ، فأجهدوا أنفسكم ، واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شديته ، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة » . ودلالات هذه العبارات وان قيلت بمناسبة عسكرية ، هي غير عسكرية ، ومرد هذا الى طبيعة اختصاص قائلها ، فاسد بن الفرات كان قبل ان يكلف بقيادة حملة صقلية يشغل وظيفة قاضي المسلمين في افريقية ، وعد أول علماء الغرب الاسلامي وأكثرهم فقها ، والبحث في سيرة اسد بن الفرات وأعماله يقتضي لأهميته اثاره عدد من القضايا البالغة الخطورة ، ذلك انه على كثرة عدد العلماء والفاةحين في التاريخ الاسلامي ، يكاد اسد بن الفرات ان يكون وحيدا ، في تفرد به بالجمع بين الفقه والاجتهاد والقضاء ، والامارة ، وحياته على هذا مرتبطة وثيق الارتباط بتاريخ دولة الأغالبة في تودس ، وبمسألة انتشار فقه المالكية في الغرب الاسلامي ، وبالصراع للسيطرة على البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية .

وعلى الرغم من جلاله هذه الأمور ، وأهميتها القصوى ، فإن المصادر العربية شحيحة المعلومات حولها ، ومن المثير للدهشة أن مصنفات التاريخ الإسلامي العامة لم تتعرض بشكل يشفي الغليل لهذه الأحداث الجسام ، فقد اهتمت بشكل مكثف بأحداث الأقاليم المركزية لدار الخلافة ، ولم تحفل كثيرا بسرد تفاصيل أخبار ما جرى في الأقاليم النائية عن بغداد ، كإفريقية مثلاً ، حتى وإن وقعت هنالك أحداث على درجة عالية من الخطورة وعميق الأثر مثل فتح صقلية !

وهنا نفزع إلى كتب التاريخ المحلية مع مصنفات التراجم - إن وجدت - لنحصل منها على ما نحن بحاجة إليه من معلومات ، ومعلوم أن الغرب الإسلامي عرف حركات تساريخ نشطة ، وتدويناً غنياً نسبياً للأخبار ، ولكن المشكلة هنا أن هذه الحركة ولدت متأخرة عن وقت الحوادث المبكرة ، ثم إن عدداً من المدونات المبكرة مازالت محجوبة عنا ، لم تصلنا كاملة أو لم تصلنا بالكلية.

ولحسن الحظ أن كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي قد وصلنا كاملاً ، ومع أن صاحبه صنفه في مطلع القرن الثامن للهجرة (٧١٢ هـ) فإنه اعتمد بتفاصيله الهامة على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل إبراهيم الرقيق القيرواني وغيره ، ومعلومات ابن عذاري عن دولة الأغالبة في القيروان وفتح صقلية على درجة عالية من الأهمية والفائدة ، ومثل ابن عذاري يأتي بعده ابن خلدون ، فالذي أودعه في مقدمته ومتن كتابه العبر عن الغرب الإسلامي عظيم الفائدة ، بسبب اطلاعه الواسع على مؤلفات مؤرخي المغرب والأندلس الذين تقدموا على عصره ، ثم بسبب اشتغاله بالسياسة وتقلبه في عدد من الوظائف ونظراً لرحلاته الواسعة .

وقد قام في القرن الماضي العالم الإيطالي ميكائيل عماري بنشر (سنة ١٨٥٨) كتابه الحافل «المكتبة العربية الصقلية» وفيه جمع أغلب ما تناثر في كتب العرب من أخبار عن صقلية والصقليين أيام دولة المسلمين ، وألف كتاباً آخر بالإيطالية بعنوان «تاريخ العرب

بصقلية» جاء في خمسة أجزاء ضخمة ، ومن بين العرب يأتي المؤرخ الجزائري الاستاذ أحمد توفيق المدني على رأس الذين كتبوا عن صقلية وخاصة كتابه «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا» ثم الدكتور احسان عباس الذي كتب أطروحة عن صقلية اهتم بها بالجوانب الأدبية والحياة الثقافية للعرب فيها ، وجاء بعدهما عزيز أحمد فكتب تاريخ صقلية الاسلامية « هذا وأولت بعض الدراسات حول الدولة الأغلبية مثل كتاب محمد الطالبي موضوع صقلية اهدية خاصة .

ولدت الخلافة العباسية ولادة خراسانية مشرقية ، وقد ظلت هذه الخلافة طيلة حياتها غارقة في بؤرة مشاكل المشرق ، ولذلك يلاحظ ان اهتمام هذه الخلافة بالفتح الغربى من ديار الخلافة كان من الدرجة الثانية ، كما انها عجزت منذ أيام ولادتها عن مد سيطرتها عليه جميعا ، يضاف الى هذا كانت الدولة العباسية دولة قارية نادرا ما اهتمت بالبحر المتوسط أو فكرت ببناء أساطيل للنشاط فيه .

وفي العصر العباسي المبكر أرسلت بغداد عدة حملات نحو الشمال الأفريقي ، وقامت بمحاولات متعددة للحيلولة دون استقلال جميع بلدانه ، ولكنها أخفقت ونجح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس حكمه في الأندلس ، كما نجح عبد الرحمن بن رستم في إقامة إمارة تيهرت الاباضية (في عمالة وهران جزائر اليوم) ونجح بنو مدرار الصفرية في تأسيس امارتهم في سجلماسة على طرف الصحراء ، ونال آل سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب التوفيق في تأسيس دويلة لهم في منطقة تلمسان ، وتمكن ادريس أخو سليمان من تأسيس دولته في المغرب الأقصى ، وكانت هناك من قبل دولة برغواطة على الساحل المغربي في بلاد تامسنا

وادراكا من بغداد لهذا كله وخشية ان تمتد الحركات الاستقلالية الى بلدان المغرب الأدنى ومصر ساعدت على قيام دولة الأغالبة وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ولقد حازت دولة الأغالبة على

استقلالها ، لكنها لم تقطع قط وشأنها بالولاء للخلافة العباسية ، ولم تنعم دولة الأغالبة بصداقة أي من دول الشمال الأفريقي ، وكان نفوذها الفعلي على القبائل البربرية في الداخل غير قائم عمليا ، ثم انها لم تنعم بالاستقرار الداخلي الا بشكل نسبي ، فقد عانت دوما من الاضطرابات الداخلية والاضغوط الخارجية ، وحفل تاريخها بفتن الجند ، وهكذا عندما وجدت نفسها محاصرة من الداخل انشبت نحو سواحل البحر المتوسط ، وتورعت في صراعاته السياسية والتجارية .

وكما سلفت الإشارة شغل البحر المتوسط منذ فجر التاريخ دور القلب النابض بالنسبة للحضارات ، فعلى شواطئه قامت ثم تطورت الديانات السماوية والفلسفات ، ومن بلدانه انتشرت الى بقية اجزاء العالم ، وكان هناك صراع دائم بين القوى المختلفة حوله للتحكم بشؤون الملاحة فيه والسيطرة عليه وتحصيل الثروة .

ورأينا انه بعد قيام الاسلام ، ومع انتشاره في المشرق والمغرب باتت أوروبا محاصرة من قبل العرب ، وخاصة أوروبا الغربية ، ونطاق الحصار الذي فرضه العرب كان جديدا كليا : لغويا وقانونيا وحضاريا ودينيا ، مما أدى الى تغيير جذري للنظم الاقتصادية والقانونية والحضارية العامة والدينية في أراضي روما الغربية ، ذلك ان جميع الطرق لم تعد تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ، وتعطلت سياسة استيراد القمح وسواه الى أوروبا ، فوجدت أوروبا الغربية نفسها مضطرة الى الاعتماد على الذات بالإنتاج المحلي ، ومن ثم اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، وإزالة الغابات لزراعة الحبوب مكان الأشجار ، وهكذا قيل انتهت فعليا العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت العصور الوسطى ، فحلت اللهجات ذات الجذور الجرمانية محل اللغة اللاتينية ، وأخذت النظم الاقطاعية بالظهور ، وهذا موضوع سنعود اليه في الجزء الثالث المقبل من كتاب المدخل .

ولم يقتصر عمل العرب في سبيل السيطرة على المتوسط بالاعتماد

على الأساطيل بل اهتموا بتحصين شواطئ بلادهم ، فأقاموا المواقع الدفاعية ، ومنائر الانذار ، وبعد سقوط الخلافة الأموية وحلول الخلافة العباسية محلها ، ولعدم اهتمام هذه الدولة القارية بالبحر والسفن ضعفت السيطرة العربية على شواطئ المتوسط ، وزاد الاعتماد على أنظمة الدفاع ، مما أدى الى تطور كبير في قواعد هذا النظام ، وأخذت أعداد كبيرة من العلماء والزهاد بالالتجاء الى مواقع الدفاع والمرابطة فيها ، وهكذا بدأت مواقع الدفاع هذه تعرف باسم الرباطات - جمع رباط - ومع الأيام أخذت الرباطات تؤدي وظائف دينية ثقافية ، وذلك بالإضافة الى مقاصدها الحربية ، وصارت الرباطات مراكز للعلم أقبل عليها الطلاب ، وحات المكتبات ، وشغل رجالها أنفسهم بالتعليم والتثقيف والنسخ وغير ذلك ، ونجم عن هذا تأثير مزدوج داخلي وخارجي ، بحيث صار بإمكان أصحاب الرباطات التأثير بالرأي العام ، وفي رسم السياسة العامة واتخاذ القرارات الهامة (٤) .

ولقد كان لنظام الرباطات دوره الأهم على شواطئ الشمال الأفريقي ، خاصة في أرجاء سواحل دولة الأغالبة ، ولقد ازدهر هذا النظام بشكل رائع ومعطاء خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة ، ومازالت شواطئ تونس تحوي آثار عدد من الرباطات مثل رباط المنستير وسواه .

واهتمت دولة الأغالبة بتأمين موارد اقتصادية كافية ، وملك جيشها الخاص ، ورعت الحركات الثقافية في القيروان ، واعتنت بالعلم والعلماء ، وقلدت السياسة الدينية للخلافة العباسية في المركز ، وكانت حركة المواصلات بين بلدان المغرب والمشرق نشطة جدا ، حيث تدفق التجار والحجاج وطلاب العلم من الشمال الأفريقي على بلدان المشرق ، وكان لهذا أعظم الآثار على مستقبل الغرب الاسلامي وأفريقيا وحتى على أوروبا .

وحيثما يعرض المرء تاريخ قيام الاسلام يلاحظ أن موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الاسلام مع وجود الكعبة فيها

دفعها نحو تزعم عالم شبه جزيرة العرب ، ثم هياها لتكون مركز قيام الاسلام ، ومرة ثانية بعد قيام الاسلام وانتشاره في الشمال الافريقي والاندلس ، وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق أن المدينة المنورة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق

وهكذا نال القادمون للتعليم والتفقه دروسهم الاسلامية الأولى في المدينة ، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعروف أن المدينة كانت عاصمة الاسلام الأولى ، فيها عاش كبار الصحابة ، وفيها تأصلت معارف الشريعة الاسلامية ، وفي المدينة نشطت الأعمال الفكرية في القرن الأول للهجرة ، وأثمرت في القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة في الفقه على يد الامام مالك ابن أنس ، وحين جاءت هذه المدرسة الى الوجود ، كانت مدرسة أخرى كبيرة قد قامت بالكوفة في العراق على يد الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت .

ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية كان لها سياسة دينية خاصة ، فأبو جعفر المنصور ، وهو المؤسس الفعلي للخلافة العباسية ، أدرك بفكره المخطط مكانة الاداة الدينية في خدمة المقاصد السياسية والمصالح الاستراتيجية للدولة ، لذلك اهتم بالدين وبرجاله ، يضاف الى هذا ان عالم القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد) قد عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وهذا ما نراه في الامبراطورية البيزنطية في حركة عبادة الصور ، وفي حياة شارلمان وتأسيسه للامبراطورية الكارلونية في الغرب الأوروبي وعلاقته بالبابوية.

وطبيعي أن نجد لدى العباسيين الاهتمام بالدين ، فهم قد وصلوا الى السلطة بوساطة ثورة انطلقت من مفاهيم الاسلام القائمة على المزج بين العمل الديني والديني ، واختلف حالهم عن بني أمية ،

فمعاوية نال الخلافة اغتصاباً بقوة السلاح ، بينما نالوها عن طريق شرعية الثورة وحق الوراثة .

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون على مدرسة العراق الفقهية التي أسسها أبو حنيفة ، وفي الغرب الاسلامي ، خاصة في الأندلس والدول المستقلة ، وجد الأمراء والحكام أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين ، أو لنقل إن الحكم الذي تم نيله - هنا وهناك - بالاعتماد على الصراع بين العصبيات القبلية وسواها وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين القوى القبلية ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعاً إن هذا العمل أمر لا بد منه في أية دولة اسلامية وخاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام ، ولا بد من القول هنا إن الدين بكل تأكيد لم يكن قط أفيون الشعوب ، فالأفيون يخطر ، بل كان محركاً للشعوب ، وكان بلا شك أخطر الأدوات الاستراتيجية في التاريخ وما زال كذلك

وفرضت ظروف المواجهة في الغرب الاسلامي التشدد والتعصب والتظاهر بالمثالية ، ومثالية الاسلام كانت تؤخذ من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم لامن كوفة أبي حنيفة ، وتلميذ المدينة ظهيره أعلى وأمتن من ظهير تلميذ الكوفة ، يضاف إلى هذا إن تبني الخلفاء العباسيين لفقه أهل العراق قد جعل القائمين على مدرسة المدينة يفتشون على مناطق نفوذ لهم ، ويمكن أن نجد شواهد على هذا في حياة الامام مالك بن أنس ، فهو قد أظهر أكثر من مرة المعارضة للسلطة العباسية والتحريض لأمراء من الغرب الاسلامي . من هذا كله نخلص إلى القول بأن العالم الاسلامي عاش بعد قيام الثورة العباسية مباشرة وطوال سنين عديدة في القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع ، وهما مدرسة المدينة ، ومدرسة الكوفة (أو العراق) ومن الملاحظ أنه بعد وقت ليس بالطويل بذلت محاولات لدمج المدرستين في مدرسة جديدة واحدة .

واستهدفت عملية المزج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين بشكل

منطقي مؤصل ، وهذا ما نشهده في سيرة كل من الامامين الشافعي واسد بن الفرات ، وكما هو مشهور نجح الامام الشافعي في عمله ، وأخفق - كما سنرى - اسد بن الفرات ، لأن الشافعي نجا من ظلمة الوظيفة ، ولم يعيش في دياجير الولاية إلا لوقت قصير ، وهكذا أوقف حياته على العلم ، أما ابن الفرات فإنه في الوقت الذي كان عليه فيه العطاء تولى وظيفة القضاء أولا ، ثم جمع إلى القضاء إمارة الجيش الذي توجه إلى صقلية لفتحها ، وقد توفي أثناء تأدية هذه المهمة ، فهل ياترى جاء تعيينه في وظائفه بناء على خطة مسبقة ، أم أن ذلك جاء بالصدفة ؟

وفي سبيل الحصول على الاجابة لنبدأ أولا بالتعرف إلى سيرة حياة الامام اسد بن الفرات : ولد الامام اسد في مدينة حران الشامية ، التي كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد اتخذها مقرا له ، وحدثت ولادته كما هو مرجح سنة اثنتين وأربعين ومائة للهجرة (٧٥٩ م) وكان والده جنديا من جنود العباسيين أصله من خراسان ، وقد ترك هذا الجندي مدينة حران إلى إفريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الإباضية الذين كانوا مسيطرين آنذ على أجزاء كبيرة من المغربين الأدنى والأوسط ، ودخل اسد بن الفرات مدينة القيروان وله من العمر عامين ، وقد أقام فيها مع أسرته خمس سنوات ، ثم تحولت أسرته إلى مدينة تونس ، فأقامت بها نحو تسع سنين ، وخلال هذه السنين تعلم القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس ، وفي مطلع سن الشباب يمم اسد وجهه نحو المشرق ، فحل بالمدينة المنورة ، والتحق بحلقة الامام مالك بن أنس ، فأخذ عنه علوم أهل الحجاز ، وروى عنه كتاب الموطأ ، وكان ابن الفرات كثير السؤال ، شديد الالتحاح يلتمهم العلم التهاما ، ويود لو أن الامام مالكا أوقف وقته كله عليه ، ولما تعذر هذا نصحه الامام مالك بالذهاب إلى العراق للالتحاق بالامام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب الامام أبي حنيفة وخليفته .

وبالفعل توجه ابن الفرات نحو العراق ، والتحق بالامام محمد بن

الحسن ، وأكمل على يديه تحصيله لعلوم الامام مالك بحكم أنه كان من تلاميذه السالفين ، كما أخذ عنه علوم مدرسة أهل العراق ، ومكث ابن الفرات في العراق مدة لا بأس بها ، ولقد أولى الامام الشيباني ابن الفرات عظيم عنايته ، فقد عرف فقره ، لذلك أسكنه معه في دار واحدة ، وقام بتأمين نفقته ، وخصه بمجالس للتدريس خاصة ، وتحدث ابن الفرات عن علاقته بالامام الشيباني ووصف حاله معه بأنه قال له : «إنني غريب ، قليل النفقة ، والسمع منك نزر ، والطلب عندك كثير ، فما حيلتي ؟ فقال لي : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي وأسمعك ، قال ابن الفرات : فكنيت أبيت عنده ، وكنت في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل إلي ويجعل بين يدي قدحا فيه ماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ورأني نعست ، ملا بيده منه ونفخ به في وجهي فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه . »

لقد زق الامام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقا ، ورعاه طوال إقامته في العراق ، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله ، وكان الامام مالك ابن انس قد توفي ، أخذ ابن الفرات الطريق نحو المغرب ، فحط رحاله في مصر ، والتحق بالامام عبد الرحمن بن القاسم ، أحد كبار تلاميذ الامام مالك ورواة علمه القدماء ، ولأزمه ابن الفرات « فكان يغدو إليه كل يوم ويسأله ويجيبه ابن القاسم ، حتى دون ستين كتابا وسماتها الأسدية » وقد حوت هذه المدونة الأسدية رأي مدرسة أهل المدينة حول جميع المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق .

وعاد ابن الفرات إلى القيروان يحمل معه علوم مدارس الاسلام ، ويروى أنه « لما عزم على الرحيل من مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة وقال له : إذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقا ، وانسخ الكتب » ، ولما حل أسد بن الفرات في القيروان ، أظهر ما كان لديه من أسديته وأسمعها الناس ، وانتشرت العلوم التي حملها أسد إلى القيروان ، وانتشر معها صيت أسد بن الفرات ، وزاعت

شهرته ، ولعل أهم الذين سمعوا الأسدية منه هو الامام سحنون ، فبعدما مضى أسد بن الفرات إلى صقلية قسام الامام سحنون باستخراج مواد مدونته من أسدية ابن الفرات ، ومعروف أن مدونة الامام سحنون هي أعظم كتب المالكية في الغرب ، وأنه إلى الامام سحنون يعود الفضل في توطيد أقدام المالكية في الشمال الأفريقي ، فبعدما تغيب أسد بن الفرات غدا الامام سحنون أعظم علماء إفريقية مكانة ، وأكثرهم نفوذا وشعبية وشهرة .

وأثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقهاء جديدة قوامها مبادئ مدرستي العراق والحجاز ، لكن النجاح لم يتحقق له لأسباب منها أنه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته ، فقد كلف سنة أربع ومائتين (٨١٩ م) بمهمة القضاء من قبل الأمير زيادة الله بن الأغلب ، ثم إنه في هذه الفترة وسنوات عدة مقبلة عانت إمارة الأغالبة من اضطرابات للجند كادت أن تؤدي بالحكم الأغلبي ، ونجا ابن الفرات خلال سنوات الفتنة من التورط فيها ، وكان دائما مع ما تمليه عليه الشريعة لا أهواء القوى المتصارعة ، وعندما قضي على اضطرابات الجند رأت الإدارة الأغلبية أنه من الأسلم للمستقبل إشغال الجند بنشاط حربي خارجي ، وفي هذا نرى إحدى خلفيات الحملة ضد صقلية (٥).

شكلت جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي مكانا استراتيجيا هاما ، وحصنا مديعا وسط البحر هيمن على حركة الملاحة بين شرقي البحر المتوسط وغربيه ، كما كانت بمثابة جسر انتقلت عبره الحضارات ، وعنت السيطرة على صقلية دائما القدرة على مراقبة كل السواحل الأفريقية والإيطالية ، كل هذا بالإضافة لما تنعم به صقلية ذاتها من ثروات ، وماتدره أراضيها من خيرات ، وصقلية كانت دائما موضع صراع بين قوى إيطاليا وأفريقيا .

لقد رغب العرب دوما في فتح صقلية وانتزاعها من الامبراطورية البيزنطية ، وتحين الأغالبة فرصهم لفتحها عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، وساعدهم على الشروع في قهر أراضيها ما وصلت اليه أحوالها

انذاك من اضطراب وتدهور وفساد ، ذلك أن الولاة البيزنطيين كانوا قد أسرفوا في استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان ، لذلك أجذبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون ، واشتغلوا بالرعي ، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة ، لذلك انهارت الأحوال عامة ، واضطربت أمور المجتمع بسبب ماعائدات بيزنطة عليه من نفي المجرمين والخارجين على القانون اليها من جموع المنبوزين وأعداد كبيرة من العبيد ، وكانت أحوال الكنيسة سيئة ، ومكانتها متداعية لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالها والقائمين عليها الى مبايعة الدنيوية .

ولاشك أن هذه الأحوال قد شجعت الأغلبية على التخطيط لفتح صقلية ، حيث يتحدث المؤرخون عن انفجار العديد من الاضطرابات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة ، وكان أهمها حركة أوفيماس (فيمي في المصادر العربية) فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل « أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه قسطنطين سنة احدى عشرة ومائتين ، فلما وصل اليها استعمل على جيش الاسطول انسانا روميا اسمه فيمي ، كان حازما شجاعا ، فغزا افريقية ، وأخذ من سواحلها تجارا ونهب ، وبقي هناك مديدة ، ثم إن ملك الروم كتب الى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الاسطول وتعذيبه ، فبلغ الخبر الى فيمي ، فأعلم أصحابه فغضبوا له ، وأعانوه على المخالفة ، فسار في مراكبه الى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة ، فسار اليه قسطنطين ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين الى مدينة قطنانية ، فسير اليه فيمي جيشا فهرب منهم فأخذ وقتل ، وخطب فيمي بالملك ، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلالطة ، فخالف على فيمي وعصى ، واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل - وهو والي مدينة بلرم - وجمعا عسكريا كثيرا فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلالطة على مدينة سرقوسة ، وركب فيمي ومن معه في مراكبهم الى افريقية ، وأرسل الى الأمير زيادة الله يستنجده ويعدده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشا في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين » (٦)

في الحقيقة كان بلاطة قد راسل الأمير زيادة الله ، بعد التجاء فيمي اليه ، وعرض عليه طلبا فيه عدم مساعدة فيمي والوقوف على الحياد ، ولم يعلن زيادة الله عن قراره في الوقوف الى جانب واحد من الطرفين ، فهو بالأصل كان يريد الاستيلاء على الجزيرة ، والآن تهيأت الفرصة ، لكن الحملة تحتاج الى نفقات كبيرة ، واعداد للراي العام في دولته ، ولم يكن يطمع بالحصول على مساعدات من الخلافة العباسية ، مع أن هذه الخلافة كانت الآن في ظل حكم المأمون نشطة عسكريا في منطقة الثغور مع بيزنطة ، ولذلك التفت الأمير زيادة الله نحو الفقهاء ، وعلماء الدين ، فعن طريقهم كان من الممكن اعلان الجهاد ، وتجنيد العساكر ، وجمع الأموال اللازمة ، لهذا عقد مجلسا لبحث مسألة صقلية والصراع فيها ، وحضر المجلس الى جانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي الامام اسد بن الفرات ، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقات الاسلامية الصقلية ، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المسلمين والبيزنطيين قديمة ، ينبغي التمسك بها ، وقام الامام اسد بن الفرات برفض هذا الموقف وافتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة ، لأن الجانب البيزنطي خرقها أكثر من مرة ، ولم يتمسك بشروطها ، وأنه من واجبات الأمير اعلان الجهاد ، ونفذ الأمير الأغلب قرار قاضي المسلمين ، فأعد اسطولا كبيرا من سبعين سفينة ، شحنها بعشرة آلاف مقاتل من الرجالة ، وسبعمئة من الفرسان ، وببراعة متناهية وفهم سياسي عميق أسندت قيادة هذه الحملة الى القاضي اسد بن الفرات ، فاجتمعت له بذلك الامارة والادارة والقضاء في آن واحد .

وفي ربيع شهر ربيع الأول من عام ٢١٢ هـ / حزيران ٨٢٧ م أقلعت الحملة العربية من ميناء سوسة تريد جزيرة صقلية ، وتوقفت أولا أمام مدينة مازر ، وهناك التقت بالاسطول البيزنطي للجزيرة فسحقته ، ودخل المسلمون الجزيرة ، وأخذوا يحتلون مواقعها الواحد تلو الآخر ، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقوسة برا وبحرا ، بعدما ما أتاه المدد من القيروان ، ومن المفيد هنا ملاحظته أن

قاضي افريقية رفض حين توجه لغزو صقلية ان يصطحب فيمي
واعوانه

واثناء حصار سرقوسة وصل اسطول بيزنطي كبير لفك الحصار
عنها ، وامده اسطول من البندقية ، وبسبب ذلك ولتأخر النجدة من
القيروان ، أصيب جيش الأغالبة بانتكاسة ، لكن على الرغم من ذلك
لم يتوقف عن متابعة الجهاد ، ثم أصيب بانتكاسة ثانية ، حيث
انتشر الطاعون بين صفوفه ، واثناء هذا مات اسد بن الفرات قائد
الحملة ، وكان ذلك سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٩ م (٧)

لقد استغرقت أعمال فتح صقلية أكثر من سبعين سنة خاض
العرب خلالها ملاحم رائعة حتى خلاصت الجزيرة لهم ، واخفقت
جميع جهود الامبراطورية البيزنطية في الحفاظ عليها ، وقبل الحديث
عن مراحل الفتح ثم تاريخ الجزيرة ومحاولات التوسع من هناك في
ايطاليا مفيد ان نقدم وصفا موجزا لجغرافية هذه الجزيرة.

قام عماري في كتابة " المكتبة الصقلية " بجمع ما جاء في المكتبة
العربية عن جغرافية صقلية في قرابة ١٦٠ صفحة ، ومن هذه
المواد :

قول ابن حوقل : « وأما صقلية فجزيرة طولها سبعة ايام في اربعة
ايام ، والغالب عليها الجبال والقلع والحصون ، وليس لها مدينة
مسكنة ، معروفة غير المدينة المعروفة ببلم ، وهي قصبة صقلية على
نحر البحر من الشمال ، ... عليها سور من حجارة مانع شامخ ،
يسكنها التجار ، وفيها المسجد الجامع »

وتحدث الشريف الادريسي عن صقلية باسهاب ، ومن ذلك قوله : «
جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا
ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الأقطار ، والمترددون
بين المدن والأحصار ، وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها ،
وأعجبوا بزاهر حسننها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعت من
متفرق المحاسن ، وضمته من خيرات سائر المواطن ... »

فأما صقلية المقدم ذكرها ، فأقذارها خطيرة ، وأعمالها كبيرة ،
وبلاؤها كثيرة ، ومحاسنها جملة ، ومناقبها ضخمة ، فإن نحن
حاولنا احصاء فضائلها عددا وذكرنا أحوالها بلدا بلدا ، عز في ذلك
المطلب ، وضاق فيه المسلك ، لكننا نورد منها جملا يستدل بها ،
ويحصل على الغرض في المقصود فيها إن شاء الله تعالى . فنقول :
إن هذه الجزيرة .. مائة بلد وثلاثون بلدا بين مدينة وقلعة ، غير ما بها
من الضياع والمنازل والبقاع» (٨)

ووصف أبو حامد الغرناطي جزيرة صقلية وقد لفت انتباهه
بركانها المشهور فقال : « وفي بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية فيها
جبل قريب من البحر تخرج منه نار تضيء بالليل الى عشرة فراسخ
... لا يحتاج معها أحد في تلك المواضع الى ضوء ولا الى سراج في
طريق ، ولا في قرية لكثرة ذلك الضوء ، ويخرج من تلك النار جمر
كبار كأعدال القطن يتقطع ، فيقع بعضها في البر فيصير حجرا أبيض
خفيفا يطفو على الماء لخفته ، والذي يقع في البحر يصير حجرا أسود
مثقبا تحك به الأرجل في الحمام ، يطفو على الماء أيضا ، وإن وقع
جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر ، واشتعل كما
يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غبارا كالكل» (٩).

ومن أشهر مدن صقلية :

بارم : هي من أهم مدن الجزيرة قديما وحديثا ، جميلة الموقع والمنظر
معتدلة المناخ ، مياهها متدفقة ، وهي فينيقية التأسيس ، اتخذها
العرب حاضرة لحكمهم في صقلية ، وغدت مركزا حضاريا هاما
خاصة في ظل الكلابيين في العصر الفاطمي ، وماتزال بعض مواقعها
تحمل الطابع العربي الاسلامي من ذلك :

قصر الفواره - ويقع فوق جزيرة تحيط به بركة صناعية من جهاته
الثلاث ، وقد بني أيام حكم الأسرة الكلبية ، واتخذها فيما بعد الملوك
النورمانديين مكانا للهوهم وخلعاتهم ، وماتزال خرائطه ماثلة حتى
الآن ، ونضيف الى هذا القصر قصر العزيز ثم قصر القبة والقصر
الملكي ، وهو آية من آيات الفن والجمال ، كان مقر الدولة والأمراء

العرب ، وفي ضواحي بلرم العديد من الأبنية العربية والآثار الهامة .
مسينا: وهي أيضا مدينة جميلة الموقع ، وذات أهمية عالية ، لها
ميناء واسع النشاط . أتى زلزال في مطلع هذا القرن على مبانيها
وسكانها .

ترميني: هي مدينة تكاد أن تكون اسلامية خالصة بحاراتها وأزقتها
ودورها ، وطرائق العيش فيها ، وهي نشطة الحياة فيها الكثير من
الحمائم الحارة .

مازره: وكانت مدينة اسلامية حافلة الشهرة والنشاط ، ماتزال
تحتوي على بعض المؤثرات الاسلامية .

مرسى علي: وكانت هذه المدينة من أكثر الموانئ نشاطا وحركة ،
لأنها ربطت صقلية بافريقية .

اطرابنش: من مشاهير المدن أيام المسلمين بها مرسى على شكل
هلال كان نشطا وله علاقات مع افريقية .

طبرمين: وكانت أهم المعامل البيزنطية ، قاومت العرب طويلا ،
وبعدما افتتحوها دكوها دكا ، وعلى مقربة منها قرية القنطرة
العربية ثم قرية الزعفرانة ، وماتزال لأن تحتفظان بهذين الاسمين .
سرقوسة: وكانت قبل الفتح العربي أشهر مدن صقلية ، تعرضت
دوما لغاراتهم ، وهي مدينة ذات جمال رائع وبهاء وجلال .

نوطس: كانت أيام المسلمين مركز ولاية ، وذات أهمية عالية وظلت
هكذا حتى القرن السابع عشر (١٦)

وسارت عمليات فتح صقلية في البداية بنجاح كبير ، فبعد ثلاثة
أيام من الاقلاع من سوسة وصلت القوات العربية الى مرسى مازره ،
وبذلك قطعت في كل يوم مسافة مائة كليومتر ، ونزل العرب في مازره
وفتحوها ، ذلك أنهم لم يجدوا من يدافع عنها ، وهكذا أتيج لهم
انزال معداتهم ومأحملوه معهم .

في هذا الوقت بلغت الأخبار بلاطة فحذف نحوهم على رأس قوات
عملقة ، قيل بلغت عشرة أضعاف القوات العربية ، وأعلن بلاطة أنه
سيقذف بالعرب الى البحر ، وتصدى له العرب واعترضوا سبيله

خارج مازرة ، وتقدم أسد بن الفرات على رأس القوات العربية وبيده اللواء ، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم ، وشجع جنده ورفع من معنوياتهم ، وحمل المسلمون معه بصدق وعزيمة ، فهزموا عدوهم هزيمة ساحقة .

وفرت فلول قوات بلاطة نحو سرقوسة ، ولاحقها المسلمون بدون تمهل وبذلك استولوا على جنوب صقلية ، ووقفوا أمام أسوار هذه المدينة ، وأخفق المسلمون في اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وطال الحصار وقلت المؤن لدى المسلمين ، وطالب بعض الجند أسد بن الفرات بالعودة الى تونس ، فأدبهم ، وتابع الحصار ، وأخذت المؤن والمساعدات تصل الى داخل سرقوسة وكذلك وصلت بعض المساعدات الى العرب ، واستمر أسد بن الفرات يناضل حتى أجده القتال فتوفي شهيدا ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .

واختار المسلمون أميرا جديدا اسمه محمد بن أبي الجواري ، وكانت معنوياتهم قد تدنت فاتخذ الأمير الجديد قرارا بالانسحاب وإخلاء الجزيرة والعودة الى إفريقية ، وفيما هم منسحبين واجههم أسطول كبير قدم من القسطنطينية نجدة لسرقوسة ، وسد الأسطول البيزنطي الطريق أمام المسلمين ، فعادوا مضطرين الى الجزيرة ، وعزموا على الجهاد والصبر حتى الشهادة ، ووصلت في ساعات الشدة هذه بعض الامدادات من إفريقية ، والأهم انه وصل الى الجزيرة أسطول أندلسي قوي بقيادة أصبغ بن وكيل الذي اشتهر باسم « ابن فرغلوش » .

واتفق المسلمون معا على متابعة الجهاد في الجزيرة وصد الروم عنها ، على أن تكون الامارة عند تحقيق النصر لابن فرغلوش ، وحقق العرب عدة انتصارات وتوجهوا الآن لفتح مدينة قصر يانة ، فحاصروها ، وفي سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م حل الوباء بين صفوف المسلمين فمات بسببه ابن فرغلوش ، ثم مات محمد بن أبي الجواري ، فولى المسلمون أمورهم أميرا جديدا اسمه عثمان بن قهررب .

في هذه الأثناء انسحب الأندلسيون الى بلادهم فبأمر زيادة الله ابن الأغلب بارسل جيش جديد الى صقلية قوامه ثلاثين ألفا بقيادة أمير عرف باسم زهير بن عوف ، فاشتد ساعد المسلمين واستؤنفت حركة الفتوح ، وسار العرب من نصر الى نصر .

وتوجه العرب الآن ضد مدينة بلرم ، وقاومهم الروم من داخلها مقاومة شديدة ، وحدث أثناء الحصار أن تمكنت قوة عربية سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م من فتح مدينة مسينا ، مما كان له أكبر الآثار على الوضع في بلرم ، وهكذا في سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م تفاوض الروم مع العرب على أن يسلموهم بلرم شريطة السماح لهم بالانسحاب بحرا الى القسطنطينية ، وهذا ماكان واتخذ العرب بلرم عاصمة لهم في الجزيرة ومنها أخذوا يتابعون أعمال الفتح .

وبات الروم الآن والقوات المسيحية محصورين في مثلث من صقلية يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربي من مسينا الى قصر يانة ثم يرجع من قصر يانة نحو الجنوب الشرقي الى مدينة نوتو ، وحاول المسلمون خرق هذا المثلث أولا باحتلال قصر يانة فأخفقوا ، ثم باحتلال سرقوسة فأخفقوا أيضا ، وفي سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م توفي الأمير زهير بن عوف ، فولى أمر الجزيرة أغلبي هو أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب .

رأى الأمير الجديد أن وضع المسلمين وقواهم في نمو مضطرد ، لكن المساعدات البيزنطية لم تنقطع عن الجزيرة فقرّر عزلها بحريا ، وحقق الاسطول العربي نجاحات واسعة حيث دمر السفائن البيزنطية واستولى على بعض منها ونشر الرعب في قلوب جميع الأعداء .

وتمكن المسلمون سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م من احتلال جزء من قصر يانة ثم انسحبوا منها ، وفي هذه الأونة وزع العرب نشاطاتهم بين اكمال فتح صقلية وفتح الجنوب الايطالي ، وبالفعل تدخل العرب في ايطاليا أولا لصالح مملكة نابولي واستطاعوا احتلال أجزاء واسعة من ايطاليا واستولوا على مدينة باري الساحلية ، ووصلت

قواتهم الى ارباض روما لاحتلالها ، لكن نشوب بعض الخلافات الداخلية بين صفوفهم ردتهم .

ومنذ سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م غدت مدينة باري مقرا لامارة عربية مستقلة تحكم الجنوب الايطالي ، واليه نقلت المعارف العربية والفنون على اختلاف ألوانها ، وهكذا عبرت الحضارة العربية عبر صقلية والجنوب الايطالي الى داخل أوروبا مما سيكون له فيما بعد ابعاد الآثار وأهمها.

وفي سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م حاول العرب مجددا فتح روما والاستيلاء ايضا على جميع سواحل ايطاليا ، وفتح جزيرة كريت - وهذا موضوع سنعود له بعد قليل - وحقق العرب نجاحات كبيرة في البحر ضد الأساطيل الأوربية ، ومجددا بدا البحر المتوسط يتحول الى بحيرة عربية ، وتوالى النجاحات داخل صقلية ، وتمكن العرب ايضا من فتح جزيرة مالطة ، لكن المؤسف أن امكانات دولة الأغالبة كانت لاتسمح بمتابعة الانفاق على مشاريع الجهاد البحرية والبرية ، ولنتذكر أن فتح صقلية احتاج سبعين سنة ، وقد نجم عن النفقات الكبيرة وسواها ازمات خانقة داخل أوساط الأغالبة وفي افريقية عامة ، وفيما جهود الأغالبة منصرفة الى ايجاد الحلول للمشاكل الداخلية ولمتابعة الجهاد في صقلية وفي الجنوب الايطالي (١١) ، استغل دعاة الدعوة الاسماعيلية هذا الوضع ، فذشطوا في ديار كتامة وسواها ، وأخيرا تمكن أبو عبد الله من الاطاحة بالحكم الأغلبي واقامة الخلافة الفاطمية في المغرب.

إنه قدر لايعرف الرحمة ، كيف أطيح هكذا بدولة الأغالبة العربية وجبهات الجهاد بالمتوسط بأمر الحاجة اليها والى قواها ، والشئ نفسه تكرر فيما بعد على أرض المغرب العربي ، فعندما تفرغت دولة المرابطين لاسترداد الاراضي العربية ، تعرضت هي الأخرى لما نجم عن دعوة المهدي بن تومرت ، وسقطت دولة المرابطين للموحدين ، وذهبت بعض الآراء حديثا الى ابن تومرت كان باطنيا؟ (١٢).

لقد بحثت في تاريخ قيام الدولة الفاطمية في أكثر من كتاب ، وليس بودي البحث في هذا الموضوع مجددا الآن ، بل الذي أبتغي تبليانه أن عبد الله المهدي ، أول خلفاء الدولة الفاطمية لم يستقر طويلا في مدينة القيروان ، ولم يتخذ مدينة تونس عاصمة له ، بل أنشأ مدينة المهدية على ساحل المتوسط ، ولقد كان للفاطميين سياسة بحرية خاصة بهم وأمتلكوا أساطيلهم ، لكنهم لم ينشطوا مثل الأغالبة ، ذلك أن أعينهم كانت ترنو نحو المشرق للانتقال إليه ، ومع ذلك لم يقصروا في الحفاظ على هيبة ملكهم ، وقد انعكس هذا كله على أوضاع صقلية .

بعيد دخول أبي عبد الله الداعي إلى رقاد ، وأزالته ملك بني الأغلب ، راسله بعض المتنفذين في صقلية بالاعتراف بالسلطة الجديدة ، وكانت الأوضاع في الجزيرة آنذاك على درجة عالية من الاضطراب ، واستمرت كذلك وزاد الفاطميون بسياساتهم الاستبدادية الخرقاء في اضطراب الأحوال فيها واضعافها ، ففي سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م بعث المهدي الفاطمي الحسن بن أحمد بن أبي خنزير واليا من قبله على صقلية ، وكان ابن أبي خنزير هذا من زعماء كتامة ، فيه جفاء وجهل وعصبية ، أراد تغليب العنصر البربري على الجزيرة ، فقاومه أهلها وطردوه ، وعين المهدي واليا جديدا على الجزيرة ، لكن الأمور لم تعرف الاستقرار ، وأعلنت صقلية استقلالها وسلمت الحكم لأحمد بن زيادة الله بن قره ب ، وكان من أقرباء الأغالبة ، وانتمى ابن قره ب بالولاء إلى الخلافة العباسية مما أثار خوف المهدي الفاطمي ، وفي سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م بعث المهدي بأسطوله وجيشه ضد صقلية ، فرده أهل صقلية بعدما مروا ببعض سفنه وفي سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م أرسل المهدي حملة ثانية ضد صقلية ، واستخدم وسائل الأرهباب وجيش دعائه ، فكان لذلك أثره ، حيث دانت الجزيرة مجددا للفاطميين واعتقل ابن قره ب وحمل إلى أفريقية حيث أعدم ، ومع هذا ما لبثت الأمور أن عادت إلى الاضطراب في الجزيرة ، وكان لهذا تأثيرات مدمرة ، وقد تزامن مع ذلك مع بدايات نشاطات شعوب النورمان ، فأخذ هؤلاء ينشطون قرب صقلية ويسعون للتعاون مع

مسيحييها لكسب قاعدة في اطراف الجزيرة ، وكان المسلمون قد شغلتهم شؤونهم الداخلية وصراعاتهم عما سوى ذلك .

استمرت الأحوال المتردية في صقلية حتى سنة ٩٣٥ / ٩٤٦ م ، ففي هذه السنة عين الخليفة الفاطمي الثالث - المنصور اسماعيل الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الكتامي اميرا على صقلية ، فأسس فيها حكم أسرة وراثية استمرت تحكم الجزيرة حتى تاريخ سقوطها للنورمان ، وعرفت هذه الأسرة بالأسرة الكلبية ، وقد استمر حكم هذه الأسرة أكثر من قرن ، وخلال ذلك عاشت الجزيرة خيرة أيامها ، فقد تعربت ، وازدهرت فيها الثقافة العربية ، واستطاع أمراء الكلبيين الدفاع عن صقلية ضد محاولات القوى البيزنطية والأوربية وهزموها في عدة معارك مشرفة وهكذا ظل الجنوب الايطالي بأيدي المسلمين ، لا بل حاولوا فتح روما .

لقد أرسل الحسن بن علي عدة حملات ضد الجنوب الايطالي ، وفي سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م خاض ضد الجيوش البيزنطية معركة المجاز التي عدت من أعظم معارك التاريخ الاسلامي ، فيها دمر القوات البيزنطية ، فقد التقت هذه القوات بشرزمة قليلة من المسلمين ، صمدت أمام تفوق العدو العددي فانتصرت ، وقتل المسلمون من البيزنطيين «خلقا عظيما حزت منهم رؤوس عشرة الاف » والطريف في خبر هذه المعركة أن الحسن بن علي «اعتل ... لفرط الفرح بما أنعم الله به عليه ، فكانت وفاته من حمى حادة لسبعة أيام (١٣) ، وهكذا أعيقت أعمال استثمار نتائجها الكبيرة ، وليت الأمر يقتصر على هذا !

حدثت هذه المعركة أيام المعز لدين الله الفاطمي ، وكانت الخلافة الفاطمية مشغولة بمد سلطانها على جميع بلدان المغرب ، استعدادا لتوجيه جيوشها ضد مصر ، لذلك عندما وصل الى المهديّة وفد بيزنطي للتفاوض على الصلح استقبل بالترحاب ، وتعاقد البيزنطيون مع المعز لدين الله على عدم معاودة الهجوم على صقلية ، وذلك مقابل أن يخلي المسلمون لهم طبرمين ورمطة التي كان سكانها

من المسيحيين ، أي أن ما أخفقت بيزنطة في الحصول عليه في معركة المجاز بقوة السلاح نالته بالمفاوضات ، وهكذا نال العدو قاعدة على أرض صقلية ، كانت نقطة الانطلاق لاسقاط هذه الجزيرة .

فبعد معركة المجاز بأمد قصير تمكنت جيوش الفاطميين من الاستيلاء على مصر ، وإلى مصر ارتحل المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك تورطت الخلافة بالصراع ضد القرامطة ومن أجل السيطرة على بلاد الشام ، وتركت صقلية بامكاناتها لوحدها لتواجه قوى أوربا المتنامية خاصة في المجال البحري لدى النورمان ولدى جمهوريات إيطاليا الناشئة .

وتأثرت صقلية بتردي أحوال الخلافة الفاطمية ، وبتمزق الأندلس وبقيام حكم دول الطوائف ، ثم بما شهدته ساحات المغرب من رفضي للولاء الفاطمي ، وهجرة قبائل هلال وسليم وقيام دعوة الرباط ، ورسم صورة ملخصة للأحوال في صقلية لسان الدين بن الخطيب بقوله : «ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم امداد المسلمين ، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن ، فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١٠٩٢ م) .

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار ، وهو الداهية ، العديم النظير في أبناء جنسه : حزما ودهاء وسياسة » (١٤)

وتحدث الشريف الإدريسي عن سقوط صقلية في كتابه نزهة المشتاق الذي قدمه لروجر الثاني بن قاهر صقلية فقال : «ولما كان في سنة أربعمائة وثلاث وخمسين سنة من سني الهجرة ، افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولاتها وأجنادها الملك الأجل والهمام الأفضل المعظم القدر ، السامي الفخر رجار بن تنقريد ، خيرة ملوك الأفرنجيين ، ولم يزل يفرق جموع ولاتها ، ويقهر طغاة حماتها ، ويشن عليهم الغارات في الليل والنهار ، ويرميهم بصنوف من الحتوف والبوار ، ويعمل فيهم ماضي الشفار ، وعوامل القنا الخطار

إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهرا وفتحها قطرا فقطرا ، ،
وملكها ثغرا فثغرا ، وذلك في مدة ثلاثين عاما .

واقهرهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم
وأهلهم وذرائعهم ، ثم أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل
المحتوم « (١٥)

لقد قاومت صقلية مدة ثلاثين سنة لوحدها ، وحين سقطت ،
سقطت عسكريا ، ولم تسقط من جوانب الحضارة والنظم ، ولم تقم
محاولات جادة لاستردادها ، وقد ورث النورمان أملاكها في إيطاليا ،
ولم يكتفوا بهذا بل احتلوا مالطة وهاجموا سواحل الشمال الأفريقي
فاحتلوا المهدية وغيرها ، ولا شك أن هذا التراجع العربي كان له
أبعد الآثار في أحداث الحروب الصليبية ، ولقد أعطى الحكام
النورمان لجمهوريات ايطالية البحرية امتيازات تجارية واسعة في
جزيرة صقلية ، وسمحوا لهم باستثمار مؤسسات التجارة والصناعة
التي كان العرب قد شيدوا صروحها بكل عناية وبراعة ، وفي المحصلة
«إن اعتداءات النورمان على ايطاليا وصقلية وشواطئ
الأدرياتيكى ، وهجمات جنوى وبيزا في المياه الغربية للبحر المتوسط
وهجمات الأقطاعيين الفرنسيين في الأندلس ، وحركات البنادقة في
المياه البيزنطية ، بالإضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البسابوية
وأتباع الإصلاح الكلونى للقيام بهجوم عام على المسلمين من أجل
دوافع دينية ، ثم العاطفة الدينية التي دفعت بالآلاف من مسيحي
غرب أوربا لزيارة الأماكن المقدسة ، هذه الاتجاهات كلها تساءلت
فيما بينها لانتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى ، ويمكن القول
بعبارة أخرى : إن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطا مركبا من
عدة عناصر كانت تعمل منذ أمد في أحداث غرب البحر المتوسط ،
وتتلخص في العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الايطاليين والمغامرين
الاقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة في كسب
الامتيازات في ميداني النقل والتجارة» (١٦)

★ ★ ★

ولم ينتزع العرب من الامبراطورية البيزنطية جزيرة صقلية فقط بل فتحوا أيضا جزيرة كريت (أقريطش) وحولوها إلى قاعدة بحرية عربية متقدمة وظلوا محتفظين بها لفترة طويلة ، وبالإضافة إلى كريت امتلكوا جزر الأندلس الشرقية - البليار - ومن المفيد أن نختم هذا الفصل بالحديث عن كريت ، ذلك أن الحديث عن جزر البليار هو مرتبط بتاريخ الأندلس والمغرب ، ولا يعنينا بهذا المدخل مباشرة (١٧)

وتعد جزيرة كريت بين أهم جزر المتوسط عرفت الحضارة قبل أن تعرفها بلاد الأغريق ، وكانت لها عبر التاريخ علاقات مع مصر والشام وسواها ، وبعد قيام الإسلام ونجاح حركة الفتوحات حاول العرب أكثر من مرة فتح هذه الجزيرة ، لكن بيزنطة دافعت عنها وحالت بينهم وبين ذلك حتى مطلع القرن الثالث للهجرة .

واختلفت حكاية هذا الفتح عن غيرها من الفتوحات البحرية ، فقد كان فتحا «شعبيا» - إذا جاز التعبير - ولم يكن فتحا رسميا ، وراءه دولة أو نظام حاكم ، ونحن نذكر أن فتح الأندلس كان بحريا من بعض الجوانب ، وقد امتلك أهل الأندلس أساطيلهم منذ فترة مبكرة ، ولا صحة لما ذهب إليه بعض الآراء من أن الأندلس صار لديها أساطيلها بعدما تعرضت لمخاطر الفيكونكغ ، وجابت السفن والأساطيل الأندلسية جميع بقاع المتوسط للتجارة والنقل والأغراض الأخرى ، وجرت العادة في الأندلس أن «كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول ، يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجانيف ، وأمر أرسائه في مرفئه» (١٨)

وبما أن الأساطيل العربية قد ملكت السيطرة على البحر المتوسط ولامتداد الشواطئ العربية شرقا وغربا ، فقد اعتادت السفن الأندلسية على الرسو في أي بلد إسلامي . أرادت ، يقول ابن خلدون : « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمه من أمم البحار ، فقد كان الروم والأفرنجة

والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا إلى الجهاد فيه ، وانشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومّة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه « (١٩)

وكانت بعض الأساطيل الأندلسية قد اعتادت على الرسو أمام ميناء الاسكندرية عند قفولها من الغزو « ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية ، انما كان الناس يخرجون اليهم فيبأيعونهم» (٢٠) لقد روى هذا الكندي في كتابه ولاية مصر ، وعرض ذلك لدى الحديث عن وقائع سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، وكانت أوضاع مصر آنذاك مضطربة بدأت المشاكل فيها منذ أواخر أيام الرشيد واشتدت أثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون ، واضطربت في الفترة التي مكث فيها المأمون في مدينة مرو ، واستولى أثناء بعضها إبراهيم بن المهدي على عرش الخلافة في بغداد .

وكان والي مصر المطلب بن عبد الله الخزاعي ، وعهد هذا والي

إلى محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج بولاية الاسكندرية ، واستخلف هذا الوالي عمر بن عبد الملك (ويقال له ايضا عمر بن هلال) على ولاية الاسكندرية التي لم تنعم بالاستقرار ، ووجد فيها عدة قوى تصارعت من أجل السلطة في الاسكندرية .

وقام والي الفسطاط المطلب بن عبد الله ، بعزل عمر بن عبد الملك عن الاسكندرية وعين بدلا عنه أخاه الفضل بن عبد الله ، وغضب عمر بن عبد الملك من عزله وتعيين المطلب لأخيه بدلا عنه وأراد الاستيلاء على السلطة في الاسكندرية والخروج على والي مصر المقيم في الفسطاط . في هذه الأونة كان قد تغلب على بلدة تديس القريبة أحد قادة الجند واسمه عبد العزيز الجروي ، وطمع بالاستيلاء على مصر ، وعندما سير والي الفسطاط ضده حملة نهرية هزمها عند شطونوف على النيل وأسر أميرها السري بن الحكم ، ودعا الجروي عمر بن عبد الملك للتحالف ، فاستجاب وقرر الثورة بالفضل بن عبد الله وطرده من الاسكندرية ، ولكي يحقق هدفه رأى أن يستعين بالأندلسيين المرابطين أمام ميناء الاسكندرية . وكان عدد هؤلاء الأندلسيين يتراوح ما بين الأربعة آلاف الى الخمسة وكان قوام أسطولهم أربعين سفينة ، ويرجح أنهم لجأوا الى الاسكندرية في مطلع الخريف لذلك العام ، واستجاب هؤلاء لمطلب عمر بن عبد الملك فاستولوا معه على الاسكندرية ، ونادى عمر بن عبد الملك الآن بالجروي واليا على مصر ، لكن أهل الاسكندرية غضبوا من تدخل الأندلسيين في شؤونهم فثاروا بهم وأخرجوهم من المدينة بعدما قتلوا عددا منهم ، وهكذا عاد الفضل بن عبد الله الى عمله .

ولم يجلب هذا الأمن والاستقرار الى الاسكندرية ، حيث قام المطلب بن عبد الله بعزل أخيه الفضل وعين بدلا عنه اسحق بن أبرهة بن الصباح ، ثم مالبث أن عزله وعين بدلا عنه أبا بكر بن جنادة بن عيسى المعافري ، الذي انتمى الى عشيرة قوية ، ومع هذا لم يعد الاستقرار الى الاسكندرية لأن الأوضاع اضطربت بشدة في الفسطاط حيث تحالف الجروي مع أسيره السري بن الحكم ضد المطلب واجتذبا بعض جند الفسطاط إليهما مما اضطر الفضل الى

مغادرة مصر الى الحجاز بحرا ، وتسلم الولاية في الفسطاط السري
ابن الحكم بناء على اجماع الجند وكان ذلك في رمضان سنة
٢٠٠ هـ / ٨١٥ م .

وفي هذه الاثناء تمكن عمر بن عبد الملك من طرد المعافري من
الاسكندرية واستولى على مقاليد الأمور فيها من جديد ، وبذلك اتاح
مجددا السبيل للأندلسيين للنزول في بر الاسكندرية ودخول المدينة ،
والتسلط على اهلها ، الذين كانوا قد أخرجوهم من قبل ونقموا
عليهم سلوكهم ونسبوا إليهم مفاسد كثيرة .

وظلت خواطر اهل الاسكندرية غير مرتاحة لتسلط الأندلسيين ،
ولهذا قرر عمر بن عبد الملك اخراجهم الى سفنهم ، وهكذا فسدت
العلاقة بين الطرفين ، وتربص الأندلسيون شرا بعمر بن عبد الملك .

وساعدت اوضاع الاسكندرية الأندلسيين على احكام قبضتهم
عليها ففي ظل الاوضاع المضطربة والنزاعات على السلطة خرج من
بين صفوف اهل المدينة حركات شعبية كان أبرزها واحدة عرفت
بالصوفية ، تبني أفرادها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
وصاروا يسيرون في المدينة وقد علقوا على أعناقهم المصاحف
« ويعارضون السلطان في أمره ، فترأس عليهم رجل منهم يقال له
أبو عبد الرحمن الصوفي ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة ،
واعترضوا بلخم ، وكانت لخم أعز من في ناحية الاسكندرية ،
فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي الى عمر بن هلال في امرأة ، فقضى
على أبي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ، وخرج الى
الأندلسيين ، وألف بينهم وبين لخم ، ورجا اهل الأندلس أن يدركوا
من عمر بن هلال ، فساروا الى عمر وهم زهاء عشرة آلاف من لخم
ومن الأندلسيين ، ومن ضوى إليهم فحصروه في قصره ، فعلم عمر
أن القصر لا يمنعه منهم ، وخاف أن يدخل عليه غنوة ، فيفضح في
حرمة ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه إليهم فدلي ،
فأخذته السيوف فقتل ، ثم دلي إليهم أخوه محمد بن عبد الله بن
محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج فقتل ، ثم دلي إليهم ابن

عمه ابو هبيرة الحارث بن عبد الواحد فقتل ، ثم دلي إليهم حديج بن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم

وكان مقتل عمر بن هلال واهله في ذي القعدة سنة مائتين ، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين عند مقتل عمر بن هلال ، وقام بأمر لخم رباح بن قرّة ، وسار الى الأندلسيين فحاربهم فانهزمت لخم ، وظهر الأندلسيون بالاسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة مائتين ، فولوها ابا عبد الرحمن الصوفي ، فبلغ من الفساد بالاسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله ، فعزله الأندلسيون عنها ، ولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ، ثم حاربت بنو مدلج أهل الأندلس ، فظفر بهم الأندلسيون فنفوهم عن البلاد « (٢١)

وكانت أنباء تغلب الأندلسيين على الاسكندرية قد وصلت الى عبد العزيز الجروي المتغلب على تنيس ، ولم يرضه ما حدث لحليفه عمر ابن هلال ، وقرر استرجاع الاسكندرية من الأندلسيين ، وقام بعدة حملات ضد هذه المدينة وحاصرها أكثر من مرة فأخفق ، ثم إنه « سار الى الاسكندرية مسيره الرابع ، فأغلق الأندلسيون حصنها ، فحاصروهم الجروي أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، وأقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة أربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس ، فأصاب الجروي فلاة من حجر منجنيق ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين ، ومات السري بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر « (٢٢)

لقد مكث الأندلسيون يتحكمون بالاسكندرية أكثر من عشر سنوات ، حيث ظلت الأمور مضطربة في مصر وفي المشرق ايضا ، ويبدو أن عدد الأندلسيين في الاسكندرية ازداد كثيرا بوصول أندلسيين جدد اليها لاسيما من سكان ربض قرطبة الذين ثاروا ضد الأمير الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م فبطش بهم ، وهدم الربض وأجلى أهله (٢٣) فجاء بعضهم الى المغرب الأقصى « فصعدوا الى مدينة فارس ، وكانوا ثمانية الاف بيت ، فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا ... فسميت عدوة الأندلسيين « (٢٤)

وترجم ابن الأبار في الحلة السيرة للحكم بن هشام فتحدث عن فتنة ربض قرطبة ووصف تدمير الربض وشتات سكانه حيث ساروا « كل بحسب ما أمكنه ، واستمروا ظاعنين على الصعب والذلول ... متفرقين في قصي الكور وأطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليلة لمخالفة أهلها الحكم ، ولجأ آخرون إلى سواحل بلاد البربر ، وأصعدت منهم طائفة عظيمة - نحو الخمسة عشر ألفا - في البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا إلى الاسكندرية » (٢٥)

وفي المشرق ترك المأمون مرو وجاء إلى بغداد ، وأعاد هيبة الدولة العباسية واستقرارها في المركز ، واهتم بشؤون مصر ، فوجه عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى مصر ، فأقبل على رأس قوة برية بحرية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة الفسطاط ودخل إليها « يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة إحدى عشرة » ثم قرر الزحف ضد الاسكندرية ، ونزل عليها « في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة » وحصرها بضعة عشرة ليلة ، فخرج إليه أهلها بأمان ، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا ، على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحدا من مصر ، ولا عبدا ولا أبقا ، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهدهم ، وتوجهوا ، فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم ، فوجد فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم ، فأمر ابن طاهر باحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم إلى شرطهم ففعل » (٢٦)

وسار الأندلسيون نحو جزيرة كريت حيث تمكنوا من فتحها ، لكن لماذا نحو كريت ، ومن أين ولدت هذه الفكرة لديهم ؟ يبدو أن الأندلسيين كانوا أثناء سيطرتهم على الاسكندرية قد تابعوا نشاطاتهم داخل البحر المتوسط ، وقد اضطروا لذلك لتأمين المؤن وأسباب الاستمرار ، وهكذا أغاروا على كريت عدة مرات ، ولربما أغاروا على صقلية أيضا ، وفي السنة التي نزل فيها عبد الله بن طاهر الفسطاط بعثوا ضد كريت « عشر سفن أو عشرين ، عادت بكثير من الأسرى والغنائم ، بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة » (٢٧)

ولعلمهم قصدوا كريت بعد مغادرتهم الاسكندرية لأنهم عرفوا اخبار مشروع الأغلبة لفتح صقلية الذي شرع في تنفيذه في العام نفسه ، وكان الأندلسيون حين قصدوا كريت تحت لواء قائد منهم اسمه أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي ، ونزلوا على شاطئ كريت دون أن يلقوا مقاومة ، ولانعرف هل نزلوها للاغارة فقط أم للفتح ، وينقل فازلييف عن المصادر البيزنطية أنه « لم يكد جند العرب يبتعدون عن الشاطئ الى الداخل قليلا حتى أمر أبو حفص بحرق السفن ، فلما رجع العرب الى الشاطئ كادوا يثورون لما أحسوا من يأس خوفا على ذسمائهم وأطفالهم ، فهداهم أبو حفص حينئذ وامتدح لهم غنى الجزيرة ، وجمال الكريتيات وصلاهن للزواج .

فلما استقر العرب في الجزيرة ابتنوا حصنا حصينا أحاطوه بخندق عميق ، فسمي لهذا بالخندق ، ومن هنا جاء كما نعرف الاسم الحديث كاندى » (٢٨) وإذا صحت هذه الرواية لم تكن فكرة الاستقرار في كريت موجودة إلا في رأس البلوطي ، ومهما يك من أمر أكمل العرب فتح كريت ، ويقول فازلييف « وأخذ العرب تسعاً وعشرين مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها ، واسترقوا سكانها ولم يسمحوا للمسيحين بالاحتفاظ بدينتهم إلا في مدينة واحدة » وانتمى الأندلسيون بعد استقرارهم في كريت الى الخلافة العباسية (٢٩)

كان على عرش القسطنطينية الامبراطور ميخائيل الثاني من الأسرة العمورية (٨٢٠ - ٨٢٩ م) وحاول هذا الامبراطور الحيلولة بين العرب وبين فتح صقلية ، كما جهد في سبيل استرداد كريت فأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات بحرية باءت جميعا بالافاق (٣٠) وكانت في هذه الآونة جبهة الثغور العربية البيزنطية مشتتة ، ففي منطقة الثغور اقام الخليفة المأمون وهناك قضى ، وبعد المأمون قام المعتصم بحملة عمورية الشهيرة ، ولاشك أن هذه الضغوط الشديدة على بيزنطة قد أرغمتها على توزيع امكاناتها العسكرية وهذا قد سهل بعض الشيء فتح كل من صقلية وكريت .

لقد احتفظ العرب بجزيرة كريت مدة تبلغ قرناً ونصف القرن

خاضوا خلالها معارك شديدة ضد الأساطيل البيزنطية ، واستطاع البيزنطيون استرداد كريت في الفترة التي تلاشت بها قوى الدولة العباسية ، وفي المقابل عاشت الامبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية فترة ازدهار وقوة عسكرية ، وأنجبت هذه الأسرة واستخدمت عددا من كبار القادة العسكريين كان من أشهرهم نقفور فوقاس ، واستطاع نقفور أن يجتاح منطقة الثغور الشامية ، ولم تثمر جهود سيف الدولة الحمداني في التصدي له حيث اقتحم على رأس قواته مدينة حلب وأحدث فيها مذبحة مهولة ودمارا مروعا وساق منها قطارا من الأسرى فيه أكثر من عشرين ألف فتى وفتاة ، ونقفور هذا نفسه استغل الضعف العربي فقام بحملة كبيرة ضد كريت في سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م واستطاع الاستيلاء عليها بعد ما واجه مقاومة هائلة ، وعندما وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية تقبله شعبها بفرح عظيم ، وعلى العكس شعر المسلمون بحزن عميق وأسى كبير ، ومع أنهم في إفريقية وفي مصر ملكوا ما يكفي من الامكانيات لاسترداد الجزيرة توالكوا وأهملوا الأمر ، واكتفى المعز بكتابة رسالة تهديد إلى بيزنطة وتقريع إلى كافور الاخشيدي ، لكن ذلك لم يجد ، والمشكلة هنا أن هموم المعز كانت منصرفة نحو احتلال مصر ، وهموم كافور كانت مستقطبة حول الدفاع عن ملكه ، (٣١) وكانت الأندلس منصرفة نحو همومها مع أعداء الشمال والصراع أيضا مع الفاطميين في بر المغرب الأقصى والبحر مع مشاكل أخرى .

لقد توالى الانتكاسات العربية في البحر المتوسط ، ومن الجوانب الأخرى كانت قوى أوربا تتصاعد ، وقد أثر هذا تأثيرا كبيرا على مسار أحداث الحروب الصليبية ، وتعاضم التدهور في هذا المجال في المشرق أكثر منه في المغرب ، وقد أجمل ابن خلدون حكاية العرب والبحر المتوسط بقوله : « والمسلمون - قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وناهية ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن في

ممالكهم ... وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الأفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ، واختلفت في طرقه سلما وحربا ، فلم تسبح للنصرانية فيه الواح .

حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن ، وطرقها الاعتلال مد النصراني أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة ، فملكوها ، ثم الحوا على سواحل الشام في تلك الفترة ، وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا ، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام ، وغلبوا على بيت المقدس ، وبنوا عليه كنيسة لآظهار دينهم وعبادتهم ، وغلبوا بني خزرون على طرابلس ، ثم على قابس وصفاقس ، ووضعوا عليهم الجزية ، ثم ملكوا المهديّة مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيري ، وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر ، وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد ، بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم ، فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك ، وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر ، بكثرة العوائد السوديّة بالمغرب ، وانقطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصراني فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه ، والمران عليه ، والبصر بأحواله ، وغلب الأمم في لحتة وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان ، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا ، وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا « (٣٢)

ملاحق الكتاب

أسد بن الفرات

(من المقفى للمقرئى - مجلة برتو باشا)

أسد بن الفرات بن سفيان ، أبو عبد الله ، مولى بني سليم ،
قاضي إفريقية •

أصله من أبناء جند خراسان •

ومولده في سنة أربع وأربعين ومائة ، وأقام بالكوفة • وكتب عن
أهلها وكتب بالري عن جرير بن عبد الحميد •

وأخذ الموطأ عن مالك بن أنس ، وروى عنه المسائل الأسدية ،
وهو معدود من كبار أصحاب مالك •

قدم مصر ، ومضى إلى إفريقية ، وولي القضاء بها من قبل زيادة الله
ابن إبراهيم بن الأغلب شركة مع أبي محرز محمد بن عبد الله بن
قيس في

ثم غزا جزيرة صقلية وذلك أن أهلها كانوا معاهدين • فنزع بعض
أهلها إلى زيادة الله يستدعيه إلى دخول الجزيرة ، وذلك أن ملك
الروم سخط عليه ، وكتب إلى صاحب صقلية أن يعاقبه ويمثل به •
فلما خافه استدعى أصحابه إلى الخلاف معه فأجابوه • فمضى في
مراكبه نحو سرقوسة إحدى مدائن جزيرة صقلية ، فنزل بمرساها
وقاتل البطريق الذي كان بها حتى قتله ، ثم لبس الديباجة التي
يلبسها الملوك والخف الأحمر ، وأخذ الأموال التي بسرقوسة ،
واستولى عليها ، وأعطى أصحابه الأموال ، ثم رغب إلى زيادة الله
في أن يمدّه •

فجمع زيادة الله العلماء وشاورهم في غزو صقلية • وكان في

عهدهم أنهم إذا دخل عندهم رجل من المسلمين مرتداً أن يسلموه إلى المسلمين فأحضر زيادة الله أسد بن الفرات وأبا محرز ، في آخرين وسألهم عن ذلك ، فقال أسد : نسأل رسلكم إن كانوا احتبسوا أحداً من المسلمين ارتد عندهم •

فسألوه فقالوا : نعم ، فعلنا ذلك ، ولا يحل لنا في ديننا رد من أتى إلينا ودخل في ديارنا •

فقال أسد : قد نقضوا عهدهم وجاز لنا أن ننقض ما عقدنا لهم ، وإنما تتأذى إلينا الحقائق عنهم برسلكم فبهم عاهدناهم وبهم نجعلهم ناقضين ، وقد قال الله تعالى : « فلا تهنأوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون » (١) • فكما لاندع السلم ونحن الأعلون فكذلك لانتمسك به ونحن الأعلون •

فأخذ زيادة الله بقول أسد وأمر بإنشاء المراكب والاستعداد للغزو • وعرض أسد نفسه على زيادة الله للخروج في الغزاة ، فولاه على الجيش ، وفيهم أشراف أهل إفريقية من قریش ، والعرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وأقره على القضاء مع قيادة الجيش • فخرج في حفل عظيم ، وعدة جليلة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين • فقال لمن حوله والله ما ولي أبي ولا جدي ولاية قط ، ولا رأى أحد من أهل بيتي ولا سلفي مثل هذا الجمع يتبعه ، ولا بلغت ما ترون إلا بطلب العلم فأجهدوا أنفسكم في طلبه ، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة •

واجتمع لزيادة الله من المراكب سبعون مركباً ، وجعل فيها سبعمائة فرس ، ثم فصل أسد بالعساكر يوم السبت للنصف من شهر ربيع الآخر ، فكانت طريقه على قلعة البلوط ، ثم على قرى الریش ، ثم سار إلى قلعة الدب وقرية الطاووس • وذلك أنهم أصابوا في القلعة دباً أنيساً ، وفي القرية طاووساً • ثم سار إلى معركة بلاطة فظهر له فيها جمع من الروم فنازلهم وواضعهم الحرب فانهزم المشركون ، وأصيب لهم خيل وسلاح • ومن ذلك اليوم

سميت معركة بلاطة • ثم دخل الى حصون الروم ومدنهم وقراها
ينسفها ويغير عليها • وبعث الاسرايا الى قصور صقلية وقراها
فأصابوا سبيا كثيرا ، ومن الدواب والمواشي ما لا يحصى كثرة •
وكثرت الغنائم عند المسلمين فصاروا في رغد من العيش ، حتى نزل
على سرقوسة ، وحصر أهلها أشد الحصار ، ونصب عليهم المجانيق
وقاتلهم برا وبحرا •

وكانت المراكب تأتيهم من القسطنطينية لتنصرهم ، فربما تغلب
المسلمون عليها قبل دخولها • وبت الاسرايا من كل جهة ، واختلط
الناس المنازل من سرقوسة الى قطنانية وما حولها ، وتزوج
المسلمون في الروم وسكنوا القرى ، وسارع الناس الى إمدادهم
والغزو إليهم من إفريقية والأندلس وغيرهما ، وأتتهم مراكب من
الأندلس فيها كليب الأعرج ورجل يقال له المشاط فنزلوا وافتتحوا
قلعة تعرف بقلعة حفص • وأحرق أسد مراكب سرقوسة وقتل
جماعة من أهلها فانقطعت المواد عن سرقوسة ، واشتد عندهم
الغلاء وذبخوا ذبولهم • وأشير على أسد أن يرجع وقيل له : سلامة
مسلم واحد خير من الروم بأسرهم ، فأبى أن يرجع وقال : ما كنت
لأضيع على المسلمين غزاة وفيهم خير كثير •

وأمر بالزحف وأخذ اللواء بيده وقرا سورة يس حتى فرغ منها ،
ثم قال : أيها الناس ، لاتهابوهم ، إنهم عبيدكم ، هربوا من
أيديكم ، ثم هم قد وقعوا لكم يشير الى من انهزم من الروم عند فتح
إفريقية •

ثم إنه زحف وقاتل قتالا كثيرا ، واشتدت الحرب ، وهزم الله
المشركين ، وكانوا في مائة ألف وخمسين ألفا ، وقتل بلاطة ملكهم في
خلق كثير منهم • وجرح أسد، فلم تزل به جراحته حتى مات وهو
على حصار سرقوسة في شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين فدفن
بمدينة بلرم •

جرجي الأنطاكي وزير روجار

(من المقفى للمقريزي - مجلة برتو باشا)

جرجي بن ميخائيل الأنطاكي ، وزير روجار ملك الافرنج بجزيرة صقلية • كان من جملة النصارى وعمل هو وأهل بيته ملك القسطنطينية مدة ورفع عليه وعلى أهله فأمر الملك بوصولهم إليه بالأهل والولد ، فجمعوا في مركب وخرجوا في أربعين نفسا فلقبهم أسطول السلطان تميم بن المعز بن باديس صاحب بلاد الغرب ، وذلك في سنة ذيف وثمانين وأربعمائة ، وهو راجع من غزو جزائر القسطنطينية ، فأخذهم واتى بهم الى المهديّة من أرض إفريقية • فسألوا الحضور بين يدي تميم فأمر بإحضارهم فذكروا أنهم حسب وأن السلطان ينتفع بهم في الخدم. فأحسن تميم اليهم وقذلهم الأمور. فظهر نصحبهم وولى جرجي هذا عاملا على مدينة سوسة وجعل سمعان أخاه بين يديه وكان لم يبلغ الحلم. فجعل يلتقط الأخبار من أخوته ومن غيرهم ويوصلها اليه. فبلغ السلطان يحيى ابن تميم عن سمعان أنه نقل عنه كلاما. فضاق به صدره وثقل على يحيى بن تميم فأمر من خذقه ليلا.

ومات السلطان تميم وقام من بعده ابنه يحيى بن تميم فخافه جرجي ، وكتب الى السلطان عبد الرحمن (٢) وزير الملك روجار بن روجار ملك الافرنج المعروف بأبي تليس صاحب جزيرة صقلية يأمره فيه أن يبعث له شينيا غزوانيا ليهرب فيه • فوصل الشينى الى المهديّة في سنة اثنتين وخمسائة ، وفيه رسول الى السلطان يحيى ابن تميم • فأخذ جرجي وجميع أقاربه وسار بهم بحيث لم يعلم به أحد •

فلما قدموا عليه أحسن إليهم وولاهم الدواوين بصقلية فـأظهروا
النصح فصار لهم عنده منزلة • وشب الملك روجار وشـارك عبد
الرحمن الوزير في الأمر والنهي • فتقرب إليه جرجي بكل ما
يوافقه • فبعث جرجي رسولا الى مصر كرات متعددة •

ولم يزل جرجي يسعى بالسلطان عبد الرحمن حتى أخذه روجار
وجعله في قفص حديد وقتله • وولى وزارته أبا الضوء كاتب
إنشائه ، وكان من أهل الأدب ، فلم ينهض بالأمر فولى جرجي
الوزارة فجمع الأموال ورتب قواعد الملك وحجب روجار عن الرعية ،
وجعل له زيا كزي المسلمين ، لا يركب ولا يظهر للرعية إلا في
الأعياد ، وبين يديه الخيل المسومة بسروج الذهب والفضة ، والأجلة
المرصعة بالأحجار ، والقباب بالهوادج ، والبندوب المذهبة والمظلة
والتاج على رأسه •

ونعت جرجي بالسيد الأجل المرتضى عز الملك المظفر فخر الجلال
نظام الرئاسة زعيم الجيوش شرف الوزراء أمير الأمراء • وأوقف
روجار على سير الملوك ، وأمر كاتباً من كتابه يعرف بالحنش فجمع
له سيرة •

فلما كانت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند أخذ المهدية بلغت
شوانيه مائتي شيني ومائة طريدة ، غير الحمالة • فخرج جرجي في
الأسطول بنفسه وفتح الجزائر التي بين المهدية وصقلية • ثم صار في
ملكه من سواحل إفريقية ما بين أول طرابلس الى الحمامات بقرب
تونس ، وفي البر الى قرب القيروان • واتسعت دولة روجار بتدبير
جرجي • فلما وقع الغلاء في المغرب مع الفتن ، رحل إليه من الأمراء
والقضاة والفقهاء والأدباء والشعراء عالم كبير ، فأوسعهم جرجي
وروجار رفدهما وانزلاهم عندهما ، فعمرت الجزيرة أحسن عمارة
وقصدها السفارة من كل البلاد بأنواع البضائع وطرف التجارة ،
الى أن كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة ، مات جرجي الوزير
وهو في التسعين • فأقر روجار ولده ميخائيل بن جرجي في
الوزارة •

- ٧٤٧ -

ثم مات روجار في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين
 وخمسماية •

جعفر بن محمد الكلبي الصقلي

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين
الحسين ، الكلبي ، الصقلي ، أمير صقلية •

كان من أمراء بني أبي الحسين بصقلية يتوارثون إمارتها مدة
سنتين وأول من ولي منهم الحسن بن علي في سنة ست وثلاثين
وثلاثمائة من قبل الإمام المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن
محمد القائم بأمر الله بن عبيد الله (٣) المهدي الفاطمي •

ثم ولي بعد الحسن بن علي ابنه أبو الحسين أحمد بن الحسن ،
ثم أبو القاسم علي بن الحسن بن علي ، ثم ابنه جابر بن أبي
القاسم علي ، ثم جعفر بن محمد هذا •

وكان أبوه أبو عبد الله محمد بن الحسن قد قدم إلى مصر مع
المعز لدين الله ، ومات بالقاهرة. فلما مات المعز واستخلف من بعده
ابنه العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز ، ونافق حمزة بن ثعلبة
الكتامي بأسوان في سنة ثمان وستين وثلاثمائة أخرج إليه جعفر بن
محمد هذا ، فأخذه وبخل به القاهرة ومعه أمواله وجواهره ونعمه ،
فلما قتل
أبو القاسم علي بن حسن أمير صقلية لعشر بقين من المحرم سنة
اثنتين وسبعين في الجهاد، وقام من بعده ابنه جابر كتب قوم من أهل
صقلية إلى العزيز يعرفونه عجز جابر عن القيام بأمر صقلية • فأمر
العزيز جعفر بن محمد هذا أن يمضي من مصر إلى صقلية وعقد له
بولايتها • وقد كان في رتبة أبيه من الوزارة والحال الجليلة •
فخاف منه الوزير يعقوب بن كلس وأراد إبعاده ، فحسن للعزيز

ولايته صقلية وعرفه أن الثغر يتلف ما لم يله ، فتمت حيلته وولاه
العزیز •

فخرج من القاهرة في البر ، ومعه خيل يسيرة فوصل الى مدينة
المنصورية يوم الأربعاء لخمس خلون من صفر سنة ثلاث وسبعين
وبين يديه عشرون فرسا بالسروج المحلاة المثقلة ، وخمسة بنود
مذهبة وخمس عماريات ، ومه سبكتكين التركي فلقبه عبد الله بن
محمد الكاتب وأنزله • فنادى مناديه في الناس بإعطاء الأرق
السنية ، فأتاه جماعة من الناس فلم يحمل ذلك عبد الله
ونادى : « من مضى الى جعفر بن محمد بن الحسن فقد حل دمه » •
وأخذ قوما سائرين نحوه فضرب أعناقهم • فرحل عند ذلك للنصف
منه يريد المهدية ، ورحل معه عبد الله فأتته ثاني يوم وصوله خمسة
مراكب حربية من صقلية بهدايا جليلة وعدة عظيمة بعث بها إليه ابن
عمه جابر بن أبي القاسم • فركب فيها يوم الجمعة لليلتين بقيتا من
صفر وسار الى صقلية فسلمها من جابر بغير مدافعة واستقامت له
أموره •

وكتب إليه العزيز في سنة خمس وسبعين يأمره أن يدفع الى
الراهب الذي هو أبو جاريته السيدة العزيزية ، القلاع التي افتتحها
جده الحسن علي بن بي الحسين ، وأن يدفع إليه كل شيء عنده من
قديم وحديث فقدم الراهب الى صقلية فأنزله جعفر ووكل به ومنع
أن يدخل عليه أحد ، حتى إنه كان إذا عبر الحمام صاحبه عدة من
المسلمين حتى يدخل ويخرج فيردونه الى موضعه • فأقام على هذا
نحو أربعة أشهر • ثم جمع له كل شيخ وعجوز وعليل من النصاري
ودفعهم إليه ، وهم نحو مائة نفس وأمره بالرحيل ، (فسألت وما
صدق بنجاته) فمضى الى القسطنطينية ، وكتب الى العزيز بما كان
فيه مع جعفر • وأمر جعفر بعد مسير الراهب فاشترى مركبا
أندلسيا وشحنه بطرائف الأندلس وأظهر أن ابن أبي عامر بعثه إليه ،
وكتب الى العزيز بأن صاحب الأندلس قد كتب إليه يدعو الى طاعته
ويعده أن يقطعه من الأندلس كل ما يسأله • فكتب إليه العزيز بأن

سلفه من بني أبي الحسين ما عرفوا قط. إلا طاعته وطاعة
أبائه - يحضه عليها - فبقي جعفر يداري أمره ، والقلاع بأيدي
المسلمين ، فلم يرم أن مات في يوم (...) سنة خمس وسبعين
وثلاثمائة فولي بعده أخوه عبد الله بن محمد.

تاج الدولة الكلبي

(من المقفى للمقرئى - مجلة برتو باشا)

جعفر بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ، الكلبي ، أبو محمد ، ابن أبي الفتح - ويقال أبي الفتح - الأمير تاج الدولة ، سيف الملة ابن الأمير ثقة الدولة •
أحد أمراء صقلية المعروفين بـ « بني أبي الحسين » • قام بأمر صقلية نيابة عن أبيه الأمير أبي الفتح ثقة الدولة يوسف لما فلج وتعطل جانب الأيسر في سنة ثلاث وأربع مائة ، فلقبه الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بـ « تاج الدولة وسيف الملة » فاستقر على ولايته •

وفي آخر رجب سنة خمس وأربع مائة خالف عليه أخوه الأمير علي ابن يوسف ، فقتله بمعونة أخويه أحمد وحسن •

ثم خرج أهل صقلية عن طاعته لظلمه وحصلوه ، فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة حتى ردهم عن محاربتة ، وصرفه عنهم ، وولى عليهم ابنه تأييد الدولة أحمد الأكل بن يوسف في سادس المحرم سنة عشر وأربع مائة ، وسيره من صقلية إلى القاهرة فقدمها •
وسار أبوه من بعده إليها بأموالها وكانت كثيرة جدا •

جواهر الجدالي

(من المقفى للمقرىزى - مجلة برتو باشا)

أصله من قبيلة جداله أحدى قبائل البربر فى صحراء بلاد المغرب
التي يخرج إليها من السوس الأقصى.

قدم مصر حاجا فى عشر الخمسين وأربعمائة ، وصر فى طريقه
بالسوس الأقصى على رجل يقرأ عليه مذهب الإمام مالك وحديث
النبي صلى الله عليه وسلم . فسمع منه فأعجب به . فلما عاد من
الحج إلى السوس قصد ذلك الفقيه . فلما سمع كلامه قال له : يا
فقيه ، ما عندنا من هذا الذي تذكره شيء إلا الشهادتين والصلاة .

فقال له الفقيه : فأحمل معك من يعلمهم عقائد الإسلام وكمال
دينهم . قال : فأبعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره وأكرامه .

فأرسل معه فقيها من طلابته يقال له عبد الله بن ياسين فدخل
الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء ، وفيها قبائل ، منهم
لمتونة ، وجدالة ولطة ومسوفة وغيرهم ، فنزلا على قبيلة لمتونة ،
وهي على ربوة عالية . فلما عاينا القبيلة نزل الجوهر عن جملة وأخذ
الجمال الذي عليه عبد الله بن ياسين ، تعظيما له .

وأقبلت أعيان لمتونة يتلقون الجوهر الجدالي ليهنئوه - كما جرت
العادة - بالسلامة ، وكان من أكابر تلك الصحراء . فأروه يقود ذلك
الجمال فقالوا له : من هذا ؟

فقال : حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء يعلم
أهل الصحراء ما يلزمهم فى دين الله من الإسلام .

فرحبوا بهما وأنزلوهما . ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة وقالوا : تذكر لنا ما أشرت اليه أنه يلزمنا .

فقص عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم ، حتى فهم ذلك أكثرهم . ثم اقتضاهم الجواب فقالوا : أما ذكرت من الصلاة والزكاة فذلك أمره قريب ، وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنى يجلد ، فأمر لاندلزمه ، ولاندخل تحته . اذهب الى غيرنا !

فرحل عبد الله والجوهر عنهم ، والجوهر الجدالي يجبر زمام جمل عبد الله بن ياسين . فنظر اليه شيخ كبير السن من لمتونة ، فقال : ارايتم هذا الجمل ؟ لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم .

وانتهوا الى جدالة قبيلة الجوهر ، فتكلم عبد الله بن ياسين فيهم وفيمن اتصل بهم من القبائل . فمنهم من سمع وأطاع ، ومنهم من عصى . ثم إن المخالفين لهم تحيزوا وتحزبوا . فقال عبد الله بن ياسين للذين أقبلوا عليه وقبلوا سنة الاسلام : قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء المخالفين للحق ، الذين أنكروا دين الاسلام واستعدوا لقتالكم . فالفوا لكم حزبا وأقيموا لكم راية ، وقدموا عليكم اميرا . فقال الجوهر : أنت الأمير .

قال عبد الله : لايمكنني هذا ، إنما أنا حامل امانة الشرع وأقص عليكم نصوصه ، وأبين لكم طريقته ، وأعرفكم سلوكه ، ولكن كن أنت الأمير ! فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس وعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي .

فقال عبد الله بن ياسين : فهذا أبو بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها يفعل ذلك .

فأجاب . فعقدوا له راية وبايعوه بيعة الاسلام ، وتبعته زمرة من قومه وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين ، وعادوا الى جدالة وجمعوا اليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم وسماهم عبد الله « المرابطين » .

وتألبت عليهم احزاب من الصحراء معاندون من اهل الشر والفساد (فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على اولئك الاشرار بالمصلحين من قبائلهم ، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق نحو ألفي رجل من اهل البغي والفساد (٤) وتركوهم اياما بغير طعام. ثم أخرجوهم شيئا بعد شيء وقتلوهم عن آخرهم. ومن ذلك الوقت دانت لهم أكثر القبائل واستقام خلق كثير.

ولما ولي الأمر أبو بكر بن عمر استبد به دون الجوهر فداخل الجوهر الحسد وشرع في فساد الأمر سرا . فعلم ذلك ، وعقد له مجلسا وثبت عليه ما ذكر عنه فحكم فيه بأنه يجب عليه القتل لأنه نكث البيعة وشق العصا ، وهم بمحاربة اهل الحق . فقال الجوهر : « وأنا ايضا احب لقاء الله حتى أرى ما عنده » .

ثم كثرت طائفة المرابطين ، وساروا لقتال الفرنج فقتل عبد الله ابن ياسين ، وذلك في عشر السنين وأربعمائة . ثم جمع أبو بكر بن عمر قبائل الاسوس حتى أخذ مدينة سلجماسة ، وولى عليها يوسف ابن تاشفين اللامتوني ، من بني عمه ، وعهد اليه من بعده . فلما مات أبو بكر ، خلفه يوسف بن تاشفين ، ودعي بأمير المسلمين . فافتتح بلاد المغرب شرقا وغربا بأيسر سعي ، وبنى مدينة مراکش . ثم أخذ المعتمد بن عباد ملك الأندلس . ثم مات فقام من بعده ابنه علي بن يوسف ، ثم اسحاق بن علي بن يوسف . وقتل اسحاق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وانقضت دولة الملائمين التي أنشأها الجوهر الجدالي بقيام دولة الموحيدين على يد محمد بن تومرت .

الوزير اليازوري

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

الحسن بن علي بن عبد الرحمن ، أبو محمد
اليازوري ، الوزير الأجل الأوحى المكين ، سيد الوزراء وتاج
الأصفياء ، قاضى القضاة وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير
المؤمنين ، الناصر للدين .

كان أبوه من أهل ضيعة من ضياع فلسطين يقال لها
«يازور» ، وله بها حال متسعة كبيرة . فلما اتسعت حاله ، وكثر
ماله ، أنف من المقام بها وتحول إلى الرملة وسكنها فشهـر
بها . وعرف بالصدق في القول وسماحة النفس ، فتقدم الشهود
بها ، ورد إليه قضاء أكثر أعمال الرملة . ونشأ له ابنان أصغرهما
الحسن هذا . فخلف أخاه القائم بعد أبيه ، وأربى على أبيه وأخيه
في حسن الطريقة وجميل السيرة وشرف الألق .

واتصل بخدمة خيرة جارية الوزير علي بن أحمد الجرجرائي
فأحسنت إليه واعتنت به ومنعت من التعرض لصرفه من الحكم إلى
أن توفيت ، فصرف عن الحكم .

وقدم إلى القاهرة وتلطف بكثرة مداخلته وتوصل إلى خدمة
السيدة أم الخليفة المستنصر وواظب خدمتها وخدمة حواشيها ولازم
بابها للسعي في عوده إلى الحكم بفلسطين . وصار يتردد إلى
الوزير أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى حتى اختص به وأفضى
إليه بما يجده من استبداد أبي سعد سهل التستري بأمور الدولة وما
يلقى من امتهانة له ، فيشاركه في التدبير عليه ويلقنه من ذلك ما يجد

به سبيلا الى المكر به . فنفر منه ابو سعد ومقتته وهم بالايقاع به ، فعوجل وقتل ، واليازوري مع ذلك يتردد الى قاضي القضاة وداعي الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان ولاينقطع عنه ليرده الى الحكم ببلده . ففهم القاضي سوء رأي أبي سعد التستري فيه فانحرف عنه ولم يلتفت اليه . واستمر عليه لهذا بعد قتل أبي سعد .

فاتفق ان قاضي القضاة حضر يوما بباب البحر، أحد أبواب القصر، على عادته في كل اثنين وخميس ، وجلس ينتظر خروج السلام اليه ، وجلس معه من الشهود من جرى رسمه بذلك ، فدخل اليازوري وجلس معهم فالتفت اليه القاضي وقال له . بأمر من جلست ههنا ؟ اتظن ان المجالس كلها مبدولة لكل أحد ان يجلس فيها ؟ لهذا مجلس لايجلس فيه الا من اذنت له حضرة الامامة وشرفته به . اخرج ، فوالله لاتصرفت على أيامي أبدا .

فخرج ورجلاه لاتكادان تحملانه ، ووقف على باب البحر الى ان خرج قاضي القضاة ، فسار في أعقابيه وسبقه ووقف بباب داره ، فلما نزل صقع (٥) له استعطافا لئلا يريه أنه وجد من كلامه ، فلم يعره طرفه ودخل ، فانصرف اليازوري . ولقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي خليفة قاضي القضاة فقال له : ياأبا محمد ، قد كان يجب ان لاتريه وجهك عقيب ما جرى لك معه اليوم .

ثم انصرف عن القضاعي واقبل على أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن أبي زكريا خليفة قاضي القضاة فخاطبه بأجفى من خطاب القضاعي له . فتركه وقد عظم همه .

ووافي منزله فوجد قد حضر اليه من ضياعه ثلاثون حملا من التفاح لتباع بمصر ، فأنفذ منها خمسة أحمال الى الوزير الفلاحى ، وبعث لقاضي القضاة خمسة أحمال وللقائد الأجل عدة الدولة رفق خمسة أحمال ولابن أبي زكريا ثلاثة أحمال وللقضاعي خمسة أحمال ، وفرق حملين على حواشيهم ، وكان ثمن هذه الأحمال يبلغ جملة ثلاثمائة دينار فلم يلتفت أحد منهم اليه ولاعطف

عليه .. (٦) ولاتقدم منا اليه من الجميل ما يوجب أن يكافئنا عليه . وهذا رجل حر له مروءة توجب أن نصطنعه ونحقق حسن ظنه بنا .

وركب اليازوري من الغد ووقف عند باب البحر فلما أقبل رفق من داره يريد القصر تلاقاه وسلم عليه ، فأكرمه ورحب به وسأله عن حاله ، ثم دخل الى القصر وقضى حق الخدمة وخرج فوجده واقفا على حاله . فسلم عليه . وسار معه الى داره حتى وصل اليها ، فأذننى اليازوري راجعا . وأقام على ذلك اياما .

فخف على قلب رفق ، وقويت رغبته في اصطناعه . وصار اذا وصل الى داره أمر اليازوري بالنزول معه ، فينزل ويجلس معه ويحدثه ، وكان حلو الحديث فكاهة المحاضرة . فأطال جلوسه معه ، وبقي رفق اذا غاب عنه يشفق اليه ، واذا هم بالقيام عنه امسكه الى ان تحضر المائدة ، وأكثر منه حتى عد من خواصه .

ولما ضجرت أم المستنصر من عرض خدمتها على أبي نصر ابراهيم أخي أبي سعد سهل التستري ، وامتناعه ، حتى وقفت أمور خدمتها وبقي بابها مغلوقا مدة ثلاثة اشهر ، قال رفق في بعض الأيام لليازوري ، وقد أفضى به الحديث الى كثرة رغبة السيدة أم الخليفة في أبي نصر وامتناعه : إني أرى رايا ، فما عندك فيه ؟

قال اليازوري : ما هو ؟

قال : تكتب رقعة تلتمس خدمة السيدة وتعرض نفسك عليها .

فقال اليازوري : كنت أظن جميل رأيك في وإيثارك مصلحة حالي

فأكذبني ظني .

فقال : بماذا ؟

قال : لهزئك بي . فاني قد اجتهدت في العود الى قرية كنت فيها

فبخل علي بها . فكيف إذا تعرضت لهذا الأمر الكبير ومناوأة الوزراء ؟

فقال له : اما ترضى بي سفيرا لك في هذا الأمر وعلي استغراغ

الوسع لوجوب حَقك علي ؟ فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض في ذلك، فقد أدركنا ما نؤثره . وإن تكن الأخرى ، فعلى أكثر من العطلة ما نحصل .

فاستجاب الى ذلك ، وكتب رقعة يعرض نفسه وماله على السيدة ، ويخطب خدمتها ويبدل الاجتهاد فيها . فأخذ رفق الرقعة وركب من الغد الى القصر ، ودخل الى السيدة وقد أحضرت أبا نصر وعادوته في الخطاب وهو على حاله من الامتناع الى أن أضجرها . فانتهز رفق الفرصة بضجرها وقال : يا مولاتنا قد طال غلق بابك ووقوف خدمتك وكثرة امتناع الشيخ أبي نصر مما تريد منه . وههنا من أنت تعرفينه ، وهو رجل مسلم وقاض ، وكثير المروءة ، وهو مستغن بماله وأملاكه عن التعرض لمالك ، وهو ثقة ناهض كاف .

فقلت: من هو؟

فقال القاضي أبو محمد اليازوري وهذه رقعة ، فأمرته بتسليمها الى أبي نصر . وقالت: ما تقول فيه؟

فلم يصدق بذلك وقال: يا مولاتنا ، هو والله الثقة الأمين الناهض الذي يصلح لخدمتك ، وفيه لها جمال ، وما تظفرين بمثله . فوقع ذلك منها بالموافقة لما كان في نفسها من الغيظ بامتناعه عليها ، وقالت لرفق : قل له يجلس في داره غدا الى أن أنفذ اليه . فسر رفق بذلك سرورا كبيرا وخرج ، فرأى اليازوري فقال له : أقمح أم شعير ؟

قال : بل بر يوسفى - وقص عليه وقال له : اغد الى دارك فلا حاجة الى الاجتماع اليوم ، وإذا كان الغد فاجلس حتى يأتيك رسول السيدة .

ففعل ، وجاء من الغد الرسول يستدعيه . فركب الى باب السيدة وقد جلست له وراء المقطع ، وردت اليه أمر بابها والنظر في ديوانها الذي هو باب الريح ، فبلغ ذلك الوزير أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحى فشق عليه كون هذا الأمر لم يكن على يده مع علمه

أنه لا يقدر عليه ، فإن السيدة لم تكن تسمع قوله لما في نفسها منه بقتل أبي سعد ، ولم يسعه الا المجاملة . واستدعى أمراء الأتراك وأمرهم بالمضي اليه وتهنئته ، فلما دخلوا على اليازوري تلقاهم وأعظمهم لسعيهم اليه ، وعندما هنؤوه شكرهم وأثنى عليهم وقال : ما أنا الا خادم ونائب لموالي الأمراء . أسأل في تشريفي بما يعن لهم من خدمة أنهض فيها وأبلغ الغرض فيما يرسمون .

فنهضوا ، وقام لوداعهم واتوا الى الوزير (الفلاحى) وأعلموه بما كان من اليازوري ، فقلق لذلك . ولم تطل الأيام حتى قبض على الوزير وقتل ، وأقيم بعده في الوزارة أبو البركات الحسين بن محمد الجرجرائي . فأقبلت حال اليازوري تزيد ومنزلته ترتفع وأمره يتأكد وخلعت عليه السيدة خلعة ثانية ، ولقب بالملكين الأمين عمدة أمير المؤمنين . وأمرته أن لا يقوم لأحد ، فان خدمته لا تقتضي اعظام أحد اذا دخل اليه . فكان يعتذر الى من يأتيه من الجلة الرؤساء والأكابر عن ترك القيام ويقول : لو ملكت اختياري لبالغت في تكريمكم بما تستحقونه - الى أن تمهد عذره في ذلك ، مما خلا القائد الأجل عدة الدولة رفق الذي كان سفيره : فانه كان اذا أقبل اليه وثب قائما ووفاه حقه من الاعظام فبلغ ذلك السيدة فقالت له : لا تتحرك لأحد بالجملة !

فكان بعد ذلك اذا جاء ، يعتذر اليه فمكث كذلك مدة ، وحاله اخذ في الترقي ورئاسته تزداد اجلالا الى أن صار يحضر بحضرة الخليفة المستنصر اذا اراد ان يستدعي الوزير كما كان قد تقرر لأبي سعد التستري مع الوزير الفلاحى فششق هذا على الوزير ابي البركات . وذلك انه كان اذا حضر اليازوري عند المستنصر تحدث طويلا ، وتكون السيدة من وراء المقطع فيدور بينهم الكلام فيما يحتاج ثم استدعي الوزير ابي البركات فاذا دخل وعرض ما يريد من أمور الدولة لا يجيبه الا اليازوري ، ثم يلتفت الى الخليفة بعد ما يجيب الوزير ويقول : اليس هو الصواب ؟

فيقول الخليفة : نعم .

ويخرج الرسول من وراء المقطع ويقول عن السيدة : هو الصواب . فصار الوزير كأنه انما يعرض على اليازوري لاعلى الخليفة والسيدة ولا يقدر على الاعتراض فيما يقوله ولا يجد بدا من امتثال ذلك .

فشق عليه ما صار اليه واخذ في اعمال الحيلة فأشار عليه ابو الفضل صاعد بن مسعود ان يحسن للخليفة تولية اليازوري القضاء ، فاذا تقلد القضاء وقع في هور كبير وشغله عن ملازمة السيدة فيصل الوزير حينئذ الى استخدام ولده مكان اليازوري ، ويستوي له الأمر ويملك جهتي السلطان والسيدة .

فاتفق حضور قاضي القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عند الوزير وتقلقة من خليفته ابي عبد الله محمد القضاعي وابي عبد الله احمد بن ابي زكريا وشكوى المذكورين من قاضي القضاة مع توقع ابي محمد اليازوري وتخلفه في داره اياما فخلا الوزير بالخليفة واعاد عليه ما ذكره كل من القاضي وخليفته وشنع امر قاسم وقبحه . فقال الخليفة : فمن نستبدل به ؟

فقال : عبيدك كثير ، وبين يديك من يتجمل الحكم به مع ثقته وامانته وقربه من خدمتك .

فقال : ومن هو ؟

قال : القاضي ابو محمد .

قال : ذاك في خدمة مولاتنا الوالدة ، ولا تفسح له في ذلك فقال : يا امير المؤمنين هي - خلد الله ملكها - اغير على دولتك واحسن نظرا اليها من ان تحول بينها وبين ما يجمعها ومع هذا فلم ينقل مما هو فيه الى ما هو دونه ، بل الى ما هو اوفى منه . فأجاب الى ذلك وقام وقد استقر لهذا وتم له ما اراده ، وشرع في الحال في كتابة سجله واعداد الخلع له ليخلع عليه في غد ذلك اليوم خوفا من نقض ما استقر .

وبلغ ذلك كله القائد رفق فأنفذ الى اليازوري وقص عليه الخبر وقال له : تلتطف في أمرك كما تريد - فعظم هذا على اليازوري وخاف

من ابعاده عن خدمة السيدة ، فانها كانت اجل الخدم واوفاهها
واسنأها محلا واغناها : فان كل من كان في الدولة من وزير وامير
وغيرهما محتاج اليه .

فلما كان مع عشاء الآخرة حمل على نفسه وهو محموم ، وركب
الى باب الريح ، ودخل واعلمها مكانه ، فأكبرت حضوره في مثل ذلك
الوقت مع ماتعلمه من توعك بدنه ، فخرجت وراء المقطع وسألته عن
حال مرضه وما الذي دعاه إلى العناء في هذا الوقت على ما هو عليه ،
فرمى نفسه بين يديها وقص عليها القصة كلها وقال : إنما الغرض
إبعادي عن خدمتك وحرمانى السعادة التي الحقتني بها ليقع التمكن
مني .

قالت : وما الذي تكره من ذلك ؟
فقال : يامولاتنا ، هور الحكم واسع ، وأحوال قاضي القضاة
قاسم بن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام
المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعية إلى تجديد
إصلاحه وإحكام نظامه ، وفي هذا شغل كبير ؟

فقالت : لا يضيق صدرك بهذا الأمر ، فبابي لك ، وخدمتي موفورة
عليك ولا استبدل بك أبدا .
فقال : يامولاتنا ، قد قدمت القول إن هور الحكم كبير واسع ،
واشتغالي به يحول بيني وبين ملازمة بابك .

فقالت : خلفاؤك في الحكم ، القضاءي وابن أبي زكريا هما ينفذان
من الأحكام مايجوز تنفيذه . فإذا تحررت الأحكام نزلت ففصلت
ذلك ، وقرر لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام . فإذا نزلت كان
ولداك ينوبان عنك في تنفيذ أمور خدمتي . وهذا التقرير لا يغلبك فعلة .
فقبل الأرض لها ودعا وشكر وانصرف .

فلما كان في غد ذلك اليوم وهو الثاني من المحرم سنة إحدى وأربعين
وأربعمائة ، استدعي إلى حضرة أمير المؤمنين وخلع عليه وقرىء
سجله في الإيوان ، وخرج والدولة بأسرها بين يديه ، فأقام في تنفيذ

الأحكام عدة أيام وولده ينوبان عنه في باب الريح . وجعل الوزير يبعث للسيدة من يطارحها في ذكر بابها ويعرض لها بذكر ولد الوزير . فقالت : وما هو الأمر الذي يعجز ولدا القاضي أبي محمد عنه ، وقد لقنا فعل أبيهما وفهماً منه ما يحتاجان إليه ، ومع ذلك إلى أن يجيء أبوهما ، وما كنت بالذي يستبدل به بوجه ولا سبب . فلما سمع ذلك الوزير أبو البركات ، أسقط في يده وقال : اردنا وضعه ، والله تعالى يريد رفعه .

فقال له أبو الفضل صاعد : أما إذا جرى الأمر بخلاف ما ظنناه وأملناه ، فليس إلا مجاملة الرجل وموائقته على السلامة ، فتواثقا وتعاهدا . وصار لا يسلم على الوزير ولا يجتمعان إلا يوما في الشهر ، يحضر إليه في داره . فإذا صار إليه احتجب الوزير عن كل أحد ، وخلا به ، وبالح في إكرامه ، وهو في الباطن يدبر عليه ، فكفاه الله أمره ، وقبض عليه وشغرت رتبة الوزارة عدة أيام ، والسيدة تعرضها على اليازوري وهو يمتنع . فأقيم أبو الفضل صاعد وخلع عليه وعمل واسطة لوزير فصار إذا أحب أن يعرض على الخليفة أمرا مما يتعلق به يتقدم اليازوري إلى الحضرة ، ثم يستدعي بأبي الفضل ، فإذا عرض ما أحب لآجيبه إلا اليازوري ، فصار في نفسه منه مثل ما كان في نفس غيره من الوزراء . وأقبل ينصب عليه ويحمل الرجال على مكروهه ويوهمهم أنه إذا سأل لهم زيادة أو ولاية ، يعترضه اليازوري بما يبطل رأيه ويفسده . فاستدعى ناصر الدولة حسين بن حمدان بعض خواص اليازوري وقال له : اعلم أن القاضي له من الثناء الجميل كثير ، ونحن شاكرون له ، معتنزون بجميله ، مفتقرون إلى جاهه في جميع أمورنا . وأعتقاؤه من هذا الأمر لا يبرئنا من ذمنا إن وقفنا حوائجنا ، ويكون الشكر فيه لغيره إن قضيت . وهذا الرجل عميد الملك هوذا يحمل الرجال عليه ويشعروهم أنه يجهد في قضاء حوائجهم ، وأنه يعترضهم بما يبطلها عليهم ، وفي هذا الأمر ما يعلمه . فقل له عني : ياسيدنا ، أما إذ تريد شكر الرجال وسلامة صدورهم لك وخلص نياتهم في طاعتك ، فادخل في هذا الأمر . فإن احسنت عرفوا ذاك لك وشكروه منك ، وإن أسأت كان لك ضرره

وشره . وإلا فاعتزل جانبا ولا تلعب بروحك مع الرجال لئلا يتلفك أبو الفضل . وإن أذن لي في المثل بحضرته ذكرت له ذلك . فلما بلغ هذا لليازوري قال له : أمهلني الليلة وبكر إلي . فبكر إليه وهو خال فقال له : أعد علي قول ناصر الدولة .

فأعاده فقال : أقره عني السلام وقل له : واللّه إلا أدخل فيه ويكون لي خيره وشره ! فأبلغ ذلك ناصر الدولة ، فقال : هذا هو الصواب .

فلما كان بعد يومين قرىء سجله بالوزارة ولقب بالوزير الأجل ، الأوحد ، المكين ، سيد الوزراء ، وتاج الأصفياء ، وقاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين ، وخلع عليه في اليوم السابع من المحرم فنظر في الوزارة ، ومضى فيها مضي الجواد ، ونهض مسرعا بنهوض غبر به في وجوه من تقدمه .

وكاتب ملوك الأطراف فأجابوه بما يليق بقدره ووفور حقه من الرئاسة ، ما خلا معز بن باديس صاحب إفريقية ، فإنه قصر به في المكاتب عما كاتّب به من تقدمه من الوزراء ، وكان يكاتب كلا منهم « بعبده » ، فجعل مكاتبته « صنيعته » . وكان لابن باديس بالقاهرة نائب ، فاستدعاه اليازوري وعتب صاحبه وقال له : أظنه انتقصني عمن تقدمني إذ لم أكن من أهل صناعة الكتابة . وإن لم أكن أوفى منهم ، فما أكون دونهم . ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلًا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب .

فكتب إليه بذلك ، وقد أنكى اليازوري عليه عيونا يطالعونه بما يتفوه به ، فلما وقف ابن باديس على كتاب وكيله قال : ما الذي يريد مني هذا الفلاح ؟ أكتب له « عبده » وهو أكار ؟ واللّه لا كان هذا أبدا ! وإن الذي كتبت به إليه لكثير .

فطالعه عيونه بقول ابن باديس . فأحضر الوكيل وقال له : قد جرى صاحبك على عادته في الجهل . فاكتب إليه بما يردعه ، وإلا عرفته بنفسه إذ لم يعرفني .

فكتب إليه بذلك فأجاب بأقبح من الأول . فدرس إليه اليازوري من تلطف حتى أخذ سكين دواته . فلما وصلت إليه أحضر الوكيل وقال له : قد كنت أظن بصاحبك أن الذي حملة على ما كان منه نزوة الشيبية وقلة خبرة بما تقضي به الأقدار ، وأنه إذا نبه تذببه . فإذا الجهل مستول عليه ، وظنه بأن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه ، والوصول إليه بما يكره . وقد تلطفنا في أخذ سكينه من دواته ، وهاهي ! فأنفذها إليه وأعلمه أنا كما تلطفنا في أخذها فإننا نتلطف في ذبحه بها - ودفعها إليه ، فكتب الوكيل بذلك إليه فازداد شرا وبطرا وطغيانا . فدرس إليه من أخذ نعله - وكان يمشي في الأحذية السندية - فلما وصلت أحضر الوكيل وأعلمه بما انتهى إليه من جهل صاحبه ، وقال : اكتب إلى هذا البربري الأحمق وقل له : إن عقلت وأحسنيت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه

فكتب إليه ، فجرى على عادته في إطلاق الكلام القبيح ، فتشمر له حينئذ اليازوري ، وبعث مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم ، أحد الأمراء ، إلى طرابلس المغرب ، وبها من العرب زغبة ورياح وقد حدثت بينهما حروب ، فسار إليهما بخلع كثيرة وأموال وافرة ليصلح بينهما . فتحمل ماكان بينهما من الدماء ، ودفع إليهم الديات ، وزاد في إقطاعاتهم . وبعثهم على محاربة إفريقية وأبسا حهم ديار ابن باديس ، وقام في هذا قياما عظيما حتى سار المذكورون واستولوا على أعمال القيروان وضمايقوا ابن باديس وحصروه إلى أن نفدت أمواله وقلت عدده، وتفلت منه رجاله وأشرف على التلف ففر بدشاشته في زي امرأة من القيروان إلى المهديّة ، وترك حرمه وداره وأمواله وغلمانها . فأخذ العرب المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا ماكان في قصوره وجالوا في المدينة وأخربوها . وحمل ماذهب إلى القاهرة من الآلات والأسلحة والعدد والخيام ، وكان لدخول ذلك يوم عظيم .

وكان في البحيرة طائفة يقال لها بنو قرة قد اقتطعوها وملكوها وعمرها ضياعها ، واشتدت شوكتهم ، وخشن جانبهم وعظم أمر

مقدميهم حتى انتشر ذكرهم ونل لهم عدوهم وثقل امرهم حتى (على) ولاة الاسكندرية ، واجتمع معهم الطلحيون فصاروا يدا واحدة . وكانت لهم واجبات على الدولة ، ولم يكن لهم إقطاع ، بل كان ما يستحقونه من واجباتهم يحمل مع واجبات العسكر بالاسكندرية إلى الوالي فينفقه فيهم . وكان الوالي بالاسكندرية في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ناصر الدولة حسين بن حمدان والد ناصر الدولة الثائر بالقاهرة على المستنصر . فلما انقضت سنة أربع وأربعين وأربعمائة استحق الطلحيون على الدولة عن واجباتهم ثلاثة آلاف دينار ، فواصلوا اقتضاء ناصر الدولة إنفاقها فيهم ، فوعدهم ، وكتب إلى الحضرة يلتزم لهم ذلك . فوعده الوزير أنه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقاتهم حمل ذلك في جملته ، وكان قد بقي لحمل المال مدة شهرين ، فاستبعدوا الصبر إلى ذلك الوقت وواصلوا مطالبته ، وحملوا بني قره على معونتهم عليه ، فاضطهدوه والزموه بالمسير معهم ومع جيرانهم الطلحيين إلى الحضرة لالتماس ذلك . فلم يجد بدا من إجابتهم ، وسار معهم إلى الجيزة وطلع إلى الوزير وعرفه الحال . فقال : ما أخرجنا ذلك عنهم إلا لأن السنة كثيرة النفقات والطوارئ . ولكن هذه ألف دينار ، فخذها وأنفقها فيهم إلى أن نحمل باقي مالهم مع مال العسكر .

فأخذ الألف وعاد إليهم وعرفهم ما قال الوزير . فامتنعوا من أخذ الألف ، وذكروا أنهم قد تعبوا وكلفوه المسير معهم ولا يرجعون إلا بعد قبض الثلاثة آلاف . والزموه بالعود . فعاد وعرف الوزير ما كان منهم . فغضب وأمر لهم بألف أخرى وقال : قد ذكرنا لك أنا لم نؤخر عنهم ذلك إلا لضيق الحال وانتظار ما يصل من الريف فنحمل إليهم باقي استحقاقهم . ولم يبق الآن إلا ألف ، ونحن نحمل إليهم ذلك بعد هذا .

فعاد إليهم ناصر الدولة ، فأبوا إلا أخذ الجميع ، وأنهم لا يبرحون من مكانهم إلا بجميع ما يستحقونه وجفوا في الخطاب . فعاد إلى الوزير وعرفه ما كان منهم . فاشتد غضبه وقال : اجابتهم

الى ما التمسوه دفعة بعد أخرى طمعهم. ووالله لا أطلقت لهم درهما واحدا! - واستعاد الالفي دينار من ناصر الدولة ، وتقدم بتجريد العسكر لهم. فتسرع من خف مع يمن الدولة كافور الشرابي وساروا اليهم ، اذا بهم متأهين للقائهم ، فجرت بينهم نوبة قتل فيها اثنان من العسكر ، وحال بينهما الليل. فلما بلغ ذلك الوزير عظم عليه اقدامهم على العسكر ، سيما بني قره ، فانهم كانوا أشد حربا من الطلحين.

وكان بالقاهرة من مقدميهم ثلاثة نفر ، وهم ضيوف مكرمون ، فأشير على الوزير بقبضهم ليكف عادية باقي بني قره . فاستدعى صاحب الستر سيف الدولة مبشر ، ومتولي الشرطة سنان الدولة ابن جابر ، ومتولي الصناعة عظيم الدولة عطاء ، وأمرهم بأخذ الثلاثة ليلا وتسييرهم تحت الحفظ والحوطة الى الجيزة والتحيز بهم عن العسكر الى حيث يأمنون على أنفسهم ، وتخزية سبيلهم . ففعلوا ذلك . وأصبح الناس وقد علموا بمضيهم . وكلموا الوزير في ذلك فقال : قبح السمعة في القبض عليهم وهم في ضيافتنا منعني من ذلك . فهم في هذه الحال كالحرم . فلم أستجز فعل ذلك ، بل أطلقتهم ، والله لا أخذتهم إلا من ظهور دوابهم !

فقال شخص من الأكابر يعرف بعجلان بن مطر اللواتي . قد فعل هذا الوزير شيئا لم يسبقه إليه أحد ، من إطلاق هؤلاء القوم ، واستحيي فيهم بما فعله . والله ليظفرن بهم لأن هذا تقليد البغي ، فإن كان فيهم بعد ذلك كائن فالدائرة عليهم .

فكأنما نطق بالغيب : فإنهم تشمروا عند وصول الثلاثة الى الحاجر ونزلوا به . وأخذ الوزير يجر العساكر لهم حتى كمل له ما أراد ، وسيرها وقد تجمعت حشود بني قره . فالتقوا بكون شريك فكانت الدائرة عليهم وقتل منهم خلق كثير وانهزموا . فتبعهم العسكر ظنا أنهم يعودون الى اللقاء ، فلم يثنهم شيء عن قصد برقة ، وأسلموا أموالهم وكل ما في أيديهم للنهب ، ففاز به العسكر وغنموه ، وانقلعت شأفة بني قره والطلحين من البحيرة ، الى

اليوم ، وبقوا مشردين مطردين يجاورون العربان على اقبح صورة
أربعين سنة •

وقد كان الوزير لما اخرج العسكر لقتال بني قرة ، فند اهل الدولة
رايه ، وحكموا انهم لا ينتقلون من البحيرة ابدا لقوة بأسهم وشدة
شوكتهم ولانتلافهم بالطلحيين • فأكذب جميل فعله ظنهم • ثم إنه
راى في كون العساكر في أعمال البحيرة كلفة كبيرة • فنقل بني
سندس من الداروم بفلسطين ، وكانوا قد ثقلت وطأتهم بتلك الأعمال
وصعب أمرهم ، فسدى بهم الى البحيرة ، وهم أعداء قيس ،
وأوطأهم ديارهم واقطعهم أرضهم ، فامتحنى اسم بني قرة •

وكان تجهيزه العساكر لبني قرة في شهر رمضان سنة ثلاث
وأربعين وأربعمائة ، وتسييرهم في مستهل شوال • فخطأه الناس
كلهم وغلطوه في فعله وحكموا بأنه لم يجر قط عسكر في شوال
فظفر ، وانهم لا يأمنون على العسكر أن يهزم وينكسر • وكان يمن
الدولة له زم القصور والخدمة في الرسالة ، وهو أيضا زمام الأتراك
والقيصرية ، وليس في الدولة من يجري مجراه جلالة ، وبينه وبين
الوزير مباينة شديدة ، ويتوقع له الشر ويتربص به الدوائر • فصار
ينتظر انهزام العسكر ليقبض عليه ، والأقدار تؤيده بالسعادة
العظيمة • فلما أراد أن يسير العسكر من الجيزة رتب على الميمنة
سنان الدولة بن جسابر ، وعلى الميسرة حصن الدولة حيدرة بن
منزوي ، وجعل في القلب ناصر الدولة بن حمدان ، وهو المقدم
عليهما - وقرر معه أن يكون اللقاء في يوم الخميس الخامس من
شوال ، بطالع تخيره له • وبعث معه عدة من طيور الحمام ليطالعه
بما يكون منه ومنهم يوما بيوم • فلما كان اليوم الذي تقرر فيه
اللقاء ، جلس الوزير في داره وهو شديد القلق كثير الاهتمام بأمر
العسكر ، واحتجب عن الناس لشغل سره بهذا الأمر • وجلس
ينتظر سقوط الطائر بما يكون • فلم يزل كذلك الى الساعة الخامسة
من النهار • فقام ليجدد طهارته وعبر بالبدستان وقد أطلق الماء في
مجاريه ، فرأى ورقة تمر على وجه الماء فأخذها متفائلا بها فوجدها

اول كتاب كان وصل من القائد فضل الى الحاكم بأمر الله ، قد ذهبت طرته وعنوانه وبقي صدره ، وهو : كتب عبد مولانا الحاكم بأمر الله امير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة الخامسة من نهار يوم الخميس الخامس من شوال ، وقد أظفـره الله عز وجل بعدو الله تعالى وعدو الحضرة المطهرة أبي ركوة المخدول • وهو في قبضة الاسار ، والحمد لله رب العالمين •

فلما وقف على ذلك سجد الى الأرض شكرا لله تعالى واستشعر الظفر وعجب من موافقة اليوم وعدة الأيام من شوال والاعلام بالظفر • ثم تجهز للصلاة ، فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بني قره وانهزامهم وبما من الله تعالى به من الظفر بهم • فأخذ الكتاب والورقة التي وجدها في الماء وركب الى القصر ودخل الى الخليفة المستنصر بالله وأوقفه على الكتاب ، فسر وابتهج • وأراه الورقة التي وجدها في الماء وقال : هذا أعجب يا امير المؤمنين - وحديثه حديثه •

فعجب من هذا الاتفاق ثم تواصلت الاخبار من ناصر الدولة بالبشرى وشرح الحال في الظفر وانهزام القوم • فخلع على الوزير ، وزيد في القابه : الناصر للدين ، غياث المسلمين • فقوي أمره ، وذل خائب أعدائه ، وعادوا يتقربون إليه بالخدمة ، فأغضى عنهم ولم يؤاخذ احدا منهم • وقدمت الرؤوس ممن قتل وأموال كثيرة من أموال أهل البحيرة •

فلما خلا سر الوزير من أهل البحيرة ، نظر في أمر مدينة صقلية فإن أهلها كانوا أعلنوا خلافهم ، وكاتبوا ابن باديس صاحب إفريقية وملكوه عليهم ، فأساء فيهم السيرة • فثاروا به وأخرجوه وكاتبوا ملك الروم فبعث إليهم بطريقا فحكم فيهم مدة ، فلم يصبروا له ووثبوا به وأخرجوه عنهم ، وبعثوا إلى المستنصر يطلبون عفوه ويستصرخونه فكتب الى مستخلص الدولة الكلبي ابن أبي الحسين ، فوليهم مدة • ثم بعثوا يشكون منه ، فسير الوزير صمصام الدولة ابن لؤلؤ ، أحد الأمراء - وكان رجلا عاقلا - ومعه

خلع نفيسة وأمره أن يصلح ذات بينهم ، فإن رضوا بأبن أبي الحسين خلع عليه وقرا سجله بتجديد ولايته •

وإن امتنعوا من الطاعة له ، لبس هو الخلعة وقرا سجلا كتب له بولاية صقلية ، وأن يتلطف في إخراج بني أبي الحسين من جزيرة صقلية ويحملهم الى القاهرة - فصار الى صقلية وتحدث في الصلح • فامتنعوا من ذلك ولم يجد فيهم حيلة فأظهر سجله ولبس خلعتة فرضوا به • وأخرج جميع من كان بصقلية من بني أبي الحسين ، وهم زيادة على ثلاثين رجلا ، وخت منهم • فاستقام أمره •

وبعث الوزير رسله الى اليمن ، وقد ثار فيها علي بن محمد الصليحي • فما زالوا به حتى دخل في طاعة الدولة وبعث النجاوى الى القاهرة ، ومعها هدية جلييلة تبلغ عشرة الاف دينار • فجاء من ذلك ما ليس في المظنون ولم ير مثله فيما تقدم •

ثم إنه عطف على النوبة واضعف عليهم البقط فحملوه واستمر بعده وكانت الهدنة قد انعقدت مع الروم في وزارة أبي نصر الفلاحى ، وقدم من قبلهم رسولان ، أحدهما يعرف بأبن اصطفانوس هو المتكلم - وكان داهية أديبا شاعرا نحويا فيلسوفيا نظارا ، ولد ببلاد الروم ونشأ بأنطاكية ، ودخل الى العراق وأخذ عن العلماء والأدباء ، فاشتهر ذكره وبعد صيته •

والآخر صاحب حرب يعرف بميخائيل • فأعجبهما حسن زي الدولة وكريم أفعالها وجميل سيرتها ، سيما ميخائيل فإنه أطربه ذلك ، وكان خيرا عاقلا • فلما عادا الى بلادهما ، قضت الأقدار بموت مملك الروم وتملك ميخائيل هذا بعده • فأقام في المملكة نحو الخمس سنين •

وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية شيء من الغلال ، فاشتدت المسغبة وغلا السعر. وكان لخلو المخازن سبب : وهو أن الوزير الناصر للدين أبا محمد اليازورى لما أضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات الجرجرائي ، كان ينزل الى جامع عمرو بن العاص بمصر في يومي

السبت والثلاثاء من كل اسبوع ليجلس في الزيادة منه للحكم ، على رسم من تقدمه من القضاة ، فإذا صلى العصر طلع الى القاهرة • وكان في كل سوق من أسواق مصر عريف على ارباب كل صناعة يتولى أمورهم • ومن عادة اخبار مصر في ازمة الغلاء انها متى بردت لم يرجع منها الى شيء لكثرة ما تغش به • وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز ، وبجانبها دكان رجل صعلوك يبيع بها الخبز ايضا ، والسعر يومئذ اربعة ارطال بدرهم وثمان • فرأى الصعلوك ان خبزه قد كاد يبرد ، فخاف من كساده فنادى عليه : اربعة ارطال بدرهم ليرغب الفقير فيه • فمال الناس إليه لأجل تسمححه بثمان درهم ، واشتروه بأجمعه ، وبقي خبز العريف لم يعطف عليه احد فغضب ، واكل بالرجل عونين من الحسبة أغرماء عشرة دراهم • فلم يطق ذلك ومضى الى الجامع واستغاث بقاضي القضاة وكان هناك • فأحضر المحتسب وأذكر عليه فقال : العادة جارية باستخدام عرفاء في الأسواق على ارباب الصنائع ، وتقبل قولهم فيما يذكرونه ، وقد حضر عريف الخبازين بالسوق الفلاني واستدعى عونين من الحسبة ، فوقع الظن انه أذكر شيئاً يوجب فعل ذلك ، فاستدعى القاضي الخباز وأمره ، فقص على المحتسب خبره • فقال القاضي للمحتسب : رجل يرخص على الناس اقواتهم فيجازي على ذلك بما يؤذيه - ثم سأل الخباز كم أخذ منه • فقال : أخذ مني العريف خمسة دراهم ، وكل ما في يدي مائة درهم •

فقال : يصرف هذا العريف عاجلاً ، ويغرم ما أخذه من هذا المسكين ويعاد إليه •

والتفت الى صاحب دواته فقال له : انظر ما معك فادفعه الى هذا الخباز فناوله قرطاساً فيه ثلاثون ربيعاً ، فكاد عقل الخباز يذهب من شدة فرجه • وعاد الى دكانه فإذا عجنته الثانية قد خبزت فنادى عليها : خمسة ارطال بدرهم ! فمال الناس إليه واشتروا خبزه لرخصه • فخاف من هناك من الخبازين تلاف اخبارهم ، فإنها بردت ، وباعوا مثل بيعه • فنادى : ستة ارطال بدرهم ! فقادتهم

الضرورة الى بيع اخبازهم كذلك • وصار يريد مكايده العريف بإرخاص السعر ويزيد رطلا رطلا ، والخبازون يتبعونه في بيعه خوفا على بوار اخبازهم ، الى ان بلغ النداء : عشرة أرطال بدرهم ، وانتشر ذلك في سائر البلد ، وتسامع به الناس فتسارعوا إليه ، حتى إنه لم يخرج قاضي القضاة من الجامع إلا والخبز في جميع البلد عشرة أرطال بدرهم •

وكانت العادة أنه يشتري للديوان السلطاني في كل سنة غلة بمائة ألف دينار وتجعل متجرا فلما عاد قاضي القضاة الى القاهرة مثل بحضرة الخليفة المستنصر ، وعرفه ما من الله تعالى به في هذا اليوم من إرخاص السعر ، وتوفر الناس على الدعاء لأمير المؤمنين ، وأن الله - جلت قدرته - فعل ذلك ، وحل إسعاد الناس بحسن نية أمير المؤمنين في رعيته بغير موجب ولا فاعل له ، بل بلطف الله تعالى واتفاق قريب يسير • وقص عليه الخبر ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن

المتجر الذي يقام بالغلة فيه اوفى مضره على المسلمين ، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، حتى تتغير في المخازن وتتلف . والمصلحة ان نقيم متجرا لاكلية على الناس فيه ويفيد اضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغير في المخازن ولا انحطاط سعر : وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما اشبه ذلك . فامضى المستنصر له ما رآه ، واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس مدة سنين .

ثم قصر النيل في سنة سبع واربعين بعد خمس سنين من نظره في الوزارة ، ولم يكن بمخازن السلطان من الغلة الا ما ينصرف في جرايات من في القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير . فورد على الوزير من ذلك ما شغل سره وكثر له فكره . ونزع السعر الى ثمانية دنانير التليس (٧) الدوار ، واشتد الامر على الناس .

ففتح الله له من التدبير ان نظر في امر النواحي . وكانت عادة التجار أن يقرضوا المعاملين حين اعسارهم وضيق الحال عليهم في المقام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ، مالا يبتاعون به منهم

غلاتهم عند ادراكها ليصيبوا فيها ربحا. فاذا استقرت مبيعاتهم حضروا مع المعاملين الى الديوان وقاموا عنهم للجهد بما كتب عليهم ، ويثبت ذلك في روزنامج الجهد مع مبلغ الغلة . فاذا ادركت غلاتهم وصارت في الجرون (٨) اكتالها التجار وحملوها الى مخازنهم يريدون فيها السعر الغالي . فمنع الوزير من ذلك في هذه السنة ، وكتب الى العمال بسائر النواحي ان يستعرضوا روزنامجات الجهابذة ويحصروا منها ما قام به التجار عن المعاملين ومبلغ الغلة الذي وقع الابتياح عليه وان يقوموا للتجار ما وزنوه للديوان ويربحوهم في كل دينار ثمن دينار، تطييبا لقلوبهم ، وان يضعوا ختمهم على المخازن ويطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم فيها .

فلما تحرر ذلك جهاز المراكب لحمل الغلات من النواحي ، واودعها في المخازن السلطانية بمدينة مصر ، وقرر ثمن التليس ثلاثة دنانير بعد ما كان بثمانية دنانير . وسلم الى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الاسواق ، ووظف ما تحتاج اليه مصر والقاهرة ، فكان الف تليس دوار كل يوم : مصر ، سبعمائة . والقاهرة ثلاثمائة . فاستمر لهذا التدبير مدة عشرين شهرا حتى ادركت غلة السنة الثانية ، فتوسع الناس بها وزال عنهم الغلاء ، وما كادوا يتالمون لحسن هذا التدبير .

وبلغ ميخائيل متملك الروم (٩) ما بمصر من الغلاء المذكور ، فرأى لكثرة محبته في الدولة ان يحمل الى القاهرة مائة الف قفيز من الغلة وقدم كتابه وعين الغلة والكيل الذي تستوفي به عند وصولها ، وسيرها الى انطاكية ، واعد هدية الهدنة على العادة وهدية من ماله ، فضعف هدية الهدنة . فلما رأى الروم ذلك منه نفرت قلوبهم وظنوا به الميل الى الاسلام وقتلوه واقاموا بعده رجلا يعرف بابن سقلاروس (١٠) من اهل انطاكية ، وكان عسيرا لجوجا خبيث الطباع . فقبض على الهديتين وقال : انا انفق ثمنها على قتال المسلمين .

وكان للوزير عيون بالقسطنطينية فكتبوا اليه بذلك . فسير مكيين الدولة ابن ملهم الى اللاذقية في عسكر ، فسار اليها وحاصرها .

ونودي في بلاد الشام بالغزو الى بلاد الروم . فلما اشتد الامر على اهل اللانقية بعثوا إلى ابن سقلاروس بما هم فيه . فكتب إلى المستنصر يستوضح ما الذي اوجب ذلك ؟ - فكتب إليه بأن الذي فعله في نقض ما استقر مع من تقدمه من الهدنة وقبضة الهدية اوجب ذلك . فأجاب بأنه يحمل الهدية . فاشتراط عليه إطلاق كل من في بلاده من الأسرى . فأجاب بأنه إذا أطلق من لهم في بلاد الاسلام من أسرى الروم ، أطلق من عنده من المسلمين . فأجيب بأنه لا يصح التماسه لذلك : فإن من أسر من بلاد الروم تفرقوا في الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ، ولا حكم للحضرة على جميع الممالك حتى يرتجع منها من صار في أيدي أهلها . وبلاد الروم بخلاف ذلك ، ومن حصل فيها من المسلمين كان كمن هو معتقل في دار واحدة لا يمكنه الخروج منها إلا بإرادتهم ، وبين الحالين فرق كبير . فأجاب بأنه يطلق من في بلاده من أسرى المسلمين . فاشتراط عليه مع ذلك النزول عما صار في أيدي الروم من الحصون الاسلامية ، فامتنع من ذلك وقال : إذا أسلم إلينا ما صار في أيدي المسلمين من حصون الروم ، سلم ما في أيديهم من حصون المسلمين . فثقل اليازوري الجيش بجيش آخر وقدم عليه الأمير السعيد ليث الدولة ففتحت اللانقية . وأجيب ابن سقلاروس بأنه لا يصح أن يسلم إليه ما صار في أيدي المسلمين من الحصون لأنهم قد ابتنوا فيها العمارات وأنشأوا البساتين فلا يصح تسليمها إليهم . فإنه يصير المسلمون لهم ذمة ، فأجاب بأنه يدفع إليهم ثمن أملاكهم وينقلهم إلى بلاد المسلمين . ثم أجابوا إلى تسليم ما في أيديهم من الحصون الاسلامية .

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هدية الروم أن تقوم في بيت المال ، وتحمل إليهم هدية قيمتها نحو الثلثين من هديتهم ليصير للاسلام مزية عليهم بالثلث . فاشتراط الوزير على ابن سقلاروس أن تكون قيمة ما يحمل إليهم من الهدية عوضا عن قيمة هديتهم النصف من ذلك . فأجابوا إليه .

فاشترط الوزير أن يؤدي إليه جزية كل من تضمه دار البلاط ، التي هي دار الملك ومحل الملك ومكانه . فامتنع من ذلك . فتقل الجيش بجيش ثالث ، فأوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويأسرون وينهبون ، فاشتدت بلية الروم ، وبعث ابن سقلاروس مكاتباته بالاذعان إلى القيام بالجزية عن دار البلاط ، وشرع في تجهيزها فبلغت ذيفا وثلاثين ألف دينار ، وحمل ذلك إلى أنطاكية . فبلغه صرف الوزير اليازوري ، فأعيدت إلى القسطنطينية . وزينت بلاد الزوم لموته وكثر فرحهم بما صرف عنهم من خشونة جاذبه .

واتفق أنه كان بالعراق رجل يعرف بأبي الحارث البساسيري صمار اسباسلار كبير القدر يبلغ اقطاعه نحو ثلاثين ألف دينار ، فوقع بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير القائم بأمر الله العباسي في سنة سبع وأربعين وأربعمائة وعانده إلى أن أخرجه من بغداد ، فقصد ديار بكر . وكاتب المستنصر ، وهو بأعمال حلب يرغب في الخدمة ويعرض نفسه ويستأن في الوصول إلى الحضرة ، وأنه في ثلاثمائة غلام . فأخذ الوزير الكتاب وقبله أحسن قبول . واستشار أهل الدولة في الاذن له ، وكلهم أشار بذلك وأن في قدومه ما يوجب مجيء غيره طمعا فيما ناله من الكرامة ، وفيه زيادة في عدد رجال الدولة . فلم يوافق على مجيئه وقال : هذا الرجل قد كان اقطاعه بالعراق ما يزيد على ثلاثين ألف دينار ، ومعه أولاد مولاه الملك أبي طاهر بن كاليجار وغيرهم من أولاد الملوك ، وأجلهم اقطاعه ألف ومائتا دينار ، فإن اقتصر به على مثل ما لهم من الواجب لم يرض ، وإن زيد عليه كان قبيحا . وأيضا فإننا لانطبق من عندنا اليوم من الاتراك ، فكيف إذا انضاف اليهم مثل هذه العدة؟ والصواب أن يبقى بحيث هو ، ونحسن إليه ونقيمه لمناسبة أعداء الدولة . فإن نهض بذلك كان الذفع للدولة والاسم لها . وإن قصر عنه كان ذلك برأسه .

واتفق وصول طغر بك السلجوقي من خراسان بالغز إلى بغداد في هذه السنة ، وللوزير بها عين . فكتبوا إليه بوصوله وأنه مزمع

على المسير من بغداد الى بلاد الشام ليملكها كما ملك بغداد . فقلق من ذلك لعظم أمر طغر بك ، وأنه دوح الممالك وقتل الملوك واحتوى عليها وانتشر صيته وكبر في نفوس الملوك شأنه ولم يبق له معاند يخافه . فرأى أن الحيلة أبلغ في مراده من دفعه عن البلاد بالاستعداد لكثرة ما معه من العساكر . وكتب اليه يهنئه بقدومه الى العراق ويبذل له من الخدمة ما يوفي على أمله ، وأن أرض مصر كلها بحكمه وأنه وإن كان مستخدماً لدولة ويدعو اليها ، فإنه يعلم كثرة الاختلاف ممن يجاورها في نسبها واتفاق الكلمة ووقوع الاجماع على الرضى بالخليفة الصحيح النسب الصريح الحسب الهاشمي العباسي ، وأنه لا يمتنع من الاقرار له بذلك - وأعطاه صفقة يديه على مبايعته وتسليم الدولة اليه ، وأنه قد اتصل به ازماع حضرته على التوجه الى الشام ، وأنه أشفق من تسليمها اليه أن تطأها عساكره مع كثرتها وتجمعها فتخربها وتعفي اثارها . فإن رأى اعفاءها من وطء العساكر لها ووصول ركابها اليها على وجه الفرجة والنظر الى دمشق وحسنها ، فلها عالي رأيها .

فلما وقف طغر بك على كتاب اليازوري قال . هذا كتاب رجل عاقل ، يجب أن يعتمد ما أشار به - وأذن للعساكر في العود الى بلادها . فمضى كل عسكر الى وطنه ، وقوض خيامه وضربها على الجانب الغربي يريد الشام . فكتب عيون الوزير اليه بذلك ، فقلق شديداً وكتب الى طغر بك لا تغرنك الأمانى والخدع بأن أسلم اليك أعمال الدولة وأخون أمانتي لمن غذاني فضله وغمرني احسانه وتتعين علي طاعته وموالاته . فإن كنت تسلم الي ما في يدك لصاحبك من بلاد العراق واعمالها ، سلمت اليك ما في يدي لصاحبى . والواجب أن تكون كلمة الاسلام مجموعة لابن بنت النبي ، الذي هو أولى بمكانه من غيره . وإن رغبت الى ما في الموادعة والمهادنة انتظمت الحال بين الدولتين وأمن الناس بينهما . فإن أبيت إلا الخلاف ونزع بك الهوى الى الظنون الفاسدة والأطماع الكاذبة ، فليس لك عندي إلا السيف . فإن شئت فأقم ، وإن شئت فسر

فغاض ذلك طغر لبك وقال . خدعني هذا الفلاح وسخر مني -
وكتب الى ابراهيم ينال أخيه . رد إلي العسكر مسرعا - فأنفذ
ابراهيم ليردهم فلم يرجع أحد منهم وقالوا : فينا من بينه وبين وطنه
شهران وثلاثة وخمسة ، وقد سرنا معه حتى وطىء الأعمال وملك
البلاد وفتح المدن واحتوى عليها وفاز فيها ، ولم نحصل منه الا على
التعب والنصب والخيبة . واذا كنا لم نصب في طول سفرنا خيرا فما
عسى أن نؤمله اذا عدنا ؟ - ومضوا . هذا وقد بث اليازوري عيونه
وجواسيسه في عسكر طغر لبك واستفسد اعيانهم والطفهم واكثر
امانيهم ومواعيدهم ، وتوصل الى زوجة طغر لبك ، والى ابي نصر
منصور الكندري وزيره ، والى ابراهيم ينال أخيه وصاحب جيشه
فمالوا اليه وتقاعسوا عن طغر لبك . وما كفاه ذلك حتى حمل
الخاتون زوج طغر لبك على قتله ، فقالت : اما بيدي فلا ، ولكني
اتحيز عنه بغلماني ، وهم حمية عسكره - وكانت عدتهم نحو اثني
عشر الفا - وفي اعتزالي بهم عنه ضعف لجاذبه . واعتزلت عن طغر
لبك بهم ، وكان ذلك سبب الظفر به .

ثم أن طغر لبك بعث في سنة خمسين وأربعمائة الى سنجار الفين
 وخمسمائة من الغز الى البساسيري فقدمها وظفر بها وقتل جميعها
وأفلت منهم نحو المائتي فارس . فلم يقاتل بعدها رجال الدولة
الفاطمية ، وعاد عن بغداد ، فقوي البساسيري وكثف جمعه .
وقصد أعمال العراق يفتحها بلدا بلدا ، والوزير يمدد بما يستعين به
على ذلك من المال والراي والتدبير ، الى أن وصل الى بغداد وناصب
القتال ، وقسم عسكره فرقتين ، فرقة تقاتل في النهار ، واخرى تقاتل
من صلاة المغرب الى الفجر ، حتى دخلها وأقبل يملك محالها
وشوارعها الى أن وصل دار الخلافة وحصرها ونصب عليها القتال
من كل جانب وفرق النقباب في جميع جهاتها . فلما أشرف على
أخذها صعد القادئ بأمر الله الى أعلى الدار واستشرف على الناس
وأقبل ينادي : يا أهل بغداد ! - ويحضهم على نصرته والدفاع عن
حوزته . واستنم من قريش بن بدران وطلب منه الأمان ، فأخذه
ومنع منه البساسيري ، واسلمه الوزير ابن المسلمة . واستولى

البساسيري على دار الخلافة بما فيها وكسر منبر الجامع وقال :
هذا منبر يعلن عليه ببغض آل محمد - وأنشأ منبرا آخر وخطب
عليه للمستنصر . ثم لف ابن المسلمة في جلد ثور وصلبه حتى جف
عليه فمات . واقامت الخطبة للمستنصر أربعين جمعة ، والقائم
معتقل في قلعة الحديثة عند مهارش نحو عشرة أشهر . وعزم
اليازوري أن يحمل الى مهارش عشرة آلاف دينار ويستخلص
الخليفة من يده ويحمله الى القاهرة على حال جميلة ، فاذا قرب
منها تلقاه بأهل الدولة أحسن لقاء وبالع في اكرامه وانزله في القصر
الغربي وحمل اليه ما يناسبه وأقام له الراتب السنوي في كل يوم
وجعل له مائة دينار في كل يوم وجعله يركب في موكب المستنصر بين
يديه يحجبه . فاذا ركب بين يديه عدة ركبات وانتشر في الأقطار خبر
هذا الحال ، خلع عليه وعقد له الوية الولاية للعراق وكتب عهده
بتقليده اياه وسيره اليه واعاده الى مملكته وخلافته من قبله . فمذعه
حادث القدر ، الذي حل به قبل ادراك ما في نفسه .

وكانت حلب قد تغلب عليها صالح بن مرداس من امراء بني كلاب
في ايام الظاهر لاعزاز دين الله علي بن الحاكم ، وكثف أمره ، الى
أن ولي امير الجيوش أنوش تكين الدزبري دمشق وأعمال الشام
فحاربه وقتله . فقام من بعده ابنه شبل الدولة - نصر فحاربه
الدزبري وقتله ايضا ، وملك حلب واستخلف عليها من غلمانته رضي
الدولة منجوكتين فأقام بها عدة سنين . فلما مات الدزبري تغلب على
حلب ثمال بن صالح بن مرداس في وزارة الجرجرائي . فكتب اليه
بولايته وقرر عليه مالا يحمله في كل سنة . وتمادى الحال على ذلك
الى ايام الوزير الناصر للدين أبي محمد اليازوري ، فلم يرض
بذلك . وعلم أنه لا يطيق صرفه ، فرجع الى عادته في اعمال الحيلة
واستعمال الخديعة ، وبعث اليه بقاضي مدينة صور ، فساس الأمر
مع ثمال وأحكم التدبير فيما قرر معه ، ووعدته ومناه حتى نزل من
قلعة حلب وسلمها الى وال من قبل المستنصر ، وسار من حلب يريد
القاهرة . فلما بلغ الى رفح بلغه القبض على اليازوري
فقال : والله - اني اموت بحسرة نظرة الى من استلني من ذلك الملك

وأخرجني بلا رغبة ولا رهبة الا بحسن السياسة . ولو رام ذلك مني لتعذر عليه .

وكان له من المآثر المرضية والخلال والأفعال الجميلة والأخلاق الرضية ما يتجمل الملوك بذكرها : منها أنه كانت له مائدة يحضرها كل قاض وفقيه وأديب وجليل القدر ، فيجتمع عليها قريبا من عشرين نسمة . حدث القاضي عمدة الدولة ابن حميد قال : كنت أجلس على يساره . فإذا ازدحموا وكثر تضاييقهم على المائدة ، جذبني إليه حتى يكاد ينحرف عن مجلسه . فأنكر يوما ونحن مجتمعون ، إذ استؤذن على الفقيه أبي عقبة ، فأمر بدخوله . فلما دخل لم يجد موضعا فجذبني إليه بحيث صرت إذا مددت يدي إلى المائدة لا أرجعها إلى فمي الا بكلفة ، خوفا أن أصيبه بها . فبينما أنا كذلك وقد مددت يدي ورجعتها ، وهو قد مد يده فلم أمهل حتى ترجع فأصاب مرفقي جوجؤ (١١) صدره ، فورد علي أمر عظيم من ذلك ، وتأخرت وقبلت الأرض وقلت : قد بسطنا إنعام سيدنا إلى حيث لا نستحقه ، وأخرجنا إلى سوء الأدب . ولو أنعمت بنصب مائدة نجتمع عليها بحضرته لكان لنا في ذلك الشرف الأوفى والفخر والأسنى ، ولم ننته إلى هذا الحد في سوء الأدب .

فقال : وما الذي أوجب قولك هذا حتى ذكرت ما ذكرت ؟ ولقد نكثت بإيراده .

فقلت : يا سيدنا نسيء أداينا فتغفر ونعترف بالخطأ فتذكره علينا ، ونعتذر عن ذلك فتلومنا عليه . فما ندري بماذا نقابل إحسانك ، ولا بأي لسان نشكر تفضلك .

فقال : وما الذي كان حتى تحتاج إلى كل هذا ؟ - وأقبل يجذبني وأنا أتقبض ، حتى زاد تمكني باجتذابه لي فوق ما كنت عليه أولا ، وقرب كتفي من صدره ، وهو منطلق الوجه ظاهر البشر . وكان قبل ذلك اليوم يسمع حديثنا على المائدة ولا يكاد يجيب لأنه كان كثير الصمت قليل الكلام لانسمع منه الا اللفظ القليل عن الكلام الكثير . فأبتدا ذلك اليوم يتحدث بما يستطاب حتى يزيل عني ما اعترانني من

الغم بما كان مني ، واقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازما له في المبيت والصباح ، فكنت اراعيه في حالاته كلها ليلا ونهارا فلا اراه يتغير علي منها شيء ، ولا يتبين لي منه غضب من رضى . فحدثت ابي بذلك فقال : يا بني ، اني لم اكن لأؤثر سماع ذلك منك ، فكيف سماع غيري له ؟ فلا تحدث به احدا ، وتلطف في تأمل ذلك الى ان تقف عليه ، فانك اذا حدثت به نسبت الى غلظ الطبع وثخانة الحس ، والبله .

فأقبلت أدقق التأمل له في حالتي غضبه ورضاه ، شهورا قبل ان يتبين لي : فكان اذا رضي اوردت وجنتاه بحمرة . واذا غضب اصفرت محاجر عينيه . فعرفت ابي بذلك فقال : يا بني ، هذا غاية في سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج .

وكانت طبائعه قريبة من الاعتدال ، فاذا احس بميل طباعه عما يعهده ، اخذ في اصلاحه حتى تعود الى الاستقامة . وحدثت بعض من كانت تقوم بخدمته من النساء قالت : كنت اتولى صلاح ما يشربه من الدواء في كل يوم ، وكان لا يعطل شربه يوما واحدا .

وذلك انه كان يشرب السكنجبين والورد اسبوعا ، ثم يريح نفسه ثلاثة ايام ، ثم يشرب المنقوع المغلي في الشتاء ، والمنجم في الصيف ، اسبوعا لكل منهما ، ويشرب ماء البزور اسبوعا ويشرب ماء الجبن ثلاثة ايام ، ويشرب ماء البقل اسبوعا ، ثم يشرب الراوند المنقوع كذلك ، ويريح نفسه بين كل دواءين ثلاثة ايام ولا يخل بذلك في صيف ولا شتاء .

وكان ندي الوجه كثير الحياء لا يكاد يرفع طرفه الا لضرورة . ولم يسمع منه قط في سؤال لفظة «لا» ، بل كان اذا سئل فيما يرى اجابة سؤاله اليه يقول «نعم» بإخفاض من طرفه وخفوت من صوته . فإذا سئل فيما لا يرى الاجابة اليه يطرق ولا يرفع بصره . وعرف هذا منه ، وكان لا يراجع فيه الا بعد مدة .

وكان كل من يحضر مائدته يستدعي منه الحضور بين يديه ليلا
ليسمروا عنده ، وكان فيهم من يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرف
كل منهم مجلسه الذي تقرر له . وكان كل من لا يشرب النبيذ يجلس
عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره ، وتوضع بين يدي كل
منهم الفواكه الرطبة واليابسة ، ويتفرد من لا يشرب بحلاوة توضع
بين يديه ، ومن يشرب يعمل بين يديه ما يستعمله ، وستارة الغناء
مضروبة . فيجلسون بين يديه ، وهو مشغول يوقع ، وهم يتحدثون
همسا وإشارة ، الى أن ينقضي أربه من التواقيع ، فيسند ظهره
وينشطهم للحديث فيحدثون . ويقول لمن عن يمينه : قد تجدد
اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه ؟ - فيقولون : سعادة حضرة
سيدنا تمهد له صواب الآراء ، وقد خصها الله تعالى من ذلك بما
لا تهدي عبيدها اليه .

فيقول : بل يقول كل منكم ما عنده في ذلك ، ولا يقوم في نفس
واحد منكم أن ما راه خطأ فيمسك عن ذكره ، فربما كان الصواب
مقرونا بذلك الرأي وهو ضالة تصيب من لم تجر عاداته بإنعام الفكرة
فيه .

فيصقع أحدهم ويقول : الذي يراه العبد على وجه الخدمة كذا
وكذا فلا يزال يسمع من واحد واحد حتى يستكمل الجماعة . ثم
يعطف على شماله فيقول : قولوا ! - فيفعلون كفعل الأولين ، وهو
يسمع ولا يرد على أحد شيئا ، فلا يصوب المصيب ولا يخطئ
المخطئ ، ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يتمحض له
الصواب ، ويصبح يرمي فلا يخطئ . وهكذا كانت أفعاله طول
مدته ، لم يستبد قط برأيه ولا انف من المشورة ، بل يقول
المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل ، وفي الاستشارة حل
عقول الرجال .

وبهذا العقل تم له ما كان يدبره حتى أثر في جميع ما رامه من
أطراف الدنيا أثارا بقي ذكرها دهورا طويلا .

واراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس

بينهما . فتقدم الى اصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه ، وما عليه من النفقات فعمل ذلك وتسلمه متولي ديوان المجلس وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جسامعا واختصره أيام (دولته) فجاء ارتفاع الدولة ألفي ألف دينار ، منها الشام : ألف ألف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه ، ومنها الريف وباقي الدولة : ألف ألف دينار ، يقف منها عن مغلول وينكسر عن موتى وهراب ومفقود أبواب : مائتا ألف دينار وتبقى ثمانمائة ألف دينار ، ينصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلاثمائة ألف دينار ، وعن ثمن الغلة للقصور : مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار . وعن عمائر ، وما يقام للضيوف الواصلين ، من الملوك وغيرهم ، مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائتا ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون ، فحظي بذلك عند الخليفة ، وتمكن منه ، وارتفع قدره عنده . وكانت الدولة طول نظره في عرس ، لتوالي الفتوحات في أيامه وعمارة الأعمال بحسن تدبيره واستخدام الكفاة فيها بجودة اختياره .

وكان المستنصر يحضر عنده في كل يوم جمعة ويبيت عنده في لذة ومسرة ، فيحضر اليه من التحف والطرف والغرائب ما لا يكاد يقدر عليه غيره . فاستمر على ذلك ثمانين سنة . فكثر الحاسد له على ما يتأتى له من السعادة وتعينه عليه الأقدار . واستطال حساده مدته فابتغوا له الغوائل ونصبوا له الحبائل ، وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكه بأقل الناس قدرا وأحقهم ، وأدناهم منزلة وأضعفهم قدرة ، وهم من أطراف الخدام ، ليبين الله آياته للناس ليعلموا أن الله على كل شيء قدير : وذلك ان اثنين من أطراف المستخدمين ، أحدهما خادم يعرف بفرج المغراوي كان في حاشيته ، والآخر خازن في بيت المال يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا ، تمحلوا له الأباطيل ونمقوا الأحاديث وزخرفوا القول وحكوا انه نقل الأموال الى الشام في التوابيت وفي شمع سبكه ، وأنفذه الى القدس والى الجليل ، وانه قد عول على الهرب الى بغداد . فصدق

ذلك وقبض عليه بغير ذنب الا الملل والحسد الذي جرت عادة الملوك به . وان مللهم بغير علة وحسدهم على تظافر من ينعمون عليه بما يصير في يديه ليتجمل به ، فيكون ذلك سبب حسدهم ومللهم .

واتفق ان المستنصر التمس من صفى الملك ولد الوزير عمل دعوة يدعوه اليها ، فدافعه عن ذلك ، استعظاما لحضوره عنده . فأقام مدة حتى بعثه الوزير الناصر للدين على تكلف عملها ، فاهتم لذلك وصنع ما يليق إعداده . وتقرر الحال على يوم . فلما تهيأ ذلك حضر صفى الملك الى ابيه وأعلمه بإنجاز ما يحتاج اليه ، فصار معه الى الدار بخواصه فرأى ما تقصر عنه كل صفة من ذلك انه فرش مجلسين بديباج بياض كله وفيه جامات كبار حمر بنقوش كأجل من الأعدال ، وفي كل مجلس ثلاث مراتب وبساط ملء المجلس وسرادين - يعني : سـتارتين - وحجلتين للصـدر - يعني شخانتين - وكل مرتبة ثمانى قطع ، ثمن ذلك خمسة آلاف دينار .

فأقبل كل من حضر يبالغ في صفته ، الا ابن حميد فإنه صار ساكتا فلحظه الوزير . وطاف المجالس واستعرض كل ما أعده ، وهو يقول : ي زاد لههنا كذا ، ويترك هنا كذا - ثم عدل الى بيت الطهارة فدخله ، وقد أعد في دهليزه من الفرش والآلات والطيب وفي داخله من الفواكه والشمومات كل مستحسن .

واستدعى ابن حميد منفردا ، وجلس في دهليزه وقال : يا عمدة الملوك ما لي لم اسمعك تؤمن على ما قالت الجماعة ؟ فاعتل بما لم يقبله الوزير ، والزمه ان يصدقه فقال : ياسيدنا عندي أحد راين : إما ان تأمر بإزالة لهذه الفرش ونصب غيرها مما هو مستعمل ، أو تحمله الى الخليفة اذا انقضى جلوسه عليه .

فقال : وما هو هذا ؟ اليس هو مما انعم به وصار الي من فضله ؟ وما قدره حتى تمتد عينه اليه وتتطلع نفسه له ؟ أما إزالته ونصب غيره ، فما كنت لأكسر نفس هذا الصبي . وإن أمرت بإزالته حزن وانكسرت نفسه - وقام

فحضر المستنصر وأقام يومه في الدار ، وأحضر اليه ما أعد له من الطرف . وركب آخر النهار وعاد الى قصره . وحضر خواص الوزير عنده على عاداتهم . فأنفرد بـابن حميد وقال له : يا عمدة الدولة ، والله ما أخطأ حزرِك فيما قلته بالأمس : منذ دخل الخليفة الى الدار الى ان خرج لم يطرف طرفة عن تأمل الفرش ، فاذا وجهت طرفي نحوه اطرق وتشاغل .

فقال : ياسيدي ، ان فات الأمر الأول ، فلا يفوت الثاني .
فقال : والله لافعلت ، ولا غممت صفى الملك بحرمانه اياه .

واتفق ايضاً ان ابن حميد دخل على الوزير في يوم بكرة ، وقد قدمت الدابة الى باب المجلس ، فخرج ليركب ، وعليه ثوب اسمر اللون مليح السمرة . فدنا منه ليصلح ثيابه لما ركب ، وجعل يلمس الثوب . فسار الوزير وعاد . فلما انقضت المائدة قال لابن حميد قد لاحظتك اليوم تنظر الثوب الذي كان علي ، فعجبت من ذلك فلما مثلت بحضرة مولانا كنت بحديث جرت العادة . فأقبل يتأمل الثوب ، ولم يزل يزحف من الدست حتى قرب مني فتغصفت عنه ، ولحظته وقد مد يده الى الثوب ليلمسه ، فقلت في نفسي : زال عجبى من عمدة الدولة اذا كان الخليفة على هذه الصفة ، وهو ثوب ملحم خراساني .

فقال : الملوك اذا انعموا على احد ممن في دولتهم نعمة وتظاهر بها ، استحال الاحسان والاصطناع حسدا ومللا .

وكان الوزير الشريف الأخلاق ، عالي الهممة ، كريم الطباع ، وطيب الأكتاف ، مستحكم الحلم ، واسع الصدر ، ندي الوجه ، يستقل الكثير ويستصغر كل كبير . فكان راتب مائنته في كل يوم كموائد الملوك في الأعياد والولائم . وكان لا يبتاع لمطبخه من الطير ما هو معرق ، ولا مصدر ، وسعر المعرق ستة اطياف بدينار ، والمصدر أربعة بدينار ، والمسمن ثلاثة بدينار ، والفسائق اثنان بدينار ، فيعمل المسمن لداره ومن فيها ، وأما مائنته فلا يقدم عليها الا الفائق .

فاتفق حدوث الغلاء في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وصار الخبز طرفة من الطرف لقلته وغلاء السعر من قصور النيل ، والمستنصر يحضر دار الوزير في كل يوم ثلاثاء على عادته ، وتقدم اليه المائدة ، فيراعي حالها فيجدها على ما يعهد لم يختل منها شيء ، حتى الدجاج الفائق . فقال لصاحب مطبخه : ويلك ! يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك ؟

فقال : يامولانا ، ما ذنبي اذا قصر بك اصحاب دواوينك ومطابخك ولم (يطلقوا لمائدتك ما التمسه منهم " والوزير ، فلا يتجاسر وكلاؤه أن) (١٢) يقصروا في شيء مما جرت به العادة في راتب مائدته وغيرها ، مع تقدمه اليهم في كل يوم بالزيادة فيها وفي راتب داره.

وكان الوزير ايضا اذا اعطى هنا ، واذا انعم على انسان اسبغ ، واذا اصطنع احدا رفعه الى ما تقصر عنه الآمال والأمانى. مع عظيم الصدقة وجزيل البر الذي عم به اهل البيوتات بما اقامه لهم من المشاهرات على مقاديرهم ، والأشراف سلكان المنامة ، والفقراء واهل الستر بالقرافة بما يواصلهم به من البر والكس ، ويجري ذلك على يد ابن عصفور احد الشهود بمصر ووكيل السيدة الوالدة ، فكانوا يظنون ان ذلك من انعامها وبرها او من انعام المستنصر . فلما قتل الوزير انقطع عنهم ما كان يصل اليهم من بره ، فاستنصروا بذلك (الوكيل) وواصلوا الخطاب فيه وقالوا : قد جفينا من مولانا ومولاتنا وانقطع برهما عنا ، فلو اذكرتهما بنا ؟ - واكثروا من ذلك على ابن عصفور . فقال لهم: الذي كنتم ترون ماكان ليجيئكم حتى يبعث الله ناصر دين آخر ، فحينئذ ياتيكم منه ماكان يصلكم به .

فقالوا : نحن التمسنا من مولانا ومولاتنا ، ولم نلتمس من ناصر الدين ، فقال : ما كان يجيئكم ذلك الا من الوزير ، فان بعثه الله لكم فعساه يبركم بما كان يبركم به ، فعجبوا من ذلك ،

واكثروا من الترحم عليه .

ولما تظافر الغلامان على الوزير حتى تم من القبض عليه ماتم ، لم يشعر مستهل المحرم سنة خمسين وأربعمائة الا وقد قبض عليه فكتب رقعة الى ابي فرج البابلي ، لموضع تقديمته له ، وبما احسن به اليه وانعم عليه ، وانه هو الذي رفعه على جميع اصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، وظن انه يجازيه على ما صنع اليه ، ويفي له فخره ، ونص الرقعة بعد البسملة : عرفنا يا ابا الفرج ، اطل الله بقاءك وادام عزك ، تغير الراي فينا ، وسوء الذية والطوية فان يكن هذا الامر صائر اليك ، فاحفظ الصحبة وارع واجب الحرمة . وان يكن صائرا الى غيرك فابتغ لنفسك نفقا في الأرض . على انانشير عليك اذا دعيت اليه الا تتأبى عنه ، فانه اصلح لك واعود علينا ، والسلام .

فدعي البابلي واستقر في الوزارة بعد اليازوري ، فتجرد لمقابلة احسان مصطنعه بكل قبيح ، وذكره في مجالسه بما لا يستحقه منه . وكانت هذه الرقعة اعظم ذنوبه عنده ، فكان يقول . يخاطبني وهو على شفير القبر بنون العظمة ! - ولا يذكره الا بالسفيلة والسقائط.

ولم يقنعه كونه في الاعتقال بمصر حتى نفاه الى تنيس في صفر هو واولاده وندساؤه وحاشيته ، فاعتقلوا بها . وشرع في التدبير على قتله خوفا من الرضى عنه .

فحدث عظيم الدولة متولي الستر قال : كنت في جملة الصقالبة الموكلين على الناصر ثم على البابلي بعده ، فكنت ارى من رئاسة الناصر - على شبيبته - ورجاحته ، وسكون جاشيه ، ومن طيش البابلي وخفته ونقصه ، ما اعجب منه . وهو اني لما كنت موكلا بالناصر ، كنت اراه ملازما بالعتبة بساب المجلس في القساعة لا يتغير مكانه ، وكان البابلي يتعلو عليه ويراسله بما يمض ويوصينا اذا مضينا اليه بالجلب على فتح الباب والاكثر من قلقلته عند الفتح ، لئلا يرببه بذلك ، فوالله ما يكثرث اليه ولا ينزعج . واذا دخل

اليه تذكر متولي الستر يكون جلوسه منه في الاعتقال كجلوسه منه في وقت وزارته ، ويخاطبه بما يرضى به فيجيبه عنه بسكون وهدوء كأنه في الدست جالسا . فأذكر وقد دخل اليه يوما فجلس ونحن وقوف بين أيديهما أكثر من ثلاثين صقلبيا ، فأدى إليه ما أوصاه البابلي به ، وأجاب به . فنهض ولبس نعله وقال له . يا سيدي ، صرفتني عن الستر بغير ذنب ثم أعدتني إليه بغير مسألة . فما كان معنك في ذلك ؟

فرفع طرفه إليه كأنه والله يخاطبه من دست الوزارة وقال له : كان صرفك في الأول برأيي واختياري . ثم أعدتك كذلك برأيي لما عرفت أنه من ميل مولانا إلى استخدامك .

فخرج تذكر وهو يقول : انظروا إلى هذا الرجل في سكون جأشه وقلة احتفاله في الجواب مع حاجته إلي في مثل هذا الوقت الذي تحقق قدرتي على الاحسان إليه فيه وعلى الاساءة . فوالله ما خاطبته إلا وأنا أظن أنه سيجيء بما يمهد عندي عذره فيه ، فلم يكن منه غير ما سمعته . ووالله ما أجد سبيلا إلى مقابلاته بغير الجميل ، لما كنت أشاهد من أفعاله وجميل سيرته .

وكان أكثر وقته صائما ، ولا يكاد يفطر إلا أقله ، ذاك ، وهو كثير التلاوة ، ولا يسأل عن شيء من طعام ولا شراب . وكنت من حاله عجبا .

كان في حال وزارته كثير الصمت ، مواصل الاطراق ، شديد سكون النفس ، هادئ الطبائع . فكنا نحمل ذلك منه على التيه والصلف والاعجاب وقلة احتفاله بالناس . فلما صار في حالة القبض والخوف كانت حاله على مثل ما كنا نشاهده منه ونتهمه فيه .

وأخذ البابلي كلما حضر بين يدي المستنصر يكثر التثريب على اليازوري ، إلى أن كان اليوم الذي شغبت عليه الأتراك ووطئوا دراعته . فإنه لما دخل على المستنصر قال : يا أمير المؤمنين ، إنه لا ينفذ لك أمر ، ولا يتم لي نظر ، وهذا الكليب في قيد الحياة .

فقال: ومن هو هذا الكليب ؟
فقال: الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري .
فقال : أيها الوزير ، أعلم أنني لم أصرف اليازوري عن خدمتنا
ولنا في إعادته رغبة . فطب نفسا ودع ذكره ، فأنت أمن مما تخافه
من جهته .

فقال : والله ، إن هذا لعجب فيمن حسن متابك ، يا أمير
المؤمنين ، عنه ، مع قبيح فعله وماهم به من قتلك ، حتى إن السقية
أقامت تدور في قصرك أسبوعا كاملا .
(فقال : أيها الوزير ، أقامت السقية تدور علي في قصري
أسبوعا كاملا ؟) (١٣) .
قال : نعم .

فأطرق متعجبا وبقي متفكرا وأمسك . فظن البابلي بإمساك
الخليفة أنه راض مما يفعله مع اليازوري ، وخرج ، واستدعى
طاهرا كاتب السر وسيره لقتله . فسمى الخبر إلى أم المستنصر
وقالت : أنت يا مولانا أمرت البابلي بقتل اليازوري ؟
فقال : لا .

قالت : قد سير طاهرا ابن غلام رشيد لقتله .

فاستدعى المستنصر سعيد السعداء وأنفذه إلى البابلي وقال: قل
له : لم نأمر بك بقتله ، فأنفذ من يعيد طاهرا ويمنعه من النفوذ .
فألفاه سعيد السعداء في الحمام ، فأعذر إليه. فقال : لابد من
الدخول إليك! - ودخل وأدى الرسالة إليه. فقال : نعم ، هوذا
أخرج وأسير من يعيده .

وطول في الحمام. ثم خرج ، فألى أن يكتب الكتاب ويسير
النجاب ، جد طاهر في السير ووصل قبله إلى تديس . فلم يدخل
النجاب حتى نفذ الحكم في اليازوري . وذلك أن طاهرا لما وصل دفع
كتاب البابلي إلى الأمير جمال الدولة صبح والي تديس وفيه . إنا قد
سيرنا طاهرا فيما أنت تقف عليه من جهته ، فتثبت منه فيه وتحضر
معه لانجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى غد .

فقال: وما الذي وصلت فيه ؟
فأخرج تذكرة بخط البابلي فيها : إذا وصلت يا طاهر أعزك
الله ، إلى تديس ، وقد شقيت ولهثت من العطش ، فلا تبسل ريقك
بقطرة دون أن تحضر حسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري إلى
دار الخدمة وتمضي حكم السيف فيه . فقد كتبنا إلى الأمير جمال
الدولة بمعونتك على ما نستدعيه من ذلك ، فقدمه ولا تؤخره إن شاء
الله.

فقال له الوالي : أنت خليفة صاحب الستر ، ومرسل من جهة
السلطان ، والأمر الذي وصلت فيه ممثّل . فأمر الحكم فيه .
فقال : بحضورك .
قال : وما معنى حضوري إذا بلغت غرضك فيما وصلت فيه ؟
فقال : لا بد من حضورك !

وانفذ من أحضر اليازوري من الدار التي اعتقل به . فلما حضر
أجلس على مصطبة باب الدهليز ، وطاهر على مقابله في
مصطبة ، والصقالبة والسعدية خدام الستر وقوف ، والسياف
قائم . وقال طاهر : يا حسن ، يقول لك مولانا : أين أموالك ؟
فلم يجبه ولم يرفع طرفه إليه . فقال له : لك أخاطب يا حسن بن
علي بن عبد الرحمن . يقول لك أمير المؤمنين : أين أموالك ؟ فلم يجبه
ورفع طرفه ونظر إلى طاهر وإلى الجماعة القيام وقال لطاهر : يا
كلب تجيء وهذا معك - وأشار إلى حيدرة السياف - وتساءلني بعد
ذلك ؟ ولكن قل له : يا مولانا ، قبض علي وأنا آمن على نفسي فإن
كان عندي مال ، فقد وجدته في داري . وكتب داعمك وذهبتك المؤيد في
الدين في القمطرة الفلانية تشهد بذكر مالك أين هو .

فأشار طاهر إلى الذين معه فأخذوا اليازوري وضربت عنقه في
الحال . وسار لوقتته عائدا ، ومعه رأس اليازوري ، إلى
القاهرة ، فبلغ ذلك المستنصر فاغتم لقتله ، وحقد على البابلي حتى
صرفه . وكان قتله في ليلة الثاني والعشرين من صفر سنة خمس

واربعمائة . والقيت جثته على مزبلة إلى أن ورد أمر المستنصر بعد ثلاثة أيام بتكفينه وتجهيزه والصلاة عليه . فغسل في مسجد وحنط بحنوط كثير وكافور ، وحمل بين العشمايين ومعه المشاعل ودفن . ثم حضر صقلبي بعد ذلك ومعه الرأس فدفنت معه في القبر .

ولم يتمكن أحد في الدولة المصرية بعد الوزير يعقوب بن كلاس تمكن اليازوري . وحكي أنه حج في صباه . فلما زار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم نام في الحجرة النبوية ، فسقط عليه شيء من الخلق الملطخ بحائط الحجرة . فأثاه بعض خدام الحجرة وأيقظته وقال له : أيها الرجل ، إنك ستلي ولاية عظيمة . وقد بشرتك ، ولي منك الحباء والكرامة .

فصار إلى ما صار حتى إنه سأل المستنصر بالله أن يكتب اسمه على سكة الذهب والفضة فأذن له في ذلك . وطبعت باسمه نحو شهر ثم بطلت . وأمر المستنصر ألا يسطر هذا في السير . وكانت صفة سمكته :

ضربت في دولة ال هدى
من آل طه وال ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبداه الناصر للدين

في سنة كذا

ومن طريف التخلصات في المكاتبة ما وقع له ، وهو أن العالي بالله إدريس ابن المعتلي بالله يحيى بن الناصر علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صاحب الأندلس كتب إلى المستنصر بالله من مدينة مالقة مكاتبة فيها : « من أمير المؤمنين العالي بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله » .

فعيب عليه بمصر قلة تصوره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون أمير

المؤمنين في زمان واحد إلا واحدا . ثم ألجأت الضرورة إلى مكاتبتهم بنحو ما كتب ، وكان اليازوري إذ ذاك في الوزارة وتدير أمور مصر فقال : أنا أخلص لكم هذه القضية وأعلقها بمعنى دقيق لا يبين للمكاتب - وكان صاحب حيل - فكتب إليه . من أمير المؤمنين المستنصر بالله معد إلى العالي بالله أمير المؤمنين بمالقة.

الحسن بن عمار الكلبي

(من المقفى للمقرئزي - مجلة برتو باشا)

الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسين - واسمه محمد بن الفضل بن يعقوب أمين الدولة أبو محمد الكلبي ، أحمد شيوخ كتامة كان أبوه في خدمة الامام القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، فبعثه على رجال كتامة الى توندس في فتنة أبي يزيد مخلد بن كبداد الزكاري ، وقد سبقه اليها مسذويه بن بكر الهواري من قبل أبي يزيد ، وبخلها في عاشر صفر سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ، فقتل وسبى وهدم الدور ، ولقي عمارا فقاتله وهزمه عمار وتبعه الى توندس وقتل كثيرا من أصحابه وأخذ ثلاثة آلاف جمل تحمل طعاما وغيره ، وعاد الى القائم بالمهدية ، فأمره أن يقيم بسوسة. ثم مات القائم ، وكان مع ابنه المنصور بالله أبي الطاهر اسماعيل حتى مات وقام من بعده ولده المعز أبو تميم معد. فسار من قبل أخيه الحسن بن علي متولي صقلية على اسطول الى بلاد الروم وعاد ، فخرجت عليه ربح شديدة بالقرب من صقلية فعطب الاسطول بأسره وغرق القائد في يوم الجمعة لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ودفن من الغد بصقلية.

ثم إن الحسن بن علي افتتح في سنة اثنتين وخمسين قلاعاً بجزيرة صقلية ونزل على قلعة رمطة فحارب بها فطال عليه أمرها فرجع إلى جزيرة صقلية وترك على رمطة ابن أخيه أبا محمد الحسن ابن عمار صاحب الترجمة ، فأقام عليها وطال مقامه . واستغاث الروم بصاحب القسطنطينية. فوجه إليهم عسكريا في البر وعسكريا في البحر ، والتقى ابن عمار مع مقدمة الروم في نصف شوال منها بشرنمة يسيرة فرزقه الله الظفر وقتل قائد الروم صاحب عسكر البر

وأسر صاحب عسكر البحر ، وانهزمت عساكرهم فتبعهم المسلمون فحزوا منهم عشرة آلاف رأس ، وغرق منهم في البحر خلق كثير . وكان في طريقهم خرق عميق في الأرض فحال بينهم وبين رؤيته الغبار فتواقعوا فيه وقت الهزيمة وسقط الخيل والرجال وصار بعضهم على بعض فهلك فيه من الروم خلق لا يحصىهم إلا الله فماتوا كلهم ، وأسر منهم بعد هذا كله ألفا أسير فيهم مائة بطريق . وأخذ من أموالهم وسلاحهم وكراعهم ما يقصر عنه الوصف . ونزل من قلعة رمطة نحو ألف عالج خوفا وجزعا .

وأقام الحسن بن عمار محاصرا لها ، ووجه بالقائد والبطارقة والرؤوس وكتاب الفتح إلى مدينة صقلية ، فخرج إليهم الحسن بن علي بالعدة والعساكر فتلقاهم فرأى ما سره وفرح بذلك فرحا شديدا ، ثم انصرف فاعتل من إفراط الفرح بحمى حادة ومات بعد ذلك بسبعة أيام لاثنين عشرة بقيت من ذي القعدة من هذه السنة . وفتح الله قلعة رمطة على يد الحسن بن عمار لثلاث بقين منه ، فقتل جميع من كان بها من الرجال وسبى النساء ، واستولى على جميع ما فيها من نعمة ومتاع وغير ذلك . ثم قدم من صقلية على المعز في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بالمهدية ، فخرج معه لحرب أبي خزر يعلى الزناتي الثائر .

ثم عاد فبعثه في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شوال سنة تسع وخمسين (وثلاثمائة) على الأسطول إلى مصر . فالتقى إلى طرابلس . وأقلع منها يوم الخميس لثمان بقين من شوال سنة ستين وثلاثمائة . ثم قدم إلى القاهرة يوم الاثنين رابع ربيع الأول سنة إحدى وستين ، ثم لما قدم الأسطول في ذي القعدة من المغرب خرج عليه ابن عمار في ذي الحجة وسار إلى تديس ولقي أسطول القرامطة فأخذ منه سبع قطع وأسر خمسمائة رجل .

ثم سار في رجب سنة إثنين وستين إلى الحوف على عشرة آلاف فواقع القرامطة .

وما زال بالقاهرة بقية أيام العزيز ، ولما احتضر العزيز بالله

بمدينة بلبيس استدعى القاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار هذا وأوصاهما بولده أبي علي المنصور ومات. فأقيم في الخلافة بعده أبو علي ولقب بالحاكم وسار إلى القاهرة وسنه إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر. فأنفق في المغاربة وكتامة وشرطوا أن لا ينظر في أمورهم إلا ابن عمار. وذلك أنه أعطى لكل واحد من شيوخ كتامة لما أنفق فيهم من خمسة آلاف دينار إلى ما دونها، وأعطى شبابهم على أقدارهم. وكان العزيز قد غضب عليهم لخذلانهم القائد جوهر في نوبة هفتكين وعرف الوزير يعقوب بن كلس ذلك فاطرحهم حتى ضاعوا وساءت حالاتهم وتفرق كثير منهم في الصناعات. فتنبه ابن عمار (إلى) حالهم فاجتمع شيوخ كتامة عند المصلى خارج القاهرة، وقد خالفوا على الحاكم. فخرج إليهم ابن عمار وما زال بهم حتى أحضرهم إلى القصر وقرر لهم ما أرضاهم به وأنفق فيهم، وحلف للحاكم ثم حلفهم وحلف عليه الحاكم بأمر الله في يوم الثالث من شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة. وقلده سيفاً من سيوف العزيز بساللة وحمله على فرس بسرج من ذهب، وكناه، ولقبه « أمين الدولة ». وقال له: « أنت أمني على دولتي ورجالي ». وقاد بين يديه عدة خيول، وحمل معه خمسين ثوباً من سائر البز الرفيع. ونزل من القصر إلى داره في موكب عظيم. وقرا سجله قاضي القضاة محمد بن النعمان بجامع مصر في خامسه. فاستكتب أبا عبد الله (٠٠٠) الموصلي واستخلفه على أخذ رقايع الناس وتوقيعاتهم. وألزم سائر الناس بالترجل له فترجل كل رئيس في طائفته. وقرر لكتامة سبعة أعطية في السنة وأنفق فيهم وحمل رجالاتهم - وهم نحو الألف - على دواب الاصطبل التي خلفها العزيز، ولم يترك أحداً من الشيوخ حتى حمله على الفرس والفرسين بالمراكب الحسنة من خزائن القصر.

وسير سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام على عسكر، وخلع عليه، وقلده سيفاً مذهباً، وحمله على فرس، وقاد بين يديه أربعة أفراس بمراكبها، وأنعم عليه إنعاماً زائداً، وأنفق في المغاربة الأساترين معه، وبعث إليه بخزانة مال على ثمانية وستين بغلاً فيها

أربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم ، وبعث إليه بستة وأربعين حملاً من السلاح وعشر جمازات عليها الدروع وست قباب بفرشها وأجلتها ومناطقها وسائر آلاتها ، وست جمازات بجانب آلة الديباج الملون وثلاثين جمازة بأجلة وعشرة أفراس وثلاث بغلات بمراكبها ، ومندبل يحمله خاذم فيه ثياب من ثياب العزيز وسيف من سيوفه .

وصار ابن عمار ينزل ويركب من باب الحجرة التي فيها الحاكم فيشق القصر راكباً ، والزم سائر الناس بالتبكير إلى داره ، وكانوا يزدحمون على بابه وفي دهاليزه ، وبابه مغلق . ثم يفتح بعد حين فيدخل الأعيان إلى قاعة الدار ويجلسون على حصير ، وهو جالس في مجلسه لا يدخل إليه أحد مقدار ساعة . ثم يأذن للأعيان كالقاضي ووجوه كتامة القواد فيدخل أكابرهم . ثم يؤذن لسائر الناس فيزدحمون ولا يقدر أحد على الوصول إليه ، فمنهم من يومئ إلى تقبيل الأرض ، وهو مع ذلك لا يرد السلام على أحد .

فإذا خرج لا يتمكن من تقبيل يده إلا قوم بأعيانهم . وباقي الناس يقبل بعضهم الركاب ، وبعضهم يومئ إلى تقبيل الأرض .

وانفذ ما في الأصطبلات من الخيول فأنعم على كتامة بألفين وخمسمائة فرس ، وأخرج للحملان والقود شيئاً كثيراً ، وحمل من الخيل والبغال والنوق لسلطان بن فلاح زيادة على ألف رأس ، وباع من الخيل والبغال والنجب والحمير ما يتجاوز الوصف حتى بيعت الناقة بستة دنانير . وقطع أكثر الرسوم التي كانت تطلق للأولياء من الأتراك وغيرهم . وقطع أكثر ما كان من المطابخ واقتصر على البعض . وقطع أرزاق جماعة من أصحاب الراتب ، وفرق كثيراً من جوارى القصر على الناس ، وكان فيه من الجواري والخدم عشرة آلاف جارية وخادم ، فباع من اختار البيع وأعتق من سأل العتق ، كل ذلك طلباً للتوفير .

وحمل إلى سلطان بن فلاح جل رحل العزيز وامتعته ، واصطنع أحداث المغاربة ، فكثر عبثهم وأمتدت أيديهم إلى أخذ الحرم من

الطرقات ، وسلبوا الناس في الشوارع وغيرها . فكثر شكاية الناس منهم فلم يشكهم . ثم إنه فرط في الأمر حتى تعرضوا للغلمان الأتراك يريدون أخذ ثيابهم . فثار بسبب هذا شر قتل فيه واحد من المغاربة و غلام من الأتراك . فاجتمع شيوخ الطائفتين وصاروا أحزابا . فقام ابن عمار في نصرة المغاربة ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، وقتل جماعة منهما . فانطلقت الألسنة من كل منهما بالقبيح في حق الآخر ، وأقاموا على المصاف يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء تاسع شعبان فركب بينهما ابن عمار يوم الخميس بآلة الحرب وحفت به المغاربة . وتجمعت الأتراك ، وكانت بينهما وقائع قتل فيها عدة رجال وجرح كثير ، وجمعت الرؤوس بين يدي ابن عمار . فأنكر ذلك وعرف أنه أخطأ في ركوبه ، فعاد إلى داره .

ونزل إليه برجوان ليصلح بينه وبين الأتراك . فعندما دخل إليه برجوان ركب غلمان الأتراك دار ابن عمار فعاد برجوان إلى القصر ، وامتدت أيدي النهابة إلى دار ابن عمار واصطبلاته ، وإلى دار رشأ غلامه ، فأخذوا منها ما لا يحصى كثرة . وكان أكثر من نهب المغاربة الذين اصطنع أحداثهم . فسقط في يده ونجا بنفسه إلى داره بمصر ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وعزل عن النظر ، فكانت مدة أيام نظره أحد عشر شهرا تنقص خمسة أيام . ولزم داره بمصر سبعة وعشرين يوما . ثم خرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد وترك داره ليلة الجمعة خامس عشرين شهر رمضان . وأقام بها لا يركب ولا يدخل إليه أحد إلا أتباعه وخدمه . ورسم بإطلاق رسومه وجرايات حشمه وكل ما كان له في أيام نظره من فاكهة وتلج وغيره ، ومبلغ ذلك من ثمن اللحم والحيوان والفواكه والتوابل خمسمائة دينار في كل شهر ، وسلة فاكهة في كل يوم بدينار ، وعشرة أرطال شمع كل يوم وحمل تلج عن يومين .

فلم يزل ملازما لداره إلى أن أذن له الركوب يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين . فركب إلى القصر ونزل موضع نزول الناس

بأسرهم ، وواصل الركوب الى يوم الاثنين رابع عشرة ، فأحضر
عشية إلى القصر وجلس به إلى عشاء الآخرة ، ثم انن له في
الانصراف . فعندما قام ثار به جماعة من الأتراك قد أعدوا لقتله
فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه موضعه . ثم سأل أهله في نقله إلى
تربيته ، فحمل إليها بالقرافة . وكانت مدة إقامته بعد عزله عن النظر
إلى أن قتل ثلاث سنين وشهرا واحدا وثمانية عشر يوما .

محمد بن حسن الكلبي

(من المقفى للمقرئزي - مجموعة لينن)

محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ، أبو عبد الله ،
الصقلي ، أحد أمراء صقلية المعروفين ببني أبي الحسين ولد سنة
تسع عشرة وثلاثمائة •

وقدم من صقلية الى المهدي على المعز لدين الله في سنة ثمان
وخمسين وثلاثمائة عندما كتب المعز الى الأمير أبي القاسم أحمد بن
الحسن بن علي أن يرحل الى إفريقية بأهله وماله وجميع من يتعلق
به ، فاستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه الحسن بن علي •

وقدم أبو عبد الله هذا الى مصر مع المعز ، وكان أخص الناس به
وأقربهم إليه • فلم يزل بالقاهرة الى أن مرض ، فعاده المعز في
مرضه • ومات لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث
وستين وثلاثمائة ، فغسله القاضي النعمان بن محمد وصلى عليه
المعز ، وفتح تابوته ، وأضجعه بيده هو وابنه الأمير عبد الله بن المعز
ودفن في داره بالقاهرة .

واجاج بن زلو اللمطي (١٤)

من اهل السوس الاقصى • رحل الى القيروان فأخذ عن ابي
عمران الفاسي ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين
لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه
واذا اصابهم قحط استسقوا به • فسمعت الشيخ ابا موسى
(عيسى) بن عبد العزيز الجزولي يقول : اصاب الناس جدد
بنفيس • فذهبوا الى واجاج بن زلو اللمطي وهو بالسوس • فلما
وصلوه ، قال لهم : ما جاء بكم ؟ فقالوا له : قحطنا وجئناك لتدعو
الله لنا ان يسقينا • فقال لهم : إنما مثلكم كمثلكم قوم ابصروا جبج
نحل فظنوا ان فيه عسلا ! ولكن انزلوا عندي فانكم اضياف •
فأضافهم ثلاثة ايام • فلما عزموا على الانصراف وجأؤوه لوداعه
ليرجعوا الى بلادهم قال لهم : إياكم ان ترجعوا من طريقكم الاولى
التي اتيتم فيها فارجعوا من طريق اخرى لتسكنوا في الغيران
والكهوف من الأمطار • فلما انصرفوا عنه أرسل الله عليهم
السحاب بالامطار ودامت عليهم الامطار فلم يصلوا الى بلادهم إلا
بعد ستة أشهر

رسالة جوابية من الخليفة الحكم المستنصر الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل (١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه الذي كان عليه من مضي
مذكم لأولينا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ،
وإرسال قرطوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك
المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ،
ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا إليك ، ليعلموك بالذي نحن
عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقدمهم
عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفة مروان رضى الله عنه وصلى
عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وأسيت لما استلب من سلطانه ،
واستبيح من حرمة ، واستحل من دمه ، وماكان من الفاجر أبى
جعفر تربه الله ، وجراسته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه
لمحارمه ، والله قد أحصى عليه ذلك ، فأسفه منه ، فهو لامحالة
يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراحل وابن ماردة أخيه
بعده ، من إلحادهما في نحلتهم ، وإساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهم
في رعيتهم ، وشدة وطأتهم عليهم ، واستحللهم دماءهم
وأموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة
سلطانهم ، وتأذن الله برد دولتنا ، وسلطان إبادتنا ، الذين نبأت
عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل ، وأوجب لهم الاجماع ، وحازه
إليهم البرهان ، والذي حضضت عليه من الخروج إليهم ، وطلب

الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ،
ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من أمر أبي حفص ،
ومن معه من جالية بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك ،
وخضوعهم لابن ماردة وبخولهم في طاعته ، وما سألت من أهل
الانكار لذلك والأنفة منه ، وحكيت من أمراء إفريقية في نزعهم عن
ابن ماردة ، وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته ، وكل ما حكيت من
ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، وأحببت من مصادقتنا ، وأردت
تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أولوك
لأولينا ، فقد رغبتنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على
مواصلتنا ، وأن نتمسك من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل
من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه
بعض لبعض ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن
الله تعالى أحب أن يكرمه بما انتهك من حرمة ، ونكث من بيعته
ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقي بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه
عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد ، وظلامه
وجراته على الله ، وانتهاكه لمحارمه ، فإن الله قد أخذه بذنبيه ،
واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لا إنقطاع له ،
ولا تخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله في أهل
معصيته ، وأولي الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضيضت عليه من
الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ،
وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين
ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز
موعوده إيانا ، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من
قبلنا ، من أهل شأنا واندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم

نزل نسمع ونعترف ، أن النعمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من
أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل
شأفتهم إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ، ومن صار معه من
أهل بلدنا ، في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته وما سألت
من النظر في أمورهم ، والانكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا
سفلهم وسوادهم وفسقتهم وأباقيهم ، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا
فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة
ابن ماردة ، لأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن
نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن
إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك
وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالشرق وما
كان تحت أيدي أباؤنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ،
واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما
دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة
لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا مارعيته من حقنا وقمت فيه من
حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطوبس علينا ، وكشفناه على الذي أوصيت
به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ،
ووجهنا إليك بكتابنا مع هذا رسولين من صالحين من قبلنا ، فاكتب
إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، والذي
يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به
من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله .

رسالة الراهب الفرنسي يشوع ورد الباجي عليها (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى اله

رسالة الراهب من أفرنسية - دمرها الله - الى المقتدر
بالله صاحب سرقسطة .

الى الصديق الحبيب الذي نؤمله ان يكون خليلا مدانيا ، المقتدر
بالله على دولة هذه الدنيا الملك الشريف ، من الراهب احقر الرهبان ،
الراغب في الانابة والايمان بالمسيح يسوع ، ابن الله سيدنا

لما انتهى الينا - ايها الأمير العزيز - امرك الرفيع في الدنيا
وبصيرتك في تبين أحوالها المتغيرة ، رأينا أن نراسلك وندعوك ، لتؤثر
الملك الدائم على الملك الزائل الفاني . وإنك قد رأيت كتابنا اليك الذي
راجعت عليه مراجعة نبيلة على حسب نظر أهل الدنيا ، ولم تكن
بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية ، ولذلك تراخى زماني
بمراجعتك اذ توقعنا أن نتكلف تعباً لا نجتني به ثمرة ، وحقاً إن
القادر على الكل الذي اصطفى أوليائه قبل خلق العالم ، ولم يسبق -
في علمه - هلاكهم ، قد أثار قلبك ، وأشعره للايمان بالاله المسلم لك ،
وهو الرحمن الرحيم ، الغفور ، الذي يهديك لمعرفته ، وليس يسعنا أن
نتراخى عن الاجتهاد في تكميم هذه المصلحة بجميل معونته لتشترك
معنا في ملكوته إن اثرت ذلك ' ولهذا الأمر ، أشخصنا اليك من
اخواننا من يورد عليك كلاماً الهياً - على ما يوفقهم الله اليه -
ويشرحون لديك حقيقة دين النصراني ، ويقرون عندك معرفة المسيح
سيدنا الذي لا ينبغي لنا الايمان بأحد سواه ، ولا نرتجي النجاة إلا به

فهو الاله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا - بدمه الطاهر -
من هلكة ابليس

ولقد كنا - ايها الملك الشريف (نود ان) (١٧) نورد كثيرا من هذا
القول لولا ما نتوقعه من تألك بسماعه ، وفي ذلك كله برهان الملة
المسيحية ، وبيان جلالتها ، وإن الاحاطة بكنهها مما يعجز دونه
ادراك الانسان وملك الله - تعالى - احل واعظم من ان يدركه فهم
الانسان او يصل اليه بعلم الكلام الا ان من آيات الله القادر على كل
شيء أن يشرح صدور الأدميين ويدخل روح العلم في قلوبهم ليتمكن
الايمان في نفوسهم

ولما كانت الدنيا - من قبل - معمورة بالضلال ، والعالم مدنسا
بعبادة الأوثان ، حسن عند الله القادر في - آخر العهد - أن يعيد
الزمان جديدا ، ويستدرك الصلاح الذي فات العالم في ادم الوالد
الأول ، وذلك أمر قد اهتدى اليه أبائنا من قبل ابراهيم واسحق
ويعقوب ، والأنبياء افصحوا به من بعدهم ، وهو عهد من الله مؤكد
قبل التوراة وبعد تنزيل التوراة أن يكون الالتحام المقدس معلوما
وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط بل هو منصوص في
مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح ، وإن الشيطان اللعين
الذي عرض اهل هذه الدنيا للموت ، بجسده لأدم ، حاول تغيير هذه
الملة المقدسة بعد اقبال الحوار بين الذين هدوا اهل الأرض بالموعظة ،
وبعد ظهور الشهداء الأصفياء على ابليس بالغلبة ، الذين هرقوا
دماءهم في اقطار الأرض في ذات الله ، وفي سبيل شريعته المقدسة ،
فلم يستطع أن يغري اهل الدنيا ، ويحملهم على ضلالهم القديم
من عبادة الأوثان فشبهه على بنى اسماعيل في أمر الرسول الذي
اعترفوا له بالنبوة ، فساق بذلك انفسا كثيرة الى عذاب الجحيم ،
وقد كان فيما سلف من ذنوب ابليس وتضليله للعباد ما يلقيه
العذاب الاليم يوم القيامة من الله سيدنا ايسوع المسيح ، وقد
ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الذمم العظيمة .

فاعتبر - ايها الملك الشريف - ولا تؤثر شيئا على نجات نفسك يوم

الحكم والجزاء ، فإننا مخلصون في تخدم أمورك ، ومسارعون الى
تفديتك بذفوسنا ، ومتى قبلت قولنا وعملت براينا ، وتقررت عندنا
إجابتك الى ما ندعوك اليه من قبول كلمة النجاة الزكية التي نعرضها
عليك لم نتوقف عنك عن اللحاق بك ، فتأمل أيها الحبيب ، ما يحق
عليك العمل به والمسارة اليه واغتنب بما يدين عليه اخواننا في هذا
القطر من الدعاء ، وبذل الصدقات الزاكية عنك ، ومامنهم احد راك
ولا شاهداك ، وانما يتبرع بذلك رغبة في أن يهديك الله الى مرضاته
والسلام عليك - ياأيها الحبيب - من سيدنا المسيح الذي اذهب
الموت ، وقهر الشيطان ، ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبائل
ابليس التي كنت فيها متورطا الى الآن ، ونسأل الله الذي له القدرة
والعظمة ، الذي من أجله خلق كل شيء ، ومن دونه لم يخلق شيئاً
أن يهديك ويثبت في نفسك ما دعوناك اليه ، وحضضناك عليه .

وإن لم يظهر لك ياأيها الحبيب مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه
كتابك لدفات الكتب ، فأودع ذلك إخواننا هؤلاء واطلعههم على سرك
وما يتمثل في نفسك ، ونحن نضرع الى سيدنا ايشوع المسيح أن
يتولى رعايتك ، ويتكفل سلامتك ، ويهديك الى دينه المقدس
ويسعدك بالايمان الصحيح به أمين .

وهذا جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل ابي الوليد
الباجي - رحمة الله عليه ورضوانه على هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على محمد وعلى آله وسلم
العزة لله والصلاة على رسوله

تصفحت - أيها الراهب - الكتاب الوارد من قبلك ، ومأمننت به
من مودتك ، وأظهرته من نصيحتك ، وأبديته من طوييتك ، فقبلنا
مودتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك ، واتصل بنا من جميل
أرادتك ، ونبهتنا - لعمر الله - بنصيحتك ، على ما يلزمنا من ذلك
لك ، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك ، وتعزز وصول كتبنا
إليك لكنا أحرى أن نأتي من ذلك ما يلزم ، ونسلك منه السبيل
الأوجب ، ولكنك عندنا جديرا بعرض الحق عليك ، وإيصاله إليك
فقد قرر لدينا من وصل من رسلك ، وأهل ملتك علينا ما تظهره من
حرصك على الخير ، ورغبتك في الحق ، مما قوى رجاءنا في قبولك
له ، وإقبالك عليه ، وأخذك به ، وإنايتك إليه ، وقد كان ورد علينا
- قبل هذا - كتابك وما اقترن به من دعوى حاملة المحال الذي كان
يجب ألا يخاطب به من له أقل حس بالاحساس أو يختلج بخاطر من
له أدنى فهم من أحياء أموات ، وأعظم رفات ، فآلنا القول
وأوليناه الأعراض والصفح ، وجاوبناك جواب من يعتقد ما ظهر
منك ، وبلغنا عنك ، من خطرات الغفلة أنك أرسلتها دون تأمل
وأظهرتها دون تحصيل ولاتحقق ، مع أنه يجوز على ضعفاء
المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتكم من تجويز محال وتصحيح
ما هو غاية الإبطال ، فقصدنا الرفق والتأنيس لك ، وكان ذلك

افضل ما روجع به من ترجى عودته ، وينتظر انابته وفيدته ، فانما يستعمل الاغلاظ لمن يتيقن عناده ، ويتبين اصراره ، ولم يرج انقياده ، ونحن نرجو ان نرفعك عن هذه المحطة ، ونخلصك من هذه الوصمة ، بفضل الله وعونه وتأيدته ونصره .

ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضاتك ، بما رضيناه من مسالتك ، ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك في النصح ، الذي يجرى اليه اهل الفضل ، وامرنا الله به على السنة الرسل ، وكففنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك ، وسخطناه من كتابك ، من سب الرسل الكرام ، والأنبياء المعظمين عليهم السلام ، وانحرفنا عن ذلك الى ان نحذرك ونذكرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه ، ولم يتحقق لديك حكمه ، ونبالغ في الرفق بك ، والتبيين لك على منهج الخطب والرسائل ، ولاعلى طريق البراهين والدلائل ، مساعدا على مذهبك في كتابك ، وموافقة لك في مقصدك ، فعسى ان يكون اقرب الى استمالتك ، وابلغ في معارضتك ومعالجتك.

وانا لنربأ بمثلك ، ونرفع قدرك عما استفتحت به كتابك من ان عيسى - صلى الله عليه وسلم - ابن لله تعالى ، بل هو بشر مخلوق وعبد مـربوب لا يعـدو عن دلائل الحـدوث مـن الحركة ، والسكون ، والزوال ، والانتقال ، والتغيير من حال الى حال ، واكل الطعام والموت الذى كتب على جميع الانام مما لا يصح على إله قديم ، ولا يمكن عند ذي رأي سليم ، ولو جوزنا كونه ، صلى الله عليه وسلم - مع هذه الصفات ، والأحوال المحدثات ، إلها قديما ، لنفينا ان يكون العالم او شيء مما فيه محدثا مخلوقا لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم ، وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى - صلى الله عليه وسلم - وإن الله - تعالى - خلق عيسى - عليه السلام - من غير أب كما خلق آدم - صلى الله عليه وسلم - من تراب ، وقد حملت بعيسى أم ، ولم تحمل بادم انثى ولا ذكر ، فإذا

لم يكن آدم الاها - وهو الاب الاول - بل مخلوق ، فعيسى أولا ان يكون الاها وهو من ذرية آدم وولده ، بل هو عبد مربوب ، وإن هذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ، ولم يميز الخالق من المخلوق!

وأما من نظر في شيء من ابواب العلم ، وايد باعتبار وفهم ، فعلامات الحدوث اوضح ، ودلائلها اصح من ان تخفى او تشكل او يمتري في أمرها من له من العلم اننى محل وقد ظهر على أيدي سائر الرسل - عليهم السلام - من الآيات الواضحة ، والمعجزات الباهرة مثلما ظهر على يدى عيسى - عليه السلام - وأكثر ، فلو جاز ان يدعى لعيسى - عليه السلام - بشيء مما ظهر على يديه من إحياء ميت وإبراء أكفه وأبرص ، بأنه ابن لله - تعالى - لجاز ان يدعى ذلك لأبراهيم لما ظهر على يديه من سلامته من النار بعد ان قذف فيها ، ولم ينجح عيسى من عدد يسير من البشر راموا - بزعمكم - صلبه وقتله ، ولجاز ان يدعى ذلك لموسى عليه السلام لما ظهر على يديه من قلب العصا حية وفلق البحر ، ولجاز ان يدعى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - لما ظهر على يديه من اذشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتسبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع إليه وغير ذلك من الآيات لكن الآيات لا تقتضي تجويز المحال ، وإحالة الجائز الممكن.

وإذا كان ربنا - تعالى - قديما - سبحانه ان يكون محدثا او مخلوقا ، وكان من وجدت فيه دلائل الحدوث من الأكل والشرب والزوال والانتقال لا يكون إلا مخلوقا مربوبا لم يدل إحياء الموتى على يديه أنه إله معبود وإنما يدل ظهور ذلك على يدى مدعي النبوة أنه نبي صادق لأن ما فيه من صفات الحدوث لا تحيل كونه نبيا .

ولو جاز ان يقال إن عيسى - عليه السلام - هو الخالق لما ظهر من ذلك على يده والمنفرد بفعله لجاز ان نقول إن آدم وإبراهيم وموسى ومحمدا وسائر الأنبياء - عليهم السلام - انفردوا بخلق ما ظهر من ذلك على أيديهم ، وأن جميعها من خلقهم وأنهم

- لذلك - الهة معبودون ، وذلك محال ، فلا خالق إلا الله ، ولا معبود سواه ، وهؤلاء أنبياء مكرمون ، ورسول مؤيدون صدقهم الله - تعالى - بما ظهر على أيديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره ، ولا يصح أن يخلقها سواه ، وأمر الدنيا أحقر وشأنها أنفر وأئذ من أن يغتر بها ذو عقل أو يسكن الى غرورها نولب ، وإنما هي دار اختبار واعتبار ، وليست بدار جزاء ولا قرار ، فالسعيد من عمل فيها وتزود منها الى دار المقام الذي لا ينقضى بل يتأبد ، حيث ينفرد ربنا بالملك ، ويصير من أطاعه وأفرده بالعبادة وأمن برسله وكتبه الى رضاه في دار النعيم ، ويصير من أشرك به وكفر بشيء من كتبه أو أحد من رسله الى سخطه في دار الجحيم ، ونرجو أن الله - تعالى - يجنبك بالاسلام منها ، ويبعدك بالانتقال الى دين محمد - عليه السلام - عنها ، وإن الله - تعالى - أنار قلوب جماعة المسلمين بالاسلام ، وأعزنا به وأكرمنا باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ورضينا له ، وخصنا بالقران الكريم (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنزيل من حكيم حميد (١٨) أفضل الكتب والخاتم لها ، والحاكم عليها ، والمصدق لها . تضمن علم الأولين والآخرين ، وأنار قلوب المؤمنين بالحق المبين ، نحمد الله على ما خصنا به ، وهادانا له ، (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) (١٩) ويلزمنا الاجتهاد في النصيح لك والرفق بك ، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمة المكرمة ، ومن أهل هذه الملة المعظمة ، الناسخة لجميع الملل ، والحاكمة على سائر الفرق ، فتفوز برضى رب العالمين وتنجو من سخطه ، وتنال ثواب يوم الدين ، وتخلص من معرفته ، وتسعد في الدنيا بالكون من جملتنا ، وتحظى بالقرب من نفوسنا

وأما ملكوت رب العالمين فهو المنفرد به - تعالى - لا ينبغي أن يشركه فيه طائع ولا عاصي ، ولا بر ولا فاجر ، وإن أردت بذلك أن يكون من أطاعك في ملك الله - تعالى - فذلك حال من عصاه ، وحال أهل الدنيا ، والآخره ، لا يخرج أحد عن ملكه ، ولكنها الفاظ تستعملها في غير مواضعها لأنك لا تعرف مقتضاها ، ولو أننا ان

الله - بفضله - ييسر لك الهجرة إلينا ، والمثول لدينا ، فتسمع الكلام على حقيقته في معاني هذه الألفاظ ، وتقيم وجوهها واستعمالها على ترتيبها ، وتسمع الكلام الالهي على الحقيقة ، كلام رب العالمين ، تولى حفظه ربنا - عز وجل - وعمر به السنننا وقلوبنا ، فلا يمكن أحد تغييره ولا تبديله ، ولا صرفه عن وجهه ولا تحريفه ، فلو قرع سمعك منه سورة واحدة ، أو آية كاملة ، لرجونا أن يكون ذلك مما ينور قلبك ، ويستولي على نفسك ، ويعود بك إلى الدين الأفضل والسبيل الأمثل (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) (٢٠) وقد وردا متحملاً كتابك فما أورداً إلا كلام البشر الذي جرت عادة أهل الضعف بإيراده عند العجز والفشل ، والتبذل والخور ، مع التحير والانقطاع ، والاضطراب في الدعاوى والأقاويل ، وادعيا في أول الأمر من المحال قريباً مما ادعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك ثم الت حالهما إلى مثل ما الت حاله إليه من تكذيب أنفسهما ، وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما ، وترجمه من قولهما .

وعندنا من علم شريعتكم ، واختلاف أخباركم في ملتكم ، وما تورده كل طائفة من شبهكم في الأقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات أناجيلكم ما لو أبدينا إليهما اليسير منه لحيرهما وبهرهما ، وعلمنا أن عندنا من جملهما وتقاصيلهما ما لم ينته إليه أحد من أهل ملتكم ، ولا وصل إلى تفريعه وتتبع معانيه أولكم وآخركم ، لكننا أثرنا الفرق بهما والاختفاء عليهما ، والتأنيس لهما ، وألنا لهما القول ، وأبدينا إليهما نبذة خفيفة من الأمر مما لا تنذر منه نفوسهما ، ولاتتوقع من سماعه خواطرهما ، أخنين في ذلك بأدب الله - تعالى - في أمثالهما .

وقد رأينا ما في كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملتك فإنه ليس في فرق النصارى من يقول إن المسيح لا ينبغي الإيمان بأحد سواه ، بل هو الإيمان بالأب عندكم واجب ، والأب لم يتحد بالناسوت عندكم ، وإنما اتحد به الابن ، فمن لم يؤمن بغير الابن

كفر بالآب ، وقد تقدم في كتابك أن المسيح ابن الله ، وهذا نقض لقولك إنه لا ينبغي الإيمان بغير المسيح الذي هو الابن .

ولو تتبعنا ما في كتابك من التناقض ، وفساد الوضع ، ومستحيل القول ، لما سلم منه إلا اليسير الحقير ، لكننا - وفقنا الله وإياك - حملنا ذلك منك على ما عهدناه من أهل ملتك من قلة العلم ، والبعد عن مقاصد المناظرة ، وترك المدارس والمحاورة مع تمويهات لا تصح ، وتلفيقات لا تثبت ولا تنصر ، وأرجو أن يوفقك الله ، بإرشادنا لك ، إلى ترك التمسويه ، والتعلق بالمغالطة والكذب ، ويعلمك علم الحقائق ، وصحيح المقاصد ، وأدب المناظرة التي تفضي بك إلى السبل اللائحة ، والحقائق الواضحة ، وقد جرى من كلام الواردين من أصحابك اللذين اخترتهما للنيابة عنك من هذا النحو ما اتبعناه بالتحير والتبليد والانكار له بعد الاقرار به ، ولوددنا أن تصير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك ، ونتمكن من تفهيمك ، ونبين لك من تحقيق الكلام وتحريره ، وتفصيله وتوجيهه ، وترتيب الأدلة ومقتضاها ، وإحكام البراهين ومنتهاها ، ما يزيل كل سخيفة من نفسك ، ويظهر من دنسها قلبك ، فتعانين الحق جليا واضحا ، والدين قويا لائحا على أن ملك الله تعالى أعظم من أن يحيط به فهم إنسان أو تستوعب صفاته بكلام أو بيان ، فمن عظمته - تعالى - وقدرته وعزته ، انفراده عن الأشراك والأنداد ، واستغناؤه عن الصاحبة والأولاد . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق) (٢١) تفرد بالخلق والانشاء ، وكشف الضر والبلوى ، وبعث النبيين مبشرين ومنذرين ، فأخبروا عن ربنا بعظيم قدرته ، وعلو كلمته ، وإتمام مشيئته ، وبينوا شرائعه ، وأوضحوا من تأملها إلى الحق ، وتكذب من خالفها إلى الشرك ، ولولا الكلام ما عرف الجائز من المحال ، ولا تبين الهدى من الضلال .

وما نحلة ولا ملة إلا وهي تزعم أن نفوسها نيرة بما

تعلمه ، مذرحة بما تعتقده ، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل ، والدهرية الذين يدعون الأزل ، والفلاسفة القائلون بقديم العالم ، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام ، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعى أن نفسه أسكن إلى ما تعتقده ، وأوثق بما تنتحله ، وأنور بما تزعم أنه يعلمه من نفوس مثبتتي الرسل ، ومتبعي الكتب لكن وضع الكلام ونشره ، وتمييزه ووصفه يعلى الحق ويثبتته ، ويدحض الباطل ويمحقه ، وإن الله - تعالى - جعل الدنيا دار تكليف وفتنة ، لئبلونا أينما أحسن عملا ، وجعل الآخرة دار ثواب وعقاب ليثبت المؤمنين المحسنين ، ويعذب الكافرين المشركين ، وجعل من أسباب الفتنة إبليس اللعين ، وبعث النبيين يهتدون إلى صراط مستقيم (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢٢) فهدى بالنبيين من شاء بفضله ، وخذل بابليس اللعين من شاء بعدله.

فأول الرسل إلى أهل الأرض أبونا آدم - عليه السلام - دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد ، وكذلك الرسل بعده. كلما نسيت شريعة ، وتقادم عهدها ، بعث الله رسولا إلى أهل الأرض يجددها ويؤكددها ، إلى أن بعث الله - تعالى - نبيا اسمه عيسى - عليه السلام - فدعا قومه إلى عبادة ربه ومذنبته وخالفه ، فأمن به اليسير ، والعدد القليل الذين لم يطيقوا منعه ممن أراد من أعدائه الكافرين المكذبين لما جاء به من قبله ، حتى رفعه الله إليه ، واختار له ما لديه ، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . (٢٣) وقد بذل دمه - بزعمكم - حرصا على استنقاذ الناس من الضلالة فما آمن به إلا العدد اليسير ، وقد آمن بغيره من الأنبياء ممن لم يبلغ هذا المبلغ أمثال من آمن بعيسى ، فما إن توفي محمد - عليه السلام - حتى آمن به العدد العظيم الذي استحوذ به البلاد ، وتغلب على أفاق ، وأظهره الله على الدين كله (ولو كره المشركون) (٢٤) ثم استفتح بعده باثر وفاته أصحابه بلاد الفرس على بعدها عن مكانه ، وتمكين سلطانها ، وعظم شأنها وقدرها ، واستفتحوا بلاد الشام وهي كانت أفضل بلادكم ومكان

شريعتكم ، وإليها ينتهي حجكم وعبادكم فما صار لمن تزعمون أنه إلهكم مع بذل دمه إلا أقل ما صار للمربوبين الأدميين من النبيين مع إعزاز الله لهم ، وحمايته إياهم ، ولو كان عيسى إلهاً قابلاً لما احتاج إلى ذلك ، ولخلقهم مؤمنين ، ولو شاء الله أن لا يعصى ما خلق الفتن ولا إبليس اللعين ، ولكن الله - تعالى - خلق للجنة أهلاً للجنة بتوفيق الله - تعالى - يعملون ، وخلق للنار أهلاً للنار بخذلان الله يعملون ، ولو علم الغيب عيسى - عليه السلام - لما بذل دمه طمعاً فيما لم يتم له ، ولا حصل له منه شيء فاعتبر - أيها الراهب - ضعف ما أنت عليه ، وفضل ما ندعوك إليه ، فعسى أن يوفقك الله ويهديك ، فتصير بعلم الله بكونك من جملتنا ، وفينتك إلى ملتنا ، فقد بلغنا من إرادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما حرصنا به على إرشادك وهدايتك ورجونا سرعة انقيادك وإنابتك (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت) (٢٥).

ومن أغرب ما تأتون به قولكم إنه بذل دمه في خلاص العباد ، وكيف يكون للرب دم ، والدم من الأجسام المحدثّة المخلوقة ، ولو حررتكم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت دون اللاهوت ، وللزمكم أن تقولوا: إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله - تعالى - لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات ، وهذه صفة لا تصح إلا على محدث مخلوق ، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمها . ولئن جاز هذا عليه ليجوزن على أبيه - بزعمكم - لأنه على صفة ابنه بل هو عند جماعة منكم ، فكيف يكون إلهاً قديماً حياً قيماً لم يزل من يجوز عليه الموت ، وعدمت حياته؟ وكيف لم يذهب عن نفسه الموت ، ولم يقدر على دفعه عنها وأذهب - بزعمكم - على ما نكرته في كتابك ؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلهاً فما نمنع على هذا أن يكون من رأيناه أو سمعنا خبره - قديماً - لم يزالوا إلهة ، وإن كان لهم أب أو ماتوا وفنيت حياتهم وعدمت ؟ وهل يصح أن يبلغ منه هذا المبلغ من الجهل الواضح ، وتجويز قلب الحقائق ، ودعوى المحال إلا من سقطت مقالته واستحكمت جهالته وعميت بصيرته ؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ، وينبإ إليه ؟ وهل

يمكن أن يكون في المقالات المستحيلة أو المحال المرذولة أشد فسادا من هذه التلفيقات التي تخجل من يوردها ، ولا يكاد يصح تكليف من يجوزها ويعتقدها ؟ وإنى لا أعتقد أن مثل هذا لا يخفى عليك مع قلة المعرفة ، والبعد عن النظر في الأدلة لأن هذا ليس مما يدرك بدقيق النظر ولا يحتاج فيه إلى تأمل ، بل هو مما تناله أوائل العقول أو يدركه ببديهة من له أدنى تحصيل ، وأظن أن الحامل لك على هذا أحد أمرين: إما أنك لم تر من الشرائع غير ما قد نشأت عليه ، فاعتقدت أن سائر الشرائع تجري هذا المجرى في الاستحالة والفساد ، فرأيت أن تستمر على ما وجدت عليه سلفك ، إذ لم يظهر لك سبيل إلى ما هو أفضل منه ، أو رأيت أنك قد نلت بهذا المحال عند جهال أهل ملتك منزلة تكره أن تنحط عنها ، وتبعد منها إذا انتقلت إلى الدين الصحيح لعلمك أنك لا تنال درجة أدونهم منزلة في العلم ، فكيف بدرجة اعلامهم وأئمتهم وذوي التقدم منهم ؟.

ومن طريف ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم:

« إن عيسى ابن الله » - تعالى عن ذلك - وتقولون إنه من ولد داود - عليه السلام - وهذا ثابت في إنجيلكم ، ومتلو من كتابكم ، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها: « إنه يكون عند الله عظيما ، ويكون اسمه يسوع ، ويدعى بابن الله ، ويورثه الله ملك أبيه داود » ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود ، وإنما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجا لمريم ، فإذا كان عيسى من ولد داود ، وداود عبد مخلوق وجد بعد أن لم يكن ، ومات بعد أن حيا ، فكيف يكون عيسى الابن خالق أبيه وإلهه ؟ وكيف يكون أبا لداود المخلوق وابن الله الخالق ؟ وهل هذا إلا جهل بمعرفة الابن من الأب ، والقديم من المحدث والخالق من المخلوق ؟ ومن بلغ هذا الحد من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع ، فكيف يدعو إليه ويتكلم عليه ؟ ولكن قلة التأمل مع حب الظهور يوجب التفريط ، ويورث التبطل والتحير ، نسأل الله العصمة.

وقد اختلفت فرقكم في الاتحاد الذي سميتموه التحاما اختلافا لعدة لم تبلغك ، ولو كنت لدينا لأريناك في هذا من كلام متقدمي أهل ملتك ثم من تقريع المسلمين على ذلك ، وتتبع الحجج لهم وعليهم بما لم يبلغه أحد منهم قط ، ولأسمعناك من غرائب وعجائبه وتلفيقاته وتناقضه وفضائح واضطراب رواة الانجيل ما يـمـلا سمعك ، ويطيش له لبك ، لكن الكتاب لا يحتمل التطويل لا سيما لمن لم يرد التأليف وإنما أراد التقريب وخاف تحير من ورد عليه الاكثار بالشرح والتفسير ، وما أحد من أهل الملل ، واتباع الرسل ممن تقدم عيسى - عليه السلام - ولا ممن تأخر عنه يقر بأنه وجد الالتحام الذي تدعونه في كتب ولا تنزيل ، ولا أخبر به نبي ولا رسول. وقد أنزل ربنا في كتابه الكريم أن عيسى بشر بنينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فإما أن يكون علم هذا عندكم، وإلا فقد كتبه أحباركم ، ومحوه من أنجيلكم ، فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها ما دلنا على أنه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

ومن ذلك ما في الانجيل من رواية متى أنه بين ابراهيم ويوسف الذي تزعمون أنه زوج مريم اثنتان وأربعون ولادة. وفي رواية لوقا بين ابراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا ليس فيهم من أسماء الذين في رواية متى إلا عدد يسير . ولا تكاد هذه الروايات تتفق في شيء ، والایمان بها عندكم واجب على اختلافها لأن الانجيل كتابكم وأصل شرعكم ، فكيف يصح لكم الايمان بمـمـا يختلف ولا يتفق ، ويتباين ولا يتعاضد ، وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير لا يمكن أحد الزيادة فيه ولا النقصان . والذي يقرأه ممن في أبعد المشرق هو الذي يقرأ به ممن في أبعد المغرب دون زيادة حرف ولا لفظة ولا اختلاف في حركة ولا نقطة .

واذني لأعجب أيها الراهب - على ما ينقل اليـنـا من فضلك في قومك ، وتقدمك عند أهل ملتك ، مما يبدو من فرط غفلتك وعدم معرفتك فيما تضمنه كتابك من أن إبليس اللعين يقدر أن يضل من

شَاء الله أن يهديه الى الدين القويم مع قولنا وقولك في كتابك (إن الله على كل شي قدير)(٢٦)

فأي قدرة له اذا كان قد بذل دمه في نقض ما شرعه إبليس وغيره من خلقه ، فلم يقدر على اصلاح ما أفسده ، ولا استرحاع ما أحدثه ، ولا تقويم ما عوجه ، وإبليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك سفك دمه ، ولا تغير حاله ، ولا تجسد لغير جسده ، ولا انتقل الى غير ما كان عليه ؟ إن هذا لما كان يجب أن لا يجوز على اضعف الناس علما ، وأقلهم فهما ، ولكن ليس هذا بأغرب من قولكم إن إبليس عرج بعيسى الاله بزعمكم ، ورقى به أعلى جبل وأراه زهرة الدنيا وقال له إن عبدتني ملكتك جميع هذا ، فلما سمع بذلك المسيح من كيد إبليس اللعين عاذ من شره واستجار من فتنته بصيام أربعين يوما ، وأربعين ليلة ، فأمسك إبليس عنه فهل لمن حور هذا على ربه وأخبر به عنه مسكة أو بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة ؟ اليس الاله هو الخالق لإبليس والقادر على هلاكه متى شاء ، والمالك للأرض والسموات وما بينهما دون شريك ولا تمييز ، فكيف يخاف من هذه صفته بعض خلقه أن يفتنه ؟ أو كيف تحمل إبليس الأرض أو تظله السماء وهو يخاطب ربه ويدعوه الى عبادته ؟ وبعد أن يثيبه على ذلك ويملكه زينة الحياة الدنيا وهي ملكه ومن خلقه ، وربّه يخاف فتنته ويستجير منه بالصيام ؟

وكيف يقول إنه يعاقبه في الآخرة بالعذاب الأليم ونار الجحيم وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه منه ومن فتنته في الدنيا ؟ وهل قدرته في الآخرة الا كقدرته في الدنيا ؟

وكيف تزعم انه سليم من حبائل إبليس وخدعه وهو يخاف على نفسه ويحتاج الى من يسلمه منه وهو القاهر والخالق لإبليس ، كيف شاء ، والمهلك له اذا شاء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا

وإن الله - تعالى - بلطفه وحكمته ، وعطفه ونعمته ، بعث

محمدا - صلى الله عليه وسلم - فختتم به الرسالة واكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين ، وبعثه الى جميع العالمين ، ففضله بهذه الدرجات الرفيعة ، وأبقى شريعته الى يوم الدين ، واکرمه بهذه المنة العظيمة . بعثه على حين فترة من الرسل ، ودروس من السبل ، وجهل بالشرائع ، وبعد عن معرفة الأديان والمذاهب وقد دخل جميعها التبديل والتغيير ، وقد خالفت اليهود وسائر الملل عيسى ابن مريم - عليه السلام - وردت ما جاء به ، وانكرت ما دعا اليه ، واختلفت النصراني بعده على فرق ، كلها قد ضلت عن السبيل المستقيم والمنهج القويم ، وظهرت من الجهالات ما تحيله العقول ، وعبدت المجوس نيرانها ، وادعوا لله الصاحبة والأولاد ، وجعلوا له الأشرار والأنداد فابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو اسماعيل - عليه السلام - ثم من خير بني اسماعيل وهم قريش قطب العرب وافصحها لسانا واخلصها عنصرا وارجحها في معاني الدنيا عقولا ، واتقبها أفهاما ، واتمها دهاء ، واعظمها غناء ، واکرمها أخلاقا ، واجودها أكفا واطيبها أعراقا ، فقام منفردا فيهم يدعوهم الى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان فخالفه في ذلك القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، فأتاهم بالآيات المعجزات التي لا يصح فيها تمويه ولا تلبس ، ولا تخيل ولا تحريف ، من انشقاق القمر بحضرة جميع من امن به وكفر ، ممن غاب عنه ومن حضر ، ونبع الماء من بين أصابعه في قدح صغير حتى توضع منه العدد الكثير ، وتسبب الحصى في يده ، وحذين الجذع اليه ، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير ، وبراء العيون بإمرار اليد عليها وغير ذلك من المعجزات التي لو شئنا أن نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرجنا عما قصدنا من الاختصار ، وقد تتابع ذلك في مقامات جملة بمعاناة جميع الأمة ، والاخبار بالغيوب على وجه تباين التكهن والاثيان بقصص الماضين ، وذكر الأنبياء المتقدمين على حقيقة ماكانوا عليه - مما لا يبلغه من أفنى عمره في تعلم ذلك ومدارسة اهل العلم به - من غير أن يعلم بمدارسة كتاب ولا مذاكرة أصحاب وقد

علم أن مثل هذا لا يخفى لمن تناوله وإن رام ستره وكتمانه . ثم
أكرمهم الله - تعالى - بالمعجز الذي فضله الله على جميع النبيين
 والمرسلين وهو القرآن الذي تحدى به الأُنس والجن أجمعين . قال
الله تعالى: (قل لئن أاجتمعت الأُنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (٢٧) فتحدى به
العرب والعجم وجميع الأمم ، والعرب في ذلك الوقت أهل فصاحة
وبيان وتناه في ذلك الشأن ، فلم يستطع أحد منهم على أن يأتي
بسورة من مثله مع ما أخرجهم إليه خلافهم له من سفك
دمائهم ، وهتك أستارهم ، وأخذ أموالهم ، والاستيلاء على بلادهم
وأموالهم ، وخروجهم عن أوطانهم ، ومفارقتهم آبائهم وأبناءهم
وإخوانهم وأزواجهم ، وكان إتيانهم بسورة من مثله لو استطاعوا
ذلك أسهل عليهم من تكليف الحرب ، والصبر على ألم
الجراح ، فكيف بالصبر على جميع ما ذكرناه مع أنه نشأ معهم
وبينهم ، ولم يتعلم ما لم يتعلموه ، ولا لقي من لم يلقوه ، ولا انفرد
بالدرس دونهم ، والقراءة بينهم ، فقد قرأ غيره ودرس وعلم وتعلم
وكتب ، وإلى زماننا هذا ، لم يستطع أحد أن يأتي بسورة من مثل
سوره ، ولا بآية من آياته ، وهذه أعظم معجزة على يد نبي لأن كل
معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها ، وانقضت وقتها ، وانما
ينقل إلينا ذكرها ، ونخبر عنها ، والخبر يدخله الصدق والكذب
ولولا أن محمد - صلى الله عليه وسلم - أعلمنا بصحتها وهو
الصادق لما وقع لنا العلم بوجودها ، ومعجز القرآن بساق بين
أظهرنا ، ودائم عندنا ، لا ينقطع وقته ولا ينقضي إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يدل في كل وقت وأوان على
صحة ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من شريعته ، التي
اختارها له ، أفضل الشرائع وأبينها حكمة ، وأوضحها
أحكاماً ، وأتمها قواماً ، فأمرنا - صلى الله عليه وسلم - بأن نؤمن
بالله وحده لا شريك له ولا ظهير ، ولاند ولا صاحبة ولا ولد ، ونؤمن
بملائكته وكتبه ورسله وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله
ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والثواب والعقاب

وان من امن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به فلا يند له من الجنة ، وان من كفر به او بشي مما جاء به فإنه مخلد في النار ، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وجهاد من كفر ، وصلة الأرحام ، ورغب في التمسك بالدين والعدل والاحسان ، والبذل ، والتسماوي في الحق ، وأداء الأمانة ، والصدق ، والتناصف والتخاطف والتعاون على البر والتقوى ، والأخذ بمحاسن الأخلاق في السر والجهر ، والتزهد في الدنيا والتنفل فيها ، والتجافي عنها ، والانزقاد لها ، وحضنا على تعلم العلم وأوجب به علينا ، وندبنا اليه ، والى الارتحال في طلبه ، والتتبع لدقيقه ، ودفع الشبهة المعترضة عليها ، والمعارضة لها ، وأعلمنا أن ذلك من أرفع أبواب شريعتنا ، وأفضل ما يصرف اليه همته أولو الفضل منا ، ونهانا عن المنكر والفحشاء واتباع الضلالة والأهواء ، والكبر والخيلاء ، والظلم والعدوان ، والكذب والبهتان وأخذ من ذلك كله في خاصته بأبلغ غاية من إتعاب نفسه في العبادة ، وتكلف منها ما لم يستطع عليها غيره ممن عاصره وأتى بعده ، ووقايته لأصحابه بنفسه في الحروب وأوقات الشدائد ، واجتناب كل مانع عنه من المائثم وقبيح الأحوال ، ومذموم الخلال من حيث لو كان من أمة توارثوا الشرائع من أول الأزمان ثم لم ينتقلوا عنها ولا تبدلوا بها بل دونوا فيها الدواوين وصنفوا فيها التصانيف والتوالييف ، وكثر فيها علماءهم وأئمتهم ، وكثر الوارث لذلك عنهم ممن قطع عمره بقراءة ذلك ودرس كتبها ، وملازمة علمائها لقصر عما ظهر منه من صحيح الأحكام ورفيع الأحوال ، والاصابة في الأقوال والأفعال ، والتصرف والزي والأكل والشرب ، والجلوس والمشي ، والأخلاق والاعطاء ، وجميع الحركات والسكنات والالحظات وذلك كله مما يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل في ذلك مقاصده وعرف وجه الصواب فيها ، وأنه من عند الله الذي يوفق أنبياءه ، ويرشد رسله وأوليائه ، ويشرع لهم الشرائع التي تشهد بصدقهم صحتها وتبين الحكمة في تفاصيلها وجملها .

وكان - صلى الله عليه وسلم - مع ذلك - متقللا من الدنيا ، مؤثرا غيره بها حين تعذرها ووقفت الشح بيسيرها ، مطرحا لها ، معرضا عنها حين إقبالها مع عظيم ما فتح عليه منها وبسط له فيها ، يبيثها في أهل ملته والمستحق لها من غيرهم لم يمنعهم انحرافهم عنه ، وتكذيبهم له من اتيانهم العدل ، وانصافهم بالقول والفعل ، وكان حظه وحظ أهله وأقاربه من الدنيا وما فتح عليه منها أقل حظ ، لم يشبع هو وأهله من طعام ثلاثة أيام متوالية ولا لبس ولا لبسهم الا أخشن الثياب ، ولا سكن ولا سكنهم الا أدون المساكن ، ولا يدعي محالا ولا يقول انه يعلم من الغيب الا ما علمه الله تعالى ، فان سئل عن غيره صرف علمه الى الله تعالى ، ولا يدعي انه يغفر ذنب أحد من أمته ، فان سئل الدعاء دعا للأسائل بالمغفرة ، وأعلمنا انه لا يغفر الذنوب الا الله ، ولا يؤاخذ بها سواه ، يجالس العبد ، ويزور الضعيف ، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير .

لو جاز عليه مع ذلك الكذب لجاز على موسى وعيسى وسائر الأنبياء ، فإننا لانعلم صدقهم ، ولاميزنا ما جاؤوا به من الحق مما جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب الا بما ظهر على أيديهم من الآيات البينات ، وما أتى به محمد - صلى الله عليه وسلم - أبين وأوضح ، وأتم وأبلغ ، ولو جاز لكم ان تقولوا : إن ما أتى به محمد من جملة التخييل لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذبون الرسل ان يقولوا : ان جميع ما جاء به موسى وعيسى وسائر الأنبياء - عليهم السلام - من ذلك الباب وهو قولهم ، ولما كذبتهم آياتهم ومعجزاتهم ، ووجب عليهم تصديقهم لزمكم وجميع الأمم تصديق محمد - عليه السلام - فما جاء به أبين وأظهر وأعظم .

وإنك أيها الراهب الذي تحرص على تخليصك من الضلالة أن سمعت نصحنا لك وأطعنا فيما به أمرناك وردت الآخرة في جملتنا من اتباع محمد - عليه السلام - النبي المكرم

فتسعد بشفاعته ، وتشرب من حوضه ، وتسكن الجنة معه ، ونحن
نسأل الله - تعالى - أن لا يعدل بنا عن الطريقة المثلى ، ولا
يصرفنا عن سبيل الهدى ، وأن يستنقذك من مكائد إبليس التي أنت
فيها متورط ، وبحبائلها متعلق ، وبخدعها متحير ، من تمادى عليها
نال الشقوة ، وطول الحسرة في عرصة القيامة ، ويوم الندامة ،
يوم لا يذفع نصح ، ولا يقبل عذر (ويوم يعرض الظالم على يديه) (٢٨)
(ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً) (٢٩) ولا مستقر يومئذ الا الجنة أو
النار ، فمن آمن وعمل صالحاً فالحق ما واه ، ومن جعل له صاحبة
أو ولدا فدرك النار مژواه ، أعاننا الله منها ، وأماننا على الاسلام
المبعد عنها.

فلا يغرنك - أيها الراهب - حظوتك عند أهل ملتك ، ومكانتك في
مكانك ، واستجلاف نفوسهم ، واستمالة قلوبهم بالفاظ تزخرفها ، لا
تعلم معانيها ، ولا تعرف حقيقة المراد بها ، ولا مقتضى القول فيها
من قولك : «الجواب الروحاني ، والكلام الألهي» وما أشبه ذلك من
الفاظ كثيرة سمعتها فنقلتها إلى غير موضعها ، واستعملتها على
غير وجهها ، فإنك لو سنلت عن مقتضى ذلك لأسلمتكم عدم معرفتكم
الى العي والحصر والعجز عن التقدم والتأخر ، فإن استعمالك لها
على غير وجهها دليل على جهلك بها .

فإن قبلت نصحي ، وسمعت موعظتي ، أخرجناك بعون الله من
ظلمة الجهل الى نور العلم ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق ، وأريناك
من طرق الاستدلال ، وتمييز البراهين ما يشرح صدرك ، وينور قلبك
وتعلم به الحقائق ، ومعاني هذه الالفاظ التي أنت بها معجب
ومخطيء في ايرادها على غير وجهها ، وتتيقن انها من أقل ابواب
الكلام ، وأضعف ما يتمسك به نوو الأحلام ، وإن أبيت إلا
الاستكبار والعتو ، والاصرار والغلو ، والاحساد والطغيان ، والعناد
والعصيان ، فإنك لن تعجز ربك ، ولن تنجو من ذنبك وذنوب من
اتبعك وضل بك ، والكلام بغير علم في الدين كذب وإفسك على رب
العالمين (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على

ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على
الظالمين (٣٠)

فلا تؤثر على خلاص نفسك ، وخلاص من تبعك شيئاً من عرض
الدنيا وزخرفها ، فإنك لا ينفعك جهل من اغتر بك فيها يوم الورود
على ربك .

وقد أودعنا صاحبك الواردين علينا سرا وجهراً ، وبدءاً وعوداً مما
نعتقد مما أعزنا الله به من الأسلام ، وخصنا به من بين الأنام ،
وأكرمنا به من اتباع نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - (قل يا
أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا
نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا
فقلوا أشهدوا بأننا مسلمون) (٣١) « فقل تعالوا ندع أبناءنا
وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة
الله على الكاذبين » (٣٢) والله نسأله أن يهدي بك من قبلك
فتفوز بأجورهم وتكون سبباً إلى استنقاذهم ، فأنت - فيما
بلغنا - مطاع فيهم (والسلام على من اتبع الهدى) (٣٣) .

كمل جواب الفقيه الأجل القاضي الأعدل أبي الوليد الباجي - رحمه
الله وغفر له ونصر وجهه - - بمنه وكرمه وجوده ، إنه ذو رحمة
واسعة ورب غفور .

رسالتا المعز لدين الله الفاطمي الى الامبراطور البيزنطي بشأن كريت والى كافور الاخشيدي حول الشأن نفسه (٣٤)

فصل من كتاب كتب به المعز (صلح) الى طاغية الروم في امر اهل
أقرطيش

قال : وكان طاغية الروم قد رغب الى أمير المؤمنين المعز لدين الله
(ص) في المودة ، وبذل له على ذلك أموالا ، وكانت رغبته اليه في
المودة مدة طويلة أو أبدية إن وجد ذلك ، فرأى الامام لما تبين له أن
ذلك خير للاسلام والمسلمين وليستجمعوا فيقووا على حرب
المشركين ، ان أجابه الى مودة خمس سنين .

ثم اتصل به بعد ذلك ، وقبل أن تنقضي مدة المودة ، أنه أرسل
الدمستق - الذي هو أقرب رجاله درجة اليه وأخصهم به - في عدة
من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة حتى أناخ بها على جزيرة أقرطيش ،
وهم في دعوة بني العباس . فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم به ،
وعلموا أنه ليس عند بني العباس نهضة ولا لهم لديهم نصر ،
أرسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم الى أمير
المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم واغاثتهم
فلم ير صلاوات الله عليه - وإن كانوا تنكبوا عنه - أن يخيب
رجاءهم عنده ، ولا أن يسلمهم للمشركين . فأمر عندما اتصل به
خبرهم وقبل أن يصل اليه رسولهم ، بالأخذ في الأهبة والعدة ليكون
نفوذ الأساطيل اليهم في أول زمان الامكان . ثم قدم الرسول عليه
وادی عنهم ما أرسلوه به اليه .

فرأى أن ينبذ الى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه ،
إن هو أصر على حربهم ، وأمر بكتاب في ذلك اليه ، وأملا على
الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه .

فقال بعد أن خيره بين أن يقلع عن حرب أهل أقرطيش وبين أن ينبذ إليه عهده - كما نبذ رسول الله (ص) إلى مشركي العرب عهدهم وأرسل علياً ببراءة فقرأها في الموسم عليهم - ولقول الله أصدق القائلين : « وإما تخافن من قوم خيانة فأنذِرهم » (٣٥) .

ثم قال له في كتابه (عم) :

ولاترى أن دعوة أهل أقرطيش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادة بتركهم اليك وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتصيير الله (تع) إياهم إليهم . فأقرطيش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها ، أطاعنا منها من أطاع وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر إليهم لا لله (تع) الذي خولنا ولا لنا ، إن شأؤوا أعطونا وإن أحبوا منعونا ، كلا ! إن ذلك لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو الذي أصطفانا وملكنا وأعطانا ، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهم ولا رد ما انتزعوه بالغصب من أيدينا إذا أقدروا الله على ذلك وبه قوانا .

فإن قلت أنت غير ذلك ، وأنت ترى ما في يديك لك ، فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ، ثم دارت لكما عليه الدائرة . فإن رايت أن من احتجز شيئاً وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاع ماصار إليه من بين يديه فهذه سبيل أهل الحق عندنا ، فإن اعترفت لها فقد انصفت وإن جهلتها فلم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها . وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوز اليك ، فانظر لنفسك ولأهل ملتك فإننا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده ، ولا حول ولا قوة إلا به .

وفي مثل ذلك إلى صاحب مصر :

قال: واستمد أهل أقرطيش هؤلاء صاحب مصر وهم من أهل دعوتيه

تجمعهم دعوة ال عباس ، ومراكبهم بخيرات بلدهم واطعمتها تميز
اهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها ، فعجز عن نصرتهم . وسأل
من ينظر للأمير المؤمنين فيما قبله في أن يكتب اليه (صلح) في
اغاثتهم واستنقاذهم ، وأرسل قوما كانوا منهم قبله ليسألوا أمير
المؤمنين (صلح) ويرغبوا اليه في ذلك ، ثم أظهر أنه ينصرهم ورمى
بعض مراكب في البحر لما اتصل به انكار العامة عليه للتخلف عن
نصرتهم .

فكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) الى من يكتبه بمصر
جوابا عن كتابه اليه بذلك يخبره أنه قد أمر باخراج الأساطيل واخذ
في عدتها .

وكان فيما كتب به اليه : أن قل لصاحبك : إن الله - سبحانه - قد
خولنا من فضله وأمدنا من معونته وتأيدته بما نرى أنا بحوله وقوته
ونصره لنا وأظهرنا على عدونا نكف أيدي الكفرة عما تطاولت اليه
من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله . وقد انتهى الينا أنك أظهرت
الحركة الى الجهاد وأمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك ، وأنت
لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك وميرهم بلدك وكونهم
واياك في دعوة واحدة . ولو أسلمناهم اليك وقعدنا عنهم لما كان لك
ولا لهم علينا حجة في ذلك ، ولكننا اثرنا نصرة أمة جدنا محمد (ص)
ولم نر التخلف عن ذلك وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم الينا فيه .
ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ما
أملت منه ، فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ أساطيلنا يريثك عن الذي
هممت من ذلك ، وأن تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا ، فلك
علينا عهد الله وميثاقه أنا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وأنا نحلهم
محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ونشركهم فيما أفاء الله علينا
ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا حتى
يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك على ذلك أو يكون من أمر
الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك وثق به منا ، ففي تظافر
المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله وكبت لأعدائه .
فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل .

فإن وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد فاعمل على أن تنفذ مراكبك الى مرسى طبنة من أرض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة أقرطيش ، ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى مستهل ربيع الآخر بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه .

والا ترى ذلك فقد أبلغنا في المعذرة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك . ونحن بحول الله وتأييده ونصره وعونه مستغنون عنك وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة في انفاذ أساطيلنا ورجالنا وعدتنا وماحولنا الله إياه وأقدرنا عليه مما نرى بحوله وقوته أنا نبليغ به مانؤم اليه بذلك ونصمده نحوه . فبالله نستعين ، وعليه نتوكل ، وعلى تأييده نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠

رسالة من الخليفة الحافظ الفاطمي الى روجر المتغلب على صقلية

(من صبح الأعشى للقلشندي ج ٦ ص ٤٥٨ - ٤٦٣)

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الامام الحافظ لدين الله
امير المؤمنين الى الملك بجزيرة صقلية وانكورية وانطالية وقلورية
وسترلو وملف وما انضاف الى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ،
وارشده الى العمل بطاعته في مصادره وموارده •

سلام على من اتبع الهدى ، وامير المؤمنين يحمده إليك الله الذي
لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد
المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ،
وسلم تسليمًا •

أما بعد: عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ،
ففض ختامه واجتلي • وقرىء مضمونه وتلي ، ووقعت الاصاخة
الى فصوله ، وحصلت الاحاطة بجملة وتفصيله • والاجابة تأتي
على أجمعه ، ولا تخل بشيء من مستودعه •

أما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول
فيما أولاك من إحسانه وكرمه ، فإن مواهب الله تعالى ومذنه التي
جعل تواليها اختبار شكر العبد وامتحانه على انه بخائنة الأعين وما

تخفي الصدور عليم. وهو القائل فيمن أثنى عليهم: (أولئك الذين
امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) (٣٦) لا يزال
مضاعفها ومرادفها ومتبعا سالفها آنفها ، وهو يوليها كلا من عبيده
بقدر منزلته عنده ، ويخص أصفياه بأوفى مما تمناه الأمل المبالغ

ووده ، والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين وأبائه الأئمة الراشدين ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأخرة ، اذ كان أفردهم دون الخليقة أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها الآخرة. واختصهم من حباؤه بما لا يحصيه عدد، وخولهم من آلائه بما لا يقوم بشكره أحد.

وأما ما ذكرته ، من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحتة من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترانهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها واستعمالهم الظلم تمردا ، وتماديهم في الغي تباهيا في الباطل ، وغلوا يأسا من الجزاء لما استبطئوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه ناذية ، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية ، كما أنه من كان من أهل السلامة وسالك سبيل الاستقامة ، ومقبلا على صلاح شأنه ، وغير متعد للواجب في سره وإعلانه ، تعين أن توفر من الرعاية سهمه، وتجزل من العناية نصيبه وقسمه ويؤمن ما يقلقه ويزعجه ، ويقصد بما يسره ويبهجه ، ويصان عن أن يناله مكروه ، ويحمى من أذى يلم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وغضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة أمير الأمراء ، فإن من تهذب بتهذيبك وتخلق بأخلاقك وتأدب بتأديبك لا ينكر منه إصابة المرامي ، ولا يستغرب عنده نجاح المساعي ، وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثنوى للنصائح ، وأن لا يزال عمره بين غاد في المخالصة

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكرا ما اعتمده مقدم أسطولك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ، وإعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جار في الديوان الخاص الحافظي ، ففعل يجمّل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره ، ويدل على علم أصحابك برأيك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن إثراك إبرازها كلما تقادم عهدها في ملابس بهجة مستجدة ، وهذا الفعل من خلانك

الرضية غير مستبدع ، وقد نخرت منه عند أمير المؤمنين ما حصل في أعز مقر وأكرم مستودع ، لاجرم أن أوامره خرجت الى مقدمي أساطيله المظفرة بما يجنيك ثمرة ما غرسته ، ويعلي منار ثنائك الذي قدرته على أقوى أصل أسسته ، وقد نفذت مراسميه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المسامحة بما وجب للديوان عما وصل برسلك على مراكبك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود الى ثغر الاسكندرية ، حماه الله تعالى ، ثم الى مصر ، حرسها الله تعالى ، وحق الصدور عنها وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية •

وأما شكرك على الاسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرادك وبغيتك فأوزعنا شعارهم أنهم عتقاء شفاعتك وارقاء منتك ، فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميل الرأي وكريم النية ومن الشواهد بأنه يوجب لك ما لا يوجب لأحد من ملوك النصرانية.

وأما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره، وإنهاؤك أن ذلك مما يهيك أمره فقد شفّعك أمير المؤمنين بالاجابة إليه على ما ألف من كريم شيمته ، وسير إليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عدته •

وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله الى الدولة الفاطمية - خلد الله ملكها - شريدا طائرا ، قد نبت به أوطانه ، وقذفته دياره ، لآمال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ، فقبلته أحسن قبول ، وبلغت به في الاحسان ما يزيد على السؤل ، وغمرته من الانعام ما يقصر عن اقتراحه كل أمل ، وجعلته فواضلها يقلب الطرف بين الخيل والخول ، وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة ، وأحواله توفي على البغية والارادة ، إلى أن جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها أن عذقت به الوزارة ، ونيطت به السفارة ، فوسوس له خاطره ما زخرفه البطر وزينه ، وصوره الشيطان وحسنه ، وأظهر ما ظهرت أماراته ووضحت أدلته وعلاماته ، فاستدعى قبيله وأسرته ، وجذسه وعشيرته بمكاتبات منه سرية ، وخطوط عثر عليها بالارمنية ،

فكانوا يصلون أول أول إلى أن اجتمع منهم عشرون ألف رجل من فارس وراجل ، ومن جملةهم أبناء أخيه وغيرهما من أهله ، فدلوه بالغرور ، وحملوه على ما قضى بالاستيحاش منه والنفور ، وقبوا عزمه فيما يؤدي إلى اضطراب الأحوال واختلال الأمور ، فامتعضت العساكر المنصورة مما أساء به سياستهم ، وأبوا الصبر على ما غير به رسمهم وعاداتهم ، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استعظم الحال فيه ، وتيقن أن التغافل عنه يقضي بما يعسر استدراكه وتلافيه ، فكاتب وليه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة ، وسما به استحقاقه إلى أعلى درج الانافة ، وحصلت له الرياسة باكتسابه وانتسابه ، وغدا النظر في أمور المملكة لا يصلح لغيره ولا يليق إلا به السيد الأجل الأفضل ، وهو يومئذ والي الأعمال الغربية ، وصدرت كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر الصعب ، وتستكشف به ما عرا الدولة من هذا الخطب ، فأجاب دعاءه ولبي نداءه ، وقام قيام مثله ممن أجزل الله حظه من الإيمان ، وجعله جل وعز حسنة هذا الزمان واختصه بعناية قوية ، وأمدّه بمواد علوية ، وأيده بأعانة سماوية ، تخرج عن الاستطاعة البشرية * فجمع الناس وقام خطيبا فيهم بأعمالهم على ما يزلهم عند الله ويحظيهم ، وموضحا لهم ما يخشى على الدولة من الأمر المذكور ، فاجتمعوا إليه كاجتماعهم يوم الحشر ، وغصت النجود والأغوار ، وامتلات السهول والأوعار ، وضافت الأرض على سعتها بالخلائق ، وارتفعت في توجههم لطلب المذكور الأعذار والعوائق ، ولم يبق فضاء ، إلا وهو بهم شرق ولا أحد إلا وهو منزعج بقصده وعلى تأخر ذلك قلق ، وكان بهرام وأصحابه بالاضافة اليهم كالشامة في اللون البسيط ، وكالقطرة في البحر المحيط ، وساروا مع السيد الأجل نحو مسارعين وعلى الانقضاض عليهم متهافتين . فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ويطوي المراحل ويرى الشرود غنما ، ويعد السلامة حلما . واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الأفضل الذي لم تزل فيه راغبة ، وله خاطبة ، ونحو توليه أياها متطلعه ، والى نظره فيها مبادرة متسعة ، ولم تنفك لزينة دستها

مستبطنه وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبدئة ، فأحسن الى الكافة قولاً وفعلًا ، وعمل في حق الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبهها ولا في الملوك العظماء مثلاً ، وغدا للملة الحذيفة حجة وبرهاناً ، وأولى الأولياء اعزازاً وتكريماً ، والأعداء اذلالاً واهواناً وصان الخلافة عن نفاذ حيلة وتمام غيلة ، ومخادعة ماكر ، ومخاتلة غادر ، فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساماً باتراً ماضي الغرار ، واجتنباه همماً في المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار ، واصطفاه خليلاً وظهيراً لتساوي باطنه وظاهره في الصفاء ، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التي ليس بها من خفاء ، وانتظمت الأمور بكفالتة في سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق ، فسعدت بنظره الجدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود وأصبح غصن المعالي بيمينه مورقاً ، وعلى الملة من يمن أرائه تمانم من مسر الحوادث ورقى ، فآثاره توفي على ضياء الصباح ، وعزماته تزري بمضاء المهندة الصفا ، ومآثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح . قاله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظية ، ويوزع شكره على سبوغها كافة البرية بكرمه وفضله ومنه وطوله .

ولما أمعن بهرام في الهرب وجدت العساكر المنصورة وراءه في المطلب وضائق عليه المسالك ، وتيقن أنه في كل جهة يقصدها هالك ، عاد لمكارم الدولة وعواطفها وسأل أماناً على نفسه من متالفها ، فشملته الرحمة وكتب له الأمان فعاوبته النعمة ، واختلط برجال العساكر المنصورة ، وصار حظه بعد أن كان منحوساً من الحظوظ الموفورة . وأما اعتذار الكاتب عما وجه إليه بأن من الكلام ما إذا نقل من لغة الى لغة أخرى اضطرب معناه فاختل معناه ، ولا سيما أن غرس فيه لفظ ليس في إحدى اللغتين ، فقد أبان فيما نسب إليه السهو فيه عن وضوح سببه ، وقد قبل عذره ولم تفك يده على التمسك به .

وأما ما سيرته الى خزائن أمير المؤمنين تحفة وهدية ، وأنبت به عن همة بدواعي المجد ملية ، فإنه وصل وتسلم كل صنف منه متولي الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبوت المعطوف كتابك عليه

وموافقته ، وقد أجري رسولك في إكرامه وملاحظته على أفضل ما يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهته ، وعلى قدر من وصل برسالته • وقد سير أمير المؤمنين من أمراء دولته ، ووجوه المتقدمين بحضرته ، الأمير المؤمن المنصور المنتجب ، مجد الخلافة ، تاج المعالي ، فخر الملك ، مولى الدولة وشجاعها ، ذا النجابتين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا منصور جعفرا الحافظي ، رسولا بهذه الاجابة ، لما هو معروف من سداده ، وموصوف من مستوفق قصده ومستصوب اعتماده ، والقى إليه ما يذكره ويشرحه ، وعول عليه فيما يشافه به ويوضحه ، وأصبحه من سجاياه والطافه ما تضمنه الثبت الواصل على يده ، إبانة لمحكك عنده وموقفك منه ، ومكانك لديه ، وأمير المؤمنين متطلع الى ورود كتبك متضمنة من سار أنباءك وطيب أخبارك ما يسكن الى معرفته ، ويثق بعلم حقيقته ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى •

تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن اتخاذه للقب أمير المسلمين

(من الحلل الموشية ص ٢٩ - ٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً •

من أمير المسلمين، وناصر الدين، يوسف بن تاشفين •
إلى الأشياخ والأعيان والكافة والخاصة من أهل « الفلانة » أدام
الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه •
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

أما بعد : حمداً لله أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب
النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وأنا
كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، في منتصف
محرم سنة ست وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح
الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، برود النعيم ،
وهداًنا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله
عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص
أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل ، وهو « أمير
المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية ،
فليخاطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه
وكرمه ، والسلام •

رسالة جوابية من المتوكل على الله بن الألفطس الى الفونسو السادس

(من الحلل الموشية ص ٣٦ - ٣٧)

وقد وصل الينامن عظيم الروم كتاب مدع في المقادير ، وأحكام العزيز
القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ويفرق ، ويهدد بجنوده الوافرة ،
وأحواله المتضافرة ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ،
وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام :
« أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا
يخافون لومة لائم(٣٧) » ، بالتقوى يعرفون ، وبالتوبة يتضرعون
وينصرون ، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن الله وليعلم
المؤمنين(٣٨) « وليميز الله الخبيث من الطيب(٣٩) » وليعلم من
المنافقين(٤٠) » .

وأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم ، وظهر من
اختلالهم ، فبالذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا
مع سائرنا من الأملاك ، لعلمت أي صاب أنقناك ، كما كانت أبائك
مع آبائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيبها من الحمام ، وضروب الآلام ،
شر ما تراه وتسمعه ، وأداء المال تتوزعه ، وبالإلحاح كانت قسطة
المنصور(٤١) على سلفك أهداء ابنته اليه ، مع الأنخائر التي كانت تفد
في كل عام عليه .

وأما نحن ، وإن قلت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ،
فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، إلا سيوفنا تشهد
بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره في ليالك ويومك ، وبالله تعالى
وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ، وذستعين ، ليس لنا سوى الله

مطلب ، ولا لنا الى غيره مهرب ، وما « تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين(٤٢) » : نصر عليكم ، فيالها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله ، فيالها من جنة ، وفي الله العوض مما به هددت ، وفرج يبتز ما مددت ، ويقطع بك فيما أعددت •

رسالة المتوكل على الله بن الألفطس الى يوسف بن تاشفين يستنجد به

(من الحلل الموشيه ص ٣٤ - ٣٥)

لما كان نور الهدى - ايدك الله - دليلاً ، وسبيل الخير سبيلك ،
ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح
العلم بأنك لدولة الاسلام اعز ناصر ، وعلى غزو الشرك اقدر قادر ،
وجب أن تستدعى لما أعضل الداء ، وتستغاث فيما أحاطت بالجزيرة
من البلاء.

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها
وشدة ظلمها ، واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالاموال
ويخرج لها من كل نخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة .

ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الاتعان والانقياد ، حتى
نفد الطارف والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن الفساد ، وأيقنوا
الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضرمت في
كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن
أخطاه القتل منهم ، فإنما هم في أيديهم أسارى وسبائا يمتحنونهم
بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا
على ما أملوه من التغلب ، فيالله ، وبالله مسلمين ، أيسطو هكذا
بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الكفر ،
ولا يكشف هذه البلية إلا النصر .

الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى
الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من نل ، فإنها
الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء .

ومن قبل هذا ماكنت خاطبتك ، أعزك الله بالنازلة في مدينة
قورية (٤٣) ، أعادها الله للإسلام ، وأنها مؤننة للجزيرة بالخلاء
ولن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخائل والتدبير
يتزايد ، حتى تخلط القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد
العدو مدينة سرية (٤٤) ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن
والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة ، تدركها من جميع
الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوى في في الأرض بها قاصيها
ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو
مشرك ، وطاغية منافق ، ان لم تدركوها بجماعتكم عجالا ،
وتبادروا ركباناً ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما
أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم الى معرفته أهدي ،
وفي كتابي هذا (الذي يحمله اليكم) الشيخ الفقيه الواعظ (مسائل
مجملة) يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكت هو يبينها لكم
ويوضحها فإنه - لما توجه نحوكم احتسابا ، وتكلف المشقة اليك
طالباً ثواباً - عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة بيانه ، والسلام.

رسالة من الفونسيو السادس الى المعتمد بن عباد وجواب المعتمد عليها

(من الحل الموشية ص ٣٨ - ٤١)

من الكنبيطور ، ذي الملتين ، الملك الفاضل ، الأذفدش بن شانجه ،
الى المعتمد بالله سدد الله أراءه ، وبصره مقاصد الرشاد : سلام
عليك ، من مشيد ملك شرفته القنا ، ونبتت في ربعه المنى ، فاعتز
الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطلايطة
واقطارها ، وما مار بأهلها حين حصارها ، فأسلمتم اخوانكم ،
وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ بآله ، قبل الوقوع في
الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا ، نحفظ زمامه ، ونسعى بنور الوفاء
أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو
ووارده ، لكن الانذار ، يقطع الأعذار ، ولا يعجل الا من يخاف الفوت
فيما يرومه ، أو يخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة
اليكم القرمط البر هانس ، وعنده من التسديد الذي يلقي به أمثالك ،
والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك ، مما أوجب استنابته فيما يدق
ويجل ، وفيما يصلح لافيما يخل وأنت عندما تأتيه من أرائك ، والنظر
بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك وبين يديك .

ولما وصل هذا الكتاب الى المعتمد بن عباد ، جاب عنه بخطه من
نظمه ونثره ، بما نصه :

الذل تأباه الكرام وديننا

لك ما ندين به من البأساء

سمناك سلما ما أردت وبعد ذا

نغزوك في الاصباح والامساء

الله أعلى من صليبك فادرع
لكتيبة حطمتك في الهيجاء
سوداء غابت شمسها في غيمها
فجرت مدامعها بفيض دماء
ما بيننا إلا النزال وفتنة
قدحت زناد الصبر في الغماء
فلتقدمن اذا لقيت أسنة
زرقا ترى بالوجنة الوجناء

في أبيات كثيرة.

وبعد ذلك : من المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ، محمد بن المعتض بالله ، أبي عمرو بن عباد ، إلى الطاغية الباغية أنفدش بن شانجة ، الذي لقب نفسه بملك الملوك ، وسماها بذى الملتين ، قطع الله دعواه.

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنه أول ما نبدأ به من دعواه ، أنه « ذو الملتين » والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومجبي المملكة ، لا تملكه قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت في اثنائها : ليس ، ولا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وأنا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم أنحاؤه ، ولا حسن انتحائه ، وأعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوا الاغترار ، أما تعلم أنا في العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كرامة الفرسان ، وجيل الإنسان ، وحماسة الشجعان ، يوم يلتقي الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفارة وتتغاهم الهام في القفار (٤٥) يديرون رحى المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم (٤٦) قد أعدوا لك

ولقومك جلادا ، رتبه الاتفاق ، وشفارا حدادا ، شحذها الاصفاق ،
وقد يأتي المحبوب من المكروه ، والندم من عجلة الشرور ، نبهت من
غفلة طال زمانها ، وايقظت من نومه تجدد أمانها ، ومتى كانت
لأسلافك الاقدمين مع أسلافنا الاكرمين يد صاعدة ، أو وقفة
متساعدة ، الا نل تعلم مقداره ، وتحقق مثاره ، والذي جراك على
طلب ما لا تدركه قوم كالحمير : « لايقا تلونكم جميعا الا في قرى
محصنة أو من وراء جدر (٤٧) » ، ظنوا المعازل تعقل ، والدول
لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسألة ، ما اوجب القعود عن
نصرتهم ، وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما اتينا في
انفسنا وفيهم ، من ترك الحزم ، واسلامهم لأعدائهم ، والحمد لله
الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريرك ، بما الموت دونه ، وبالله
نستعين عليك ، ولانستبطن في مسيرتنا اليك ، والله ينصر دينه
الكريم : « ولو كره الكافرون » (٤٨) ، والسلام على من علم الحق فاتبعه
واجتنب الباطل وخدعه .

رسالتا استصراخ من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين وجواب يوسف عليهما

(من الحلل الموشية ص ٤٥ - ٥٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما

الى حضرة الامام ، امير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة
الخلافة ، الامام امير المسلمين ، ابي يعقوب يوسف بن تاشفين .

من القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله
من كريم مقدارها ، اللانذ بحرمتها ، المنقطع الى سمو مجدها ،
المستجير بالله ، وبطولها ، محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ،
ورحمة الله وبركاته .

وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الاولى
سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وانه ايد الله امير المسلمين ، ونصر
به الدين ، انا نحن العرب في هذه الأندلس ، قد تلفت قبائلنا ، وتفرق
جمعنا ، وتغيرت ادياننا ، بقطع المادة عنا من مديننا ، فصرنا
شعوبا لاقبائل ، واشتاتا لاقراية ولا عشائر ، فقل ناصرنا ، وكثر
شامتنا ، وتوالي علينا هذا العدو المجرم اللعين انفذش ، واناخ علينا
بكل كفه ، ووطننا بقدمه ، واسر المسلمين ، واخذ البلاد والقلاع
والحصون ، ونحن اهل هذه الأندلس ليس لاحد منا طاقة على نصره
جاره ، ولا أخيه ، ولو شاوروا لفعلوا ، الا ان الهوان منعهم عن ذلك ،

وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال ، وأنت أيك الله ، ملك المغرب
أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، ومليكها الأكبر ، وأميرها وزعيمها
(٤٩) ، ونزعت بهمتي اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت
بحرمكم ، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحياوا شريعة الاسلام
وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكم بذلك عند الله
الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله تعالى
وبركاته .

الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وزعيم
المرابطين ، أبي يعقوب بن تاشفين نور الله به الآفاق ، وجمع به
الجيش والرفاق.

من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجير برحمة الله ، المعتمد على
الله ، محمد بن عباد ، سلام على حضرة تجرد ايمانها ، واشتهر
امانها ، أما بعد :

فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات
ودواعي الاختلاف ، وأنعم على عباده بأمير جديد « وقوم أولى
بأس شديد » (٥٠) وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور جدك ، وقد
جعلك رحمة يحيي غيثها ربوع الشريعة ، وخلقك سلما الى الخير
ونذريعة ، وقد طرا على الاسلام حادث اذسى كل هم ، وهمت النكبات
بوقوعه وهم ، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين ، واختلاف
سببه لم تطرف له في الدعة عين ، يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ،
وننام مطمئنين من أفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جاءنا ابراقة
وارعاده ، ووعدده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب
والجوامع ، ليقيم بها الصليبان ، ويستنيب بها الرهبان ، ومما يطمعه
استمالاته ايانا بالدعة ، واملاؤه في الرحب والمتعة ، استجرارنا لما
أبطنه ، واهجاما علينا وطنه .

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه ، جهادك ، وقيامك بحقه

واجتهادك ، ولك من نصر الله خير باعث ، يبعثك الى نصر مناره ،
واقْتَبَأَسْ نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته
ويحضر الحرب بألأته ، فإن شئت الدنيا فقسطوف دانية ، وجنات
عالية وُعيون أنية وإن أردت الأخرى فجهاد لايفتر ، وجلاد يحز
الغلاصم ويبتر ، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واجمال
معروفكم ، نستعين بالله و ملائكته ، وبكم على الكافرين ، كما قال
الله سبحانه ، وهو اكرم القائلين : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم
ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (٥١) » .

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الاسلام نشكرها
ورحمة الله نتحدث بها وننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على
أمير المسلمين ، وناصر الدين ، ورحمة الله وبركاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة أمير المؤمنين .
إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله ، المعتمد على الله ، أبي القاسم
ابن عباد ، أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

فانه وصل خطابكم المكرم ، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا
لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ،
فنحن يمين لشمالك ، ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا
ذلك من الشرع ، وكتاب الله تعالى ، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن
تسلم لنا الجزيرة الخضراء ، تكون لنا ، لكي يكون جوازنا اليك على
أيدينا متى شئنا ، فإن رأيت ذلك فأشهد به على نفسك ، وأبعث إلينا
بعقودها ، ونحن في أثر خطابك ، إن شاء الله ، والسلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبركاته.

رسالة الفونزو السادس الى يوسف بن تاشفين ورد يوسف عليها قبل وقوع معركة الزلاقة

(من كتاب اعمال الاعلام للسان الدين ابن الخطيب
ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٤٠)

من امير النصرانية اذفونش بن فرلند إلى يوسف بن تاشفين ، اما
بعد فانك اليوم امير المسلمين ببلاذ المغرب وسمسلطانهم ، واهل
الاندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي ، وقد اذلتهم بأخذ الجزية
منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر ، وانا لا أقنع إلا بأخذ البلاد وقد
وجب عليك نصرهم لأنهم اهل ملتك ، فأما ان تجوز إلي ، وأما ان
ترسل إلي المراكب أجوز اليك ، فان غلبتني كان ملك الأندلس
والمغرب اليك ، وان غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك اياهم فان
نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم « فلما وصل اليه كتابه امر ان يكتب له
على ظهر كتابه : « من امير المسلمين يوسف الى اذفونش ، اما بعد
فان الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك ، والسلام على من
اتبع الهدى ، وادف الكاتب بيت أبي الطيب :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا
ولا رسل إلا الخميس العرمم

رسالة من الفونزو السادس الى يوسف بن تاشفين

(حسب رواية صاحب الحلال الموشية ص ٤٢ - ٤٣)

من أمير الملتين أنفذش بن شانجة بن فراندة إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، أما بعد :

فلا خفاء على ذي عيذين أنك أمير المسلمين ، بل الملة المسلمة ، كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخازل ، والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخلال الى الراحة ، وأنا أسومهم الخسف ، فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، وأقتل الشبان ، وأسر الولدان ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم ، ان أمكنتك فرصة هذا ، وانتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى ، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا ، وان قتلاك في الجنة ، وقتلانا في النار ، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم ، وأعاننا عليكم ، ولا تقدرון دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا عنك أنك في الاحتفال ، على نية الاقبال فلا أدري اكان الجبن يبطن بك ، أم التكذيب بما أنزل اليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز ، فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وأنا أقاتلك في أحب البقاع إليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة .

فأمر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، أن يكتب اليه على ظهر كتابه : جوابك يا أنفذش ما تراه لا ما تسمعه ، ان شاء الله ، وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي :

ولا كتب الا المشرفية والقنا

ولا رسل الا الخميس العرمم (٥٢)

رسالتنا بشارة بنصر الزلاقة من المعتمد بن عباد الى اهل

اشبيلية

(من الحل الموشية ص ٦٣ - ٦٦)

لما فرغ الناس من القتال في الزلاقة ، تناول ابن عباد اضبارة كاغد ، على عرض الأصبع وكتب فيها سطرين : «الى ابني الرشيد وفقه الله اعلم انه التقت جموع المسلمين بالطاغية أنفذش اللعين ، ففتح الله للمسلمين ، وهزم على ايديهم المشركين ، والحمد لله رب العالمين ، فاعلم بذلك من قبلك من اخواننا المسلمين ، والسلام .

وكان ذلك عند الزوال من الجمعة ، وعلق الاضبارة في جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال ، فكان الناس باشبيلية اقنط ما كان في ذلك اليوم ، فوصل الحمام من يومه ، وقرئت على الناس بمسجد اشبيلية ، فعم السرور ، وكثر الدعاء.....

ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، سنى الله امرا يسر اسبابه ، وفتح لنا الى الفرج والفتوح بابه ، وعطف علينا القابل للتوب ، الغافر للذنوب ، والتقيننا مع الطاغية الباغية ، الذي اجاب الموت داعيه وأخزى التوفيق مساعيه ، بعد غدر ابداه ، وجرى فيه مداه ، وكان تواعدنا معه لذلتنقى في سواه ، فأتى والنقض يجزر ذيل مخزاه ، والغيب يشهد عليه بما ارداه ، والغدر يعلمنا انه طعمة من نواه ، فاستبشرنا انه ابتدا بالغدر الذي يرديه ، وتعجل سلوك طريق لا تهديه ، وتحققنا انها مقدمة فتح سبقت ، ونواسم سعد عبققت ، والنصر لا تخفى دلالة ، واليمن لا تستره غلالة ، فتدارك اخواننا المسلمون بالانصاف ، وتصافحوا بالاعتراف والانصاف ، وجرت البسائط

ذيول الزرد وشكرت الشفار فعل الصقيل الفرند ، ولما احلوك ليل الحرب واغطش ، وغار ماء ثبجها فاعطش ، طلع فجر السعادة فانجح ، ونادى من كتب السلامة : اصبح ، اصبح ، وعن قريب طلعت شمسها تشرق ، وتهلك الكافرين وتحرق ، وليس دونها حجاب يستتر شعاعها ، ويحجب لماعها ، ولما تسامتت الرؤوس ، واحدق الرئيس بالمرؤوس ، ظلننا نرتب الجماجم ، وكأنها من اعجب احلام نائم ، ولما صعد المؤنذون اكوا ما بنتها أيدي الأيد من هاماتهم وحصدتها بواتر قطعتها بلاماتهم ، اعلنوا بكلمة الاخلاص فوق اذان وعت ، ماكانت عنه صمت ، وأدمغة أنزلها الندم على ماكانت به همت ، وقرت العيون واذشرحت الصدور ، « وأشرق الأرض » (٥٣) كلها بهذا الدور ، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح ، أنذر بين يدي نجواه (٥٤) ، بنصر يعجز عنه الحصر.

وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين ، قضى الله بالشهادة فيها ، لمن اهتم بأمانيتها ، ثم أنزل سكينته ، فخطبت نصال المسلمين ، رقاب الكافرين ، فانكحتها اباكارا ، صانتها حبال المغافر ، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر ، ولا مهر الا ما نووه من كرم نفوس ، جادت متطوعة ، ومشيت الى الخيرات مسرعة فنفلهم الله انفالا ، ووعدهم بالنصر ، فأوفى لهم .

فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر ، كما تلقينا ، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم اصبحنا فيها ، وأمسينا ، والله يصلها بالتأييد ، ويتبعها بالتوفيق والتسديد ، والسلام .

ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلات أيديهم بالغنائم الوافرة ، والسبي الكثير ، واكتسبت الناس فيها من الات الحروب ، والأموال ، وسيوف الحلى ، ومناطق الذهب والفضة ما اغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم

الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخلق
الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤساء الأنداس ، فجزى الله
أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ،
أفضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس من خناق ، وصل لنصر
هذه الجزيرة من حبل ، وتجشم الى تلبية دعائها ، واستبقاء
ذمائها (٥٥) ، من حزن وسهل ، حتى هزم على يده اعداء الله
المشركون . وظهر أمر الله وهم كارهون .

رسالتا بشارة بنصر الزلاقة ارسلتا الى اشبيلية

(من النخيرة لابن بسام ق ٢ ج ١ ص ٢٤١)

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضلته على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يسر الله في أمسه وسنائه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أنفوذ بن فرذلند ، أصلاه الله - إن كان طالع الجحيم ، ولا أعدمه - إن كان أمهل - العيش الذميم كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على أكابر رجاله وحماته ، وأخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به الى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدي رؤوسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد آثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ، والذي لا مزية فيه أن الناجي منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيفوف الجوع والبعد مقتول ولم يصبني بحمد الله إلا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المال عندي وزكى ، فلا يشتغل لك بال ، ولا تتوهم فيه غير ما أشرت اليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذي لا يرجى الا من عنده.

وقد علم ما كنا عليه قبل مع عدو الله أنفوذ بن فرذلند قصمه الله ، من تطاطونا واستعلائه ، وتقامننا وانتخائه ، وانا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاء ، ولا لمدة الامتحان به فناء ، إلى أن سنى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلي الأحمى - أيده الله - ما سنى ، وأدنى من نأي دياره وشبحة مزاره ما أدنى فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب ، واستفتح إلى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب ، إلى أن

ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصية له ، ثم أجاز - على
بركة الله وعونه - يريش ويبري ، وصار بعد قدما يخلق ويفري ،
ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري ، وانا أنجده بوسعي
واسعده على حسب ما يطيقه ذرعي ، الى أن صرنا معشر الحلفاء
بببلايوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعد تشاور على قصد
قورية - حرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك فصمد
من محدثده اليها في جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن
تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قسرونهم إلى
أقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم وأقدامهم ، ولما
أشرف على جنابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتجه لنا بعد
ما أردنا من المامها ، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله نفجه
وتهوره على السلوك في مدرج سيولنا .

وفي فصل منها : فدنونا اليه بمحلاتنا - نصرها الله - ثم
اضطربناها بإزائه ، وأطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائها
- لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضطرا
على اللقاء ، وقدم بعض أخبيته دهشا في الرقعة التي كانت بيدنا على
صغرها من بساطة الفضاء ، وقد تيقن أنه إن أخذ المسلمون
مصافهم ، ورتبوا في مواقعهم كوافهم ، اضطلم عن آخره جمعه ،
واجتث أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدره غرة ، وحمل ولم يكن -
بحمد الله - ما استشعره مرة ، فتنادى المسلمون بشعارهم
المنصور ، واقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة بالظهور و
الوفور ، فتواقف قليلا الجمعان ، وتجول مليا الفريقان وللأسيف
حكمها ، ومن الحتوف حدها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أمير
المسلمين وناصر الدين - أيده الله - الحملة ، وصدم في جمع لم
يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن ولوا الأدبار ،
واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله -
بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل غور ونجد وتقتضي أرواحهم على
حالين من كاليء ونقد ، ولم يخلص منهم على أيدي المتبعين -
أجرهم الله - إلا من سيلتهمه البعد ، ويأتي على حشاشته الجهد ،

و اما محلّتهم فانتهبت في اول وهلة ، وشربت بأسرها في نهلة .
وفي فصل منهما :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله - على هول
المقام ، وشدة الاقتحام ، كثير ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك
الجولة إلا عدد يسير ، فإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت
تحت السيوف بددا فسيموت لا محاله أسفا وكمدا ، ونحمد الله على
مايسره من هذا الفتح الجليل وسناه ، ومنحه من هذا الصنع
الجميل وأولا ه .

رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري الى المعتمد بن عباد بعد نصر الزلاقة

(من النخيرة لابن بسام ق ٢ ج ١ ب ٢٣٧)

اطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر ، الجميل الذكر ، ذي
الأيادي الغر ، والنعيم الزهر ، وهنأ ما منخه من فتح
ونصر ، واعتلاء وقهر ، بطابع السعد يا مولاي أبت ، وبسائح
اليمن عدت ، وبكنف الحرز عنت ، وفي سبيل الظفر سرت ، وبقدم
البر سعيت ، وبجنة العصمة أتيت ، وبسهم السداد رميت
وأصميت ، صدر عن أكرم المقاصد ، وأشرف المشاهد وعود بأجل
ما ناله عائد ، وأب به وارد ، فتوح أضحكت مبسم الدهر ، وسفرت
عن صفحة البشر ، وردت ماضي العمر ، وأكبت واري
الكفر ، وهزت أعطاف الأيام طربا ، وسقت أقذاح السرور
نخبا ، وثنت آمال الشراك كذبا ، وطوت أحشاء الطاغية
رهبا ، فذكرها زاد الراكب وراحة اللاغب ، ومتعة الحاضر ونقلة
المسافر :

بها تنفض الأحلاس في كل منزل
وتعقد أطراف الحبال وتطلق
شملت النعمة ، وجبرت الأمة ، وجلت الغمة ، وشفقت الملة ، وبردت
الغلة ، وكشفت العلة.

كان داء الاشراك سيفك واشت
دت شكاة الهدى وكان طبيبا

فغدا الدين جديدا ، والاسلام سعيدا ، والزمان حميدا ، وعمود

الدين قائما ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصورة ، وعين الملك قـريرة فهنا الله مـولانا وهنأنا هــ هذه المنح البهية مطالعها ، الشهية مـواقعها المشهورة أثارها ، المأثورة أخبارها ، ونصر الله أعلامه ففي البر تحل وتعقد ، وعضد حسامه ، فبالقسط يسـل ويغمد وأيد مـذاهبه فبالتحزم تسدى وتلحم ، وأمد كتائبه ففي الله تسرج وتلجم فكم فادح خطب كفاه ، وظلام كرب جلاه ، وميت حق أحياه ، وحي باطل أرداه وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره ، وناجم فتنة قلم أظفاره ، ومغلول أسنة أرهف شفاره ومستباح حرمة حمى نماره.

فلله هذه المساعي الكريمة ، والمنازع القويمة ، المتبلجة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة ، فقد تمثل بها العهد الأول والقرن الأفضـل الذي أخرج الناس يأـمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ، والذي سطع هذا السراج ، وانتهج هذا المنهاج ، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه ، وصنائع الله تتصل لديه ، إدالة من مشاقيه وإزالة لمحاربيه ، وإبادة لمناوئيه ، وإن أجل هذه النعم في الصدور ، وأحقها بالشكر الموفور ، ما من الله به سلامة مـولاي التي هي جامعة لعز الدين ، وصلاح كافة المسلمين ، بعد أن صلى من الحرب نيرانها ، فكان أثبت أركانها ، وأصبر أقرانها :

وقفت وما في الموت شك لمواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلله الحمد والابداع والالهام ، وله المنة وعلينا متسابعة الشكر والدوام ، وفازت الكف الكليم ، بأعلى قداح الكلوم لدى المقام الكريم ، وإنها لهي التالية للأصبع الدامية ، في المنزلة العالية :

بصرت بالراحة العليا فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين الى اشيـاخ المغرب حول معركة الزلاقة (نقلا عن روض القرطاس المنسوب لابن ابي زرع)

« أما بعد حمدا لله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه ، فإن العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه وتواقفنا بإزائه ، لقناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختر الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب ، وقال : الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فتفرقنا على ذلك ، وأضمر اللعين خـلاف مـا شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خـدع ونقض عهد ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنبياء في سحر يوم الجمعة (الحادي) الثاني عشر من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين ، فانتدبت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين ، فتعشته قبل أن يتعشها وتغدته قبل أن يتغداها ، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لتونة نحو الفدش ، فلمـا أبصر النصاري رايتنا المشتهرة المنتشرة ، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة ، وغشيتهم فروق الصفايح ، وأظلتهم سحائب الرماح ، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، التحم النصاري بطاغيتهم الفدش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاه المرابطون بنية صادقة

خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب ، ووكفت ديم السيوف
والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء في
هـوج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النضر العـزـيز
والفرج ، وولى الفدش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى
ساقيه في خمسمائة فارس من مائة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف
راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه
الله إلى جبل هنالك ، ونظر النهب والذيران في محلاته من كل
جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شـزـرا ، لم يجد عنها
صدبراً ، ولا يستطيع عنها دفاعاً ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالتبور
والويل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل ، وأمير المسلمين بحمد الله قد
ثبت في وسط مراكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور
الجهاد مدفوع الأعداء ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل
السؤال والمراد ، وقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتستلم
نخائرها وأسبابها وتريه رأي العين دمارها ونهابها ، والفدش
ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظاً واسفاً على أنامل
كفيه ، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار ، عاد رؤساء الأندلس
المنهزمون نحو بطليوس والغار ، وتراجعوا حذراً من العار ، ولم
يتبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواعد ، أبو القاسم المعتمد بن
عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيب الجناح ، مريض عناء
وجراح ، فهناه بالفتح الجميل ، والصنع الجليل ، وتسلى الفدش
تحت الظلام ، فاراً لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس
الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة ، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة
فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وكانت هذه النعمة
العظيمة ، والمنة الجسيمة ، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة
تسع وسبعين وأربعمائة.

رسالة يوسف بن تاشفين الى الزيريين في افريقية
سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٣

حول الجواز الى الأندلس ومعركة الزلاقة (من مخطوط
الاسكوريال رقم ٤٨٨ - ٤٩ و - ٥٣ ظ)

« الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وفضلنا بمحمد نبيه عليه
السلام ، احمده حمدا يوجب المزيد من الائه والسبوغ من سرايله
ونعمائه ، كان من قضائه - جل ثناؤه وتقديست اسمائه - لما اراد
قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب سبب لنا اليهم
المطلب فقفونا اثارهم واخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم
الظالمين ، فقومنا الدين ، ومهدناها للمسلمين ، فصفت لنا
ضماثرهم ، وخلصت الى الله تعالى نياتهم وسرائرهم حتى وصلنا
طنجة الركاب ، واذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا
وبنا ، وهو خير الفاتحين واسرع الحاسبين لاله غيره وهو ارحم
الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصراري - دمرهم الله - على بلاد
الأندلس ومعاقليها ، وإلزام الجزية لرؤسائها واستئصال
اقلبيها ، وإيطانهم البلاد دارا دارا لا يتخوفون عسكريا يخرج
اليهم ، فيبيد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون
الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخطبنا على
الجواز الى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، والوينا
الأعذار الى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز بابا ، ولالدخول البحر
أسبابا ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله ، المولى
بنصر الله ، أحسن الله في كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه -
فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو أسودا ضارية وسباعا عادية

وشيبا وشباننا ، بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحروب وجربوها ، فهي أهم وهم بنوها ، يتامضون تلامظ الفهود ، ويزارون اليها زئير الاسود ، فشحننا بهم القوارب ، وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل افق اليهم ، ووفدوا من كل قطر اليهم ، متعجبين من هياتهم محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعههم منهم حاشى الخيل والدرك ، وهم مع ذلك لا ينالون الا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا انهم طعم لاسيوف وغرض للحتوف وسعد للأرماح ونهب للأسلاح فكل استصغروهم ، والجميع منهم احتقروهم ، وتبلغ الينا اخبارهم واقوالهم وتنتهي اليها افعالهم ، ثم أتبعناهم جيشا بعد جيش بخيول كالبحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمر ، على أجرد يتسابقون الى اللقاء في الفضاء ، تسابق الحين والقضاء ، ومع هذا كله فان أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا وازاحة غيبتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستخرنا الباري تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي حتى سهل الله المركب وقرب المطلب ، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة والتأم شعبنا مع من جاز من عساكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم اليها بالعدوة من قبل الأندلس أمير النصراني رسالة يخاطبنا فيها بالجواز اليها اذ عجزنا عنه ، وفرقنا منه - نعطوه - المراكب ونسلموا - اليه الشواني والقوارب ليرد علينا ويقائنا في مأمنا ، فلم نلتفت اليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية استيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن في ذلك كله لما نقل اليها ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطنين سريرة المخبئين لابسين كسوة

الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرة عمرت ببقائه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا الى مدينة بطليوس ، واقمنا بها أياما منتظرين لوفد الرؤساء من جميع قطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عنذنا أن كل واحد منهم مشغول مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم في بلادهم وأضعفوهم وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد واستنقاذ العباد ، فجمعنا عساكرنا وصرنا اليه ، وصرنا الى قفل قورية من بلاد المسلمين ، صرفها الله ، فسمع بنا وقصد قصودنا وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظرا لنا فبعثنا اليه نحضمه على الاسلام ، ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى وبين لنا في كتابه ، من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون فأبى وتمرد ، وكفر ونخر وعمل على الاقبال علينا ، وحث في الورود علينا فلحقنا وبيدنا وبينه فراسخ فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياما ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلائع اليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبيدنا على لقائه يوم الخميس لحدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة فلما كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتائب قد ملأت الأفاق ، وتقلب قلب الحتوف للأحداق قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأى من الخمور يقدررون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أذبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل مناساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عودا ، وأنجدهم عديدا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم لا يقدررون عسكرا الا عسكره ، ولارجالا الا رجاله ، ولا عديدا الا عديده ، وداود من أصحابنا منا الى إزائه ، فهبطوا اليه لفيفا واحدا ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل فلما راهم من كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يذخرون من قبله الاموال والضياع ، استكت أذانهم واضطربت

اضلاعهم ودهشت ايديهم ، وزلزلت اقدامهم وطارت
قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فروا يطلبون معقلا يعصمهم
ولا عاصم الا الله ، ولا هاربا منه الا اليه ، فلحقوا من بطليوس
بالكرمات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، واسلموه - ايده الله
- وحده في طرف الأخبية مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد
استسلموا للقضاء فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس ، يعظمون
الكنائس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا
منهم الأرض ، ولم يبق من الكل الا البعض ولجأ في الأخبية ، بعد
ان عاين المذبة ، وتخلصه الله بذنبه في المسلمين وبلغ أمنيته ، بعد
ان وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه
وعبيده يرجع اليه ، لا يروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ثم
قصدت كتبية سوداء كالجبل العظيم أو الليل البهيم عسكر داود
وأخبيته فجالوا فيها جولانا ، وقتلوا من الخلق الوانا ، واستشهد
الكل بحمد الله ، وصاروا الى رضوان الله ، ونحن في ذلك كله
غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من
وراء الشعب ، كقطع الذهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة
العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما راونا ، ووقعت أعينهم
علينا ظنوا ان الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ، ولقاء
رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لاشريك
له ، ونهضنا للمنون الذي لا بد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا
آخر يومنا من الدنيا فلزموتوا شهداء ، فحملوا علينا
كالسهام ، فثبتت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة
معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا
ذاهلين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولاضربة
تأخذنه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنناهم بالسهمرية دون الوخز
بالابر ، وضاق بهم الأرض بما رحبت حتى ان هاربهم لا يرى غير
شي الا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم
الأنوف ، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها وعلى البيضات
فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها

فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارسا الا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجبر عنانه ، كأنه معقل بعقالة ، ونحن راكبون على الجواد الميمون العربي المصون ، السابق اللاحق المعد للحقائق وما منا الا من له جرابان فيه سيفان وبيدنا الثالث عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا في الأرض مجادلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلونها بإزاء المحلات حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم والأيدي متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحلنا دون أباطيلهم وأمانيتهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل ، والأنفوذ فيهم على ما أخبرنا ، قد أئخذوا جراحا بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب في المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون في أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم ، وهم ينظرون شزرا نظر التيوس الى شفار الجزارين الى ان جن الليل وأرخى سدوله ، ولوا هاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على النقع رائضة . ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك ، وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ولا يكون من الانتقال ، ولا يسأمون من تشريط الأموال ، ولحقوا (قورية) ومنها حيث رحلها أم قشعمهم فصححنا ضمائرنا ، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بجمد الله غانمين منصوريين ولم يستشهد منا الا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعادا بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن اشتهرت نجده في المغرب ، وانقلب خير منقلب ، ولحقنا

اشبيلية حضرته عمرت ببقائه ، وأقمنا عنده أياما ، ورفعنا عنه
مودعين لاتوبيع قاطع ، ولايمنعنا منه متى أحب مانع ، ولحقنا
الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها
وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، أو
رجع الى أحدهم نفس ، يذكرون مآلقوا ، ويتذكرون ما
بقوا ، و(سندسدرجهم من حيث لا يعلمون ء وأملى لهم إن كيدي
متين . (٥٦) حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حي ، ولا يحس
منهم أدس ، والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى
وهذا كله منا منه علينا لا منا منا عليه ، وصلى الله على محمد
خاتم النبيين وقائد الفر المحجلين الى جنات الله النعيم ، وآله
الطيبين وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة من يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله أحمد ابن يوسف بن هود صاحب الثغر الأعلى

(من الحلال الموشية ص ٧٥)

من أمير المسلمين ، وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، إلى المستعين بالله أحمد بن هود ، أدام الله تأييده ، من حضرة مراکش ، حيث آيات شرفك ، ومآثر سلفك ، ونحن نحمد الله بجميع المحامد ، ونستهديه أحسن الموارد ، ونسأله أتم الفوائد ، وأنجح المقاصد ، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم صفوة أوليائه ، وخاتم أنبيائه ، وأما الذي عندنا - أيديك الله - لجانبك الكريم ، وبحرك الطامي ، ومجدك الصميم ، ومهلك المعلوم فود صريح ، وعقد - في ذات الله تعالى - صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبيل والنباهة والفضل ، أبو مروان عبد الملك ، ابنك ولادة وتنسبا ، وابننا ودادا وتقربا ، زاد الله به عينك قررة ، ونفسك مسرة ، ومعه خاصتك الوزيران : أبو الأصبغ ، وأبو عامر ، أكرمهما الله بتقواه ، وكلا وفيناه حق نصابه ، واتيناه بره من بابه ، وأديا إلينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور ، فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيل جملته إلى تخليصهما ، فآلقينا إليهما مراجعة في ذلك ما لقنوه ، وسفرنا إليهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه ، وجملته الوفاق ، وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

رسالة البابا غريغوار السابع الى صاحب قلعة بني حماد

(عن تاريخ المغرب الدبلوماسي لعبد الهادي التازي
ج ٥ ص ١٩٤ - ١٩٥)

من عند الراهب غريغوار ، خدام عباد الله ، إلى الناصر ملك
موريطانيا من إقليم ستيف بإفريقيا .. تحية وبركة بابوية .

لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منا أن
نرسم كاهنا وذلك حسب القوانين التي تفرضها علينا
المسيحية ، فبادرنا باختيار الأسقف سرفان لأن طلبكم هذا كان
صائبا . وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا ، كما أنكم احتراماً
لبيتر - أمير الرسل - وحباً لنا قد حررتكم الأسرى المسيحيين
ووعدتكم أيضاً بالعفو عن الآخرين الذين قد يوجدون عندهم .

إن الله خالق كل شيء والذي بدونه لا نستطيع شيئاً ، قد ألهمكم
الطيبة وهياكم لهذا العمل النبيل .

إن الله العلمي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولا يريد أن
يهلك أحداً ، لا شيء أحب إليه تعالى أكثر من حبنا لبعضنا ، بعد حبنا
له سبحانه وكذلك من التمعن في هذا المبدأ : « عامل غيرك بما تحب
أن تعامل به »

فينبغي لنا أن نمارس فضيلة المحبة هذه أكثر من غيرنا من
الشعوب . فنحن جميعاً ، على أوجه مختلفة ، نعبد إلهاً واحداً ، وإننا
كل يوم نسبح بحمده ونجل فيه خالق العصور ورب العالمين .
فعندما أخبرنا شرفاء مدينة روما بالصنيع الذي ألهمكم الله إياه ، قد
أعجبوا بسمو قلبكم وأذاعوا مدحكم ، وإن اثنين من بينهم هما

اللذان يشاركانا الأكل والشراب عادة ، البيرك وسنسيون ، وقد تربيا معنا في قصر روما منذ كانا في سن المراهقة .

وهما يودان ، بحمية ، أن يربطنا معكم صداقة ومودة ، وسيكونان سعيدين بإرضائكم في هذه البلاد . سيبيعان لكم ببعض رجالهم ليبرهنوا لكم على مدى تقدير أسيادهم لخبرتكم ولعظمتكم وليظهروا لكم رغبتهم في خدمتكم هنا .

وإننا نوصي جلالتكم بهم ونطلب منكم أن تكونوا لهم الحب والوفاء مثل الحب والتفاني الذي سنخصصكم دائما به وبأي أمير يعينكم . إن الله العلي القدير يعلم أن عبادته تلهم الصداقة التي محضناكم بها .

وكم نتمنى لكم السلامة والنصر في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وإننا نتوسل إليه تعالى من أعماق قلوبنا أن لا يأخذكم إليه إلا بعد عمر طويل ، إلى صدر ونعيم سيدنا ابراهيم عليه السلام .

رسالة يوسف بن تاشفين الى صاحب قلعة بني حماد يقرعه فيها على تعامله مع البابوية

(من الذخيرة لابن بسام ق ٢ ج ٢ ص ٢٥٧)

ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي
استظهرت عليها بأضدادك ، وأجذفت فيها بطارفك وتلادك ، واخفقت
من مطلبك ومرادك ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرح به والمشار
إليه فيه ، ووجدناك تتجنى وتثرب على من لم يستوجب
التثريب ، وتجعل سينك حسنا ، ومنكرك معروفا ، وخطاك صوابا
بيننا ، وتقضي لنفسك بفلج الخصام ، وتوليها الحجة البالغة في جميع
الأحكام ، ولم تتأول أن وراء كل حجة أدلتها ما يدحضها ، وإزاء كل
دعوى أبرمتها ما ينقضها ، وتلقاء كل شكوى صححتها ما
يوضحها ، ولولا استنكاف الجدل ، واجتناب تردد القيل والقال ،
لنصصنا فصول ما يبطله ، ويخجل من ينتحله ، حتى لا يدفع لصحته
دافع ولا ينبو عن قبول أدلته راء ولا سامع ، ولا يختلف اعترافا به
دان ولا شاسع .

وفي فصل منها : وننشدك الله الذي ماتقوم السماء والأرض إلا
بأمره ، ألم نكن عندما نزع الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد
ابن يوسف رحمه الله ، وتفاقم الشنان ، قد توفرننا على ما كان
بالحال من إقلاق ، وتأخرنا عما كانت النصبة تستقدم من بدار أو
سباق ، ولم نمد الجهة حق إمدادها ولاكثرنا فوق ما كان يلزم من
جماهير اعدادها ولاعدلنا عن جهاد المشركين ، ولا أقبلنا إلا على
ما يحوط حرب المسلمين ، رجاء أن يثوب استبصار ، أو يقع
إقصار ، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد ، وتقوم بحمية وتقعّد ،

وتبرق غضبا وترعد ، وتستدعي نؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب ، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا ، وتنفق عليهم من كنزهِ أولئك إسرافا ، وتمنح أهل العشرات مئين وأهل المئين آلافا كل ذلك تعتضد بهم ، وتعتمد على تعصبتهم لك وتآلبهم ، وتعتقد أنهم جنتك من المحاذير وحماك دون المقادير ، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير .

ونحن أثناء ما فعلت ، وخلال ما عقدت وحللت ، نؤم العدو - قصمه الله - فنجهبه ونكافحه ، ونقعده ونناطحه ، ونتحيفه من أقطاره ونغزوه بدءا وتعقيبا في عقر داره إلى أن استجمعت أخيرا واستجشت وتراجعت إلى عرفانك وأجهشت ولولا ماؤك الذي ثموده ، وشارفوا إلى أن يستنفدوه ، ما أووا لشكواك ، ولزادوك ضغنا على إبالة بلواك ، وإنك لمتداو منهم بسم ، ومستريح إلى غم ، فبلغت معهم ما بلغت ، وأرغت بهم ما أرغت ، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنقه ، وأضفنا أنشودة وهق الهزي على عنقه ، وأشفى على انقطاع زمانه ورقمه ، ففرجت عنه كربة لم يظنها تنفرج ، ونهجت له منها وجه مخلص لم يحسب به ينتهج ، وأخلت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده وبسطت فيهم يده وكانت في جامعة تقصره عما يريده ، ولو أن صاحب رومة المشتمل معه بعباءة الكفر والشرك المنتحل ما ينتحل من كلمة الزور والافك ، يكون مكانك جوارنا ، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا ، ما أتى من نصره فوق ما أتيت ولا تولى من انتشاله ، والسعي في استقلاله ، إلا بعض ما توليت ، ولا أنحى على المسلمين من مضاره إلا بدون ما أنحيت ، ولا بغاهم خبالا بأكثر مما بغيت .

وما في تلك الجزيرة - عصمها الله - من صالح ولا طالح إلا ما يعرضك على الله تعالى ويرفع إليه فيك عقيرته بالشكوى ، وكل ما سفك من دم ، وانتك من محرم واستهلك من ذمم ، فإليك منسوب ، عليك منسوب ، وفي صحيفتك مكتوب وموعد الجزاء غدا وإنه لقريب فانظر ما أنجح أثرك ، وأربح متجرك ، وأصلح موردك ومصدرك ... » .

عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين

وهذه نسخة « الرسالة البرنامج » بعد البسملة الشريفة (٥٧) :
هذا ما عهد به عبد الله ووليه ، عبد الله القائم بأمر الله أمير
المؤمنين ، إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادراع جلابيب
الرشاد ، في الاصدار والايراد . وأتباع سنن من أبدى وأعاد ، فيما
يجمع خير العاجلة والمعاد : والتخصيص من حميد الأنحاء
والمذاهب ، بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب والتخلي من
الاسداد الكامل ، بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاهل
واتضح ما هو متشبه به من صحة الدين واليقين ، والمواظبة من
اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الظهير والمعين : في ضمن
ما طوى عليه ضلوعه . وأدام لهجه به وولوعه : من موالاته لأمر
المؤمنين يدين لله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف
بإستحكام سعيها : ومشايعة لدولته مساوي فيها بين ما أظهر
واسر ، وأمل في اجتناء ثمرها كل ما أبهج وسر ، فولاه الصلاة

بأعمال المغرب ، والمعاون ، والأحداث ، والخراج ، والضياح ، والجهدة
والصدقات ، والجوالي ، وسائر وجوه الجبايات ، والعرض ، والعطاء
والنفقة في الأولياء ، والمظالم ، وأسواق الرقيق ، والعيار في دور
الضرب ، والطرز ، والحسبة ، ببلاد كذا وكذا : سكونا إلى استقلاله
بأعباء ما استكفاه إياه ، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر
ذكره ويطيب رياه ، وثيقة بكونه للصنيعة أهلا ، وبأفياء الطاعة
الامامية مستظلا ، وتوفره على مايزيده بحضرة أمير المؤمنين حظوة
ترد باع الخطوب عنه قصيرا ، وتمد مقاصده من التوفيق بما يضحى
له في كل حالة نصيرا ، وعلمنا بما في اصطناعه من مصلحة تستنير

أهلته ، وتستنير من شبه الغي شواهدا وأدلتها ، والله تعالى يصل
مرامي أمير المؤمنين بالأصابة ويعينه على ما يقر كل امرئ في حقه
ويحله نصابه ، ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له ممضيا ، ولطايا
الاجتهاد في فعله منضيا وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه
يتوكل واليه يذنب .

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الاعلان والاسرار ، وباعتقاد
الواجب من الانعان بفضيلها والاقرار ، وأن يأوي منها إلى أمان
المعاقل وأحصنها ، ويلوي عنان الهدى فيها إلى أجمل المقاصد
وأحسنها ، ويجعلها عمدة يوم تعدم الأنصار ، وتشخص
الأبصار ، ليجتني من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل ، ويجتلي من
مطالعها ما يؤمنه من طوارق الوجل ، ويرد بها من رضا الله تعالى
أصفى المشارب ويجد فيها من ضوال المنى أنفس المواهب ، فإنها
أبقى الزاد ، وأدعى في كل أمر إلى وري الزناد ، وقد خص الله بها
المؤمنين من عباده ، وحض منها على ما هو أفضل عدة المرء
وعتاده ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا
تموتن إلا وأنتم مسلمون) (٥٨) .

وأمره أن يأتى بكتاب الله تعالى مستضيئا بمصباحه ، مستضيما
لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه ، ويقصد الاستبصار
بمواظبه وحكمه والاستدرار لصوب التوفيق في الرجوع إلى متقنه
ومحكمه ، ويجعله أميرا على هواه مطاعا وسميرا لا يرى أن يكشف
عنه قناعا ، دليلا إلى النجاة من كل ما يخاف إثماته وسببها إلى
الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لإثماته ، ويتحقق موقع
الحظ في إدامة درسه ، وصلة يومه في التأمل بأسمه ، فإنه يبدي
طريق الرشاد لكل مبدئ في العمل به معيد : (وإنه لكتاب عزيز لا
يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٥٩)
وأمره أن يحافظ على الصلوات قائما بشروطها
وحدودها ، وشائنا بسروق التوفيق في أداء فروعها
وحقوقها ، ومسارعا إليها في أوقاتها بذية عاذفة مناهل الكدر

والرنق ، عارفة بما في إخلاصها من نصره الهدى وطاعة الحق ، وموفرا عليها من ذهنه ، مالحظ كامن في طيه وضمينه ، وموفيا لها من الركوع والسجود ، مالحظ فيه صادق الدلائل والشهود ، متجنباً أن يلقيه عنها من هواجس الأفكار ووساوس القلب العون منها والابكار ، وما يقف فيه موقف المقصر الغالط ، وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغامط ، وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين وأوجبها وحث من إقامتها ، على المساجد ما يفضي إلى صلاح المقاصد واستقامتها ، فقال عز من قائل : (فاقیموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) (٦٠) .

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية ، بعد أن يتقدم في عمارتها ، وإعداد الكسوة لها ، بما يؤدي إلى كمال حلاها ، ويحظى من حسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها ، ويوعز بالاستكثار من الكبيرين فيها والقوام ، وترتيب المصاييح العائدة على شمل جمالها بالاتساق والانتظام ، فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى بها آياته ، وتعلو فيها أعلام الشرع وراياتـه . وأن يقيم الدعوة على منابرـها لأمير المؤمنين ، أدام الله تعالى به الامتاع ، وأحسن عن مساحته الدفاع ، ثم لنفسه جارياً في ذلك على ما ألف من مثله ، وسالكاً منه أقوم مسالك الاهتداء وسبله ، وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الايمان ، والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان في قوله سبحانه : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) (٦١) وقال في الحث على السعي إلى الجوامع التي يذكر فيها اسمه ، ويظهر عليها منار الاسلام ورسمه (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) (٦٢) .

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به ، وهدى منه ارشاد فعل وأصوبه ، ويقوم بذلك القيام الذي يحيط به بجميل

الذكر ، وجزيل الأجر ، ويشهد بزكاء المفسر وطيب النجر ، ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه في التوفيق بيومه ، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه ، متجنباً من إخلال بما نص عليه في هذا الباب ، أو إهمال فيه لما يليق بذوي الديانة وأولي الألباب ، ومتوخياً في المسارعة إليه ما يتطهر به من الأدناس ، ويتوفر به حسن الأحداث عنه بين الناس ، فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنها ، ولا دليل في الفوز أوفى منها ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها من آمنه ، وأبان عن كونها مما يجتنى كل مرغوب فيه ممن ثمرته ، ووصل له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله : لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره وحجولة ، في قوله سبحانه : (خذ من أموالهم صدقة تزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) (٦٣) .

وأمره أن يهذب من الدنس خلاله ، ويصل بأقواله في الخير أفعاله ، ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل ، ويتبع سنن المتقسي بالهدى المستظل ، ويقبض يده عن كل محرم توثق أشراكه وتوبق غوائله ، وتؤذن بسوء المنقلب شواهد ودلائله ، ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومطارحه ، وأميناً يصمد عن مسارب الآثم ومسارحه ، فإنها لا تزال أماراً بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشيد ، وتقم لها سوق من الوعظ فيها أقصى الغاية والأمر فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وأزعا ، وأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل ما يسخط الله تعالى نازعا ، وأن يتنزه عن النهي لما هوله مرتكب والأمر بما هوله مجتنب إذ كان ذلك بالهجنة خالياً وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً ، قال الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) (٦٤) .

وأمر أن يضيف على من قبله من أولياء أمير المؤمنين وجنوده ، أصناف جلايب الاحسان وبروده ، ويخصهم من جزيل

حباؤه بما يصلون منه إلى أبعد المدى ويملكون به نواصي الآمال ويدركون قواصي المنى ، ويميز من أدى واجبه في الطاعة وفرضه وأبدى صفحته في الغناء بين يديه بمزيد من الاشتغال يرهق بصيرة كل منهم في التوفر في ما وافقه ، ووصل بأنفسه في التقرب إليه سابقه ، ويدعو المقصر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبة من فازت في الحظوة قداحه ، وفاتت الوصف غرره في الزلفة وأوضاحه ، ليمرح به في الاغتذاء بلبان النعمة ، كما انتهج بها مسترشدا ، وطالبا ضوال الرأي الثاقب ومنشدا وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها لقاحا ، وفي حنادس الشكوك مصباحا ، حيث أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بها ، وبعثه منها على أسد الأفعال وأصوبها ، فقال تعالى : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) (٦٥) .

وأمره أن يعدل في الرعايا قله ، ويحلهم من الأمن هضابه وقلله ، ويمنحهم من الاشتغال ، ما يحمي به أمورهم من الاختلال ، ويحوي به طيب الذكر بحسب ما اكتسب من رضى الأنحاء والخلال ، ويضيف على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف ، ويلحق التلبد منهم بالطريف : ليكون الكل وادعين في كنف الصون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون . وأن ينظر في مظالمهم نظرا ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل في مطاويه ، وينصف معه بعضهم من بعض ، وينصب به بهم من اهتمامه أسنى قسم وحظ ، ملينا لهم في ذلك جانبهم ، ومبيننا ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ، ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال . ويدل من تلك الحال باستئناف ما يوطنهم كواهل الآمال ، جامعاً لهم بين الدليل والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (٦٦) .

وأمره بأن يكون بالمعروف أمرا ، وعن المنكر زاجرا ، والله تعالى

في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجرا . وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه ، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به الى الله تعالى يوم العرض عليه . ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها ، وإزالة آثارها ومحورها ، فإنها مواطن بالمخازي أهله ، ومن مشارب المعاصي ناهله ، وقد أسست على غير التقوى مبانيها ، وأخلت من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها ، وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف أمره وعن المنكر ناهية ، وضمنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية ، فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٦٧) .

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع الى الصرامة والشهامة ، سلوك محاج الرشاد والاستقامة ، ويجعل التعفف عن زميم المراتع شاهدا بتوفيق الله إياه ، وعائدا عليه بما تحمد مغيبته وعقباه ، ويأمر بحفظ السابلة ، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة ، وحماية القوافل واردة وصادرة ، واعتمادها بما تغدو به الى السلامة مفضية صائرة : لتحرس الدماء مما يبيحها

ويريقها ، والأموال مما يقصد فيه سبيل الاضاعة وطريقها وأن يخوفهم نتائج التقصير ، ويعرفهم مناهج التبصير ، وأن عليهم رقباء يلاحظون أمورهم ويوضحونها : ليكون ذلك داعيا الى التحوط والتحرز ، واعتماد الميل الى جانب الصحة والتحيز . ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله ، ويكف أيديهم عن الامتداد الى ماتذم سبيله فإن أخل أحدهم بما حد له ، أو مزج بالسوء عمله جزاه بحسب ذلك وموجبه . قال الله تعالى : (من يعمل سوءا يجز به) (٦٨) وأمره أن يتقدم الى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الأباقي والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق ، واستعلام أماكنهم التي فصلوا عنها ، ومواطنهم التي بعدوا منها ، فاذا وضحت أحوالهم وبانّت ، وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت ، أعادوهم الى مواليتهم أبوا أم شاءوا . وأن يقصدوا انشاد الضوال ، ويجتهدوا من

اظهار امرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال ، ويتجنبوا ان يمتطوا ظهورها بحال ، او يمدوا ايديهم الى منافعها في اسرار وإعلان ، حتى اذا حضر اربابها سلمت اليهم بالنعوت والأوصاف ، وأجري الأمر في ذلك على ما يضحى به علم العدل عالي المنار حالي الأعطاف ، فقد امر الله تعالى بأداء الأمانات الى أهلها وهدى من ذلك الى اوضح محاج الصحة وسبلها فقال : (إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتكم بين الناس ان تحكموا بالعدل) (٦٩) .

وامره ان يختار للنظر في المعاون والأجلاّب من يرجع الى دين يحميه من مهاوي الزلل والصلف ، عن مد اليد الى أسباب المطامع ، وكلف بما تعود على ما كلف إياه بصلاح مشرق المطالع : ومعرفة بما وكل اليه كافية وافية ، ولما يوجب الاستزادة له ما حية نافية : و يوعز اليهم بالتشمير في طلب الذعار ، من جميع الأماكن والأقطار ، وحسب مواد العار في بابهم والمضار ، وأن يمشوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم في الضلال ، وتجري أمورهم على قانون الشرع المذير في حنادس الظلام ، ممتنعين ان يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله ، ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سبله : وإذا وقع الظفر بجان قد كشف في الغي قناعه ، وأظهرت مساعيه إبساء من إجابة داعي الرشد وامتناعه ، أقيم حد الله تعالى فيه من غير تعد للواجب ، ولا تعر من ملابس السالكين للجدد اللاحب (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) (٧٠) .

وامره ان يوعز الى اصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ، ويجدوا في إجراء أمورهم على اوفى شروط الضبط والاقدام ، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائهم ، والمسارة الى حث مطايا التشمير في ذلك وانضائهم ، والتصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم اذا امتنعوا ، وسوقهم الى الواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا ، وان يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة ايديهم في استيفاء مال البقي واجتباؤه ، واعتماد ما

ينصر الحقوق في مطاريه واثنائه ، اذ كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع ، ما المعونة عليه واجبة ، وللتوفيق مقارنة مصاحبة ، قال الله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) (٧١) وأمره بعرض من تضمنه الحبوس من أهل الجرائم والجرائر ، وتأمل أحوالهم في الموارد والمصادر والرجوع الى متولي الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب في حبسه والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه ، فمن الفسي منهم للذنوب الفا ، وعن سنن الصواب منحرفا ، ترك بحاله ، وكف بإطالة اعتقاله عن مجاله في ميادين ضلاله ، وان وجد منهم من وجب عليه الحد ، أقيم فيه بحسب ما يقتضي الحق ، ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز إسقاط الحد عنه ودرأه ، اعتمد الحاقه في ذلك بمن اتصل اليه صوب الاحسان ودره ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله ، قدم الأمر في إطلاقه وتخليه سبيله ، وان غدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبيان ، وغوى به في محاربة الحق وخان قوبل بما أمر الله تعالى به في كتابه حيث يقول : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (٧٢) .

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء ، والنفقة في الأولياء من ذوي المعرفة والبصيرة ، والمشهورين في العفة بتساوي العلانية والسريرة ، ومن تحلى بالأمانة جيدة ، واعتضد بطريقه في الرشاد تليده وكان بما يسند اليه قيما ، وفي الكفاية ثاويا مخيما وإن يتقدم اليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول ، وان يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السابغ الأهداب والذبول ، فإذا وضح وجه الاطلاق ، وسلم مال الاستحقاق ، كانت التعرفة على قدر المنازل في التقديم والتأخير ، وبحسب الجرائد التي تسدل على الصغير من ذلك والكبير ، ومتى طرق أحدهم مأهو محتوم على خلقه ، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه ، وان يلزمهم

إحضار جيار الخيول وخيار الشكك ، ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق فيه وسلك. فإن أخل أحدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض ، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض ، حاسبه بذلك من الثابت باسمه ، والمطلق برسمه ، تنبيهه له على تلافى الفارط ، وتبصيرا في البعد عن مقام المخطي الغالط ، إذ كان في قوتهم وكمال عدتهم أرباب الأعداء والأضداد والأمداد ، قال الله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٧٣) .

وأمره باختيار عمال الخراج ، والضياع ، والأعشار، والجهيذة والصدقات ، والجوالي وأن يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه ، ومتقمصين من ملابس العفة ما تحمد العواقب في ضمنه ، ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار ، ويفريهم بالاستمرار على السنن المنجى لهم من مواقف التنصل والاعتذار . وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال ، على أجمل الوجوه والأحوال ، سالكين في ذلك جددا وسطا ، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطا ، و(أن يتقدم) الى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها ، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتضي فيه أرشد المذاهب وأسدها ، متحرزين من أمر ينسبون فيه الى العجز والخيانة ، فكل من الحاليين مجز في وضوح أدلة الفساد ومخزن والى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض وحفظ النقد ومن التدليس والتلبيس ، أداء للأمانة في ذلك ، واهتداء فيه الى اقوم المسالك ، والى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة والجزي في ذلك على السنة الكاسية للمحمدة الوافية الكاملة ، متجنبين من أخذ فحل الأبل وأكولة الراعي ، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي ، فإذا استوفيت على المحدود من حقها ، أخرجت في المنصوص عليه من وجهها وسبلها ، والى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة ، على قدرات ذات أيديهم في الضيق

والسعة ، وبحسب العادة المألوفة المتبعة ، ممتنعين من مطالبة
الانسوان ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ومن علت سننه على
الاكتساب وتبتل من الرهبان ، ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان ،
وفاء بالعهد المسؤول ، وتلقيا لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول :
واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً (٧٤) .

وأمره أن يرد أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز
والحسبة الى من عضد بالظلف الورع ، وانتظم له شمل الهدى
 واجتمع : فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل ، وبصيرة يتفيا بها من
عوارض الشبه ويستظل ، وأن يكون النظر في ذلك مضاهيا للحكم
ملائما ، ولن يقوم به الا من لا يرى عاذلا له في فعله لانما . وأن
يتقدم الى من يلي المظالم بتسهيل الاذن للخصوم في الدخول
عليه ، وتمكين كل منهم من استيفاء الحجة بين يديه ، والتوصل
الى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق اليه ، وأن يقصد فيما وقع
الخلف معهم فيه ، والكشف الذي يقوم به ويستوفيه ، فان وضع له
الحق أنفذه وقطع به ، والا ردهم الى مجالس القضاء لامضاء ذلك
على مقتضى الشرع وموجبه والى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ
فيما يبتاع ويبيع ، وأن يستعمل في ذلك الاقتفاء للسنن الجميل
والاتباع : ليؤمن اختلاط الحر بالعبد ، وتحرس الأنساب من القسح
والفروج من الغضب ، في ضمن حفظ الأموال ، والمنع من مزج
الحرام بالحلال ، والى ولاية العيار بتصفية عين الدرهم والدينار
من الغش والاذغال ، وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها
بحال من الأحوال متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد
فيه عند الاعتبار ، وما نعين التجار المخصوصين بالايثار من كل قول
مخالف للايثار في الصحة والمراد ، ومعتدين اجراء الأمر فيما يطبع
على القانون بمدينة السلام ، من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك
ومتسق النظام ، وأن يثبت ذكر أمير المؤمنين ، وولى عهده في المسلمين
على ما يضرب من الصنفين معا ، والمسارعة في ذلك الى الأفضل
مبادر اليه المرء وسعى ، والى المستخدمين في الطرز بملاحظة احوال

المناسج والأشراف عليها ، وأخذ الصناعات بالتجويد على العادة التي يجب الانتباه اليها ، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما ينسج من الكسما والفروشن والأعلام والبندود ، جريا في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود والى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق ، والانتباه في ذلك الى ما ينتهي به من شمل الصلاح الى الانتظام والاتساق ، وان يتقدم اليهم بما يوجب من تعيير ما يختص بهم من المكاييل والموازين ، وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهين ، وان يقصد تبصيرهم مواضع الحظ في الاستقالة ، ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لاتفيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقالة ، فان عرف من أحد منهم اقداما على ادغال فيما يزن أو يكيل ، قوبل من التأديب بما هو الطريق الى ارتداعه والسبيل ، قال الله تعالى : (ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (٧٥) .

وامره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها ، وحلت جيدة عقودها ، وزفت منه الى أوفى أكفائها ، وحفت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها ، وان يقابلها بالاخلاص في الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسر ، وسعي في الخدمة يوفي على كل مجاز ومبرر ، ويبدأ امام ما يتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولى عهده على نفسه وولده ، وكافة الأجناد والرعايا في بلده ، عن ذية صفت من الكدر والقذى ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى ، ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضى ، والوقوف عند الأوامر الامامية في كل مايؤدي الى الوفاق ويفضي ، وان يحمل الى حضرة أمير المؤمنين من الفبيء والغنائم ما أوجبته الله تعالى وفرضه ، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك : ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار اليها ، ووجوه المنصوص عليها ، قال الله تعالى : (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (٧٦) .

ثم إن أمير المؤمنين أثر أن يضاعف له من الاحسان ، ما يقتضيه مقال له من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بما يرفل من حلاه في حلل الجمال ، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال : وأبواه بما أولاه محلا تقصر عن الوصول إليه الأقدام ، وتعجز عن حل عراه الأيام . ولقبه بكذا ، واذن له في تكذيبه عن حضرته ، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر امنيته : إنافة به على من هو في مساجلته من الأقران طالع ، وإضافة للنعمة في ذاك إلى ما اقتترن بها فيما هو لشميل الفخر عنده جامع ، وأنفذ لواء يلاوي به الى الطاعة ابي الاعناق ، ويحوي به من العز ما أنواره وافية الاشراق .

فتلق يافلان هذه الصنيعة الغراء ، والمنحة التي اكسبت زنادك الايراء : بالاستبشار التام ، والاعتراف فيها بسابغ الطول والانعام : وأشع ذكر ذلك عند كل أحد ، وأنته في الابانة عنه إلى ابعد امد : واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متسيميا ، ومن عداه متلقبا متكذبا : وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد ، وتستحق به إلحاق الطريف من الاحسان بالتلبد ، والله تعالى يقول : (لئن شكرتم لأزيدنكم) (٧٧) .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والحجة لك وعليك : قد أوضح لك (فيه) الصواب ، وأذل به الجوامح الصعاب : وحباك منه بموهبة كفيلة بخيري البدء والمعاد ، وفيه فيها المنى بسابق الضمان والميعاد : وضمنه من مواعظه ما هدى به الى كل ما الجني ثمره ، وغدا محظيا بما تروق اوضاحه في المجد وغرره : ولم يالك فيه تجملا يكسبك الفخر النامي ، ويجعل ذكرك زينة المحفل والنادي : وتقديما يبنى عما خصصت به من المنح المشرقة اللالي ، واكراما يبقى صيته على تقضي الايام والليالي ، وتبصيرا يقي من فلتات القول والعمل ويرتقي المستضيء بأنواره الى نرى الامن من دواعي العثار والزلل ، فاصغ الى ما حواه ، اصغاء الفائز بأوفي الحظ ، وتدبر فحواه ، الناطق بفضل الحث على الهدى والحض ، وكن لأوامر أمير المؤمنين فيه محتذيا ، ومن تجاوز محدودته في مطاويه

محتميا ، وبمواظبه الصادقة معتبرا وفي العمل بما قسارن الحق
مستبصرا ، تفز بالغنم الاكبر وبالسلامة في المورد والمصدر ، واياك
واعتماد ما تدم فيه مكاسبك ، فان لك بين يدي الله تعالى موقفا
يناقشك فيه ويحاسبك .

واعلم ان امير المؤمنين قد قللك جسيما وخولك جزيلا عظيما ،
فلا تنسى نصيبك من الله تعالى غدا ، ولا تجعل لسلطان الهوى
المضلل عليك يدا ، وان خفي عليك الصواب في بعض مسا انت
بصدده ، او اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد
وجده : فطالع حضرة امير المؤمنين به ، واستنجد الله في ذلك بأسد
راي و اصوبه ، يبدلك من الشك يقينا ، ويبدلك ما يغدو لكل خير
ضمينا : ان شاء الله تعالى .

نص المذكرة التي رفعها ابن العربي الى الخليفة
المستظهر بالله العباسي (٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠١٤ -
١١١٨ م) يلتمس تقليدا خلافا لـ يوسف بن تاشفين ،
والرد الخلافي مع رد الوزير ابن جهير (٧٨)

الخادم بالأدعية ، تقبلها الله ، ابن العربي الأندلسي .
بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلني :

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام انوار المواقف المقدسة النبوية
الامامية المستظهرية ، وضاعف مددها ولاأرى المسلمين أمددها
بغرائب مجد تبدعها حوادث أيام تذلل صعباتها ، ومستأنف سعاد
تحرص جنابها ، ولازالت الأيام التي هي لأيامها غرر ، وفي إكليل
الخلافة درر للدهر تمانم ، وفي المحل غنائم ، والحمد لله الذي جعل
للمواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية شرائط
السواد ، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب ، كابرا عن كابر
الى أعلى خندق فهي أعلاها عمادا ، وأوراها في مواقف الفضل
زنادا ، أورمة الرسالة ، وجرثومة الخلافة ، اليها ينزع
هاشم ، وعنها أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب
المنزل ، وعهد بتخليدها مخبرا عن الوحي في آله وعقبه النبي
المرسل قد أمنت بعصمة الله من الغير ، وتحققت أواخرها على سنن
أولها في هداية البشر بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على مامن
به من توفيقنا للتمسك بعراها الوثيقة ، والاهتداء بهداها الى
واضح الطريقة ، فهم في الدين امتنا ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا
الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي الى مرضياته ومرضياتهم ، انه
الموفق الهادي لأرب غيره .

وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، الهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع ان بيعة الامام العادل من اركان الديانة ، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة هاجر الى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغرب ، معتقدا ان عمله فضل القرب والرغائب ، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر ، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ، ولم يثنه بحر يزخر ولا فقر يذعر ، يحتسب في ذلك أثره ، ويرجو أن يقل الله يوم الجزاء أثره ، الى أن انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ، لازالت محروسة من غير عاصمة لمن التجأ اليه من مهتضي الأنام .

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجـرتـه ، ويتقرب بخلوص علانيته ، ويسأل تشریف رقاـعـه ، بملاحظتها ، والنظر من انقطاعه رغبة في الحظ الجسيم ، الى ان وصل الى المجلس السامي ، وخدم البساط العالي ، زاده الله تشريفا وتعظيما ، وانهى اغراض وفادته ومقاصد ارادته ، فنفذت الاوامر الشريفة ادام الله سموها وتشریفها واضفى على الجميع ستر سلطانها وكنف احسانها بقبول وسائله والحاح مطالبه ، وافاضة الاحسان عليه .

ولما بسط له في الأمل ، كان هو وابنه في محل الكرامة والجل ، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القانم بدعوة مولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين ، الأمير ابو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ، المتجهز الى المسلمين باستئصال فئة العناد ، ولة الفساد ، قام بدعوة الامامة العباسية والناس اشياح وقد غلب عليهم قوم دعوا الى انفسهم ليسوا من الرهط الكريم ، ولا من شعبة الطاهر الصميم ، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الامامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها منذ اربعين عاما الى ان صار جميع من في جهة المغرب على سبيلها وامتدادها له

طاعة ، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة ، فيخطب الآن للخلافة ، بسط الله أنوارها ، وأعلى منارها على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر ، فإن طاعته ، ضاعفها الله من أول بلاد الله الأفرنج ، استأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد الله غانة وهي بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر ، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الأفرنج وغيرهم قد فلتت غربتهم وقللت حزبهم أوالفت جموعه حاربهم ، وهزمهم مسيرهم على مجاهدتهم ، ومضايقتهم في كل أفق وعلى كل الطرق وقد استرجع كثيرا من المعقل التي استباحها الروم من أمور المستنلمين وسببت أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت تغور المسلمين بها مستضامة ، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها ، واحترمت لحرمة المسلمين والإسلام ، وعز سلطانه ، وهذا دأبه وهجيره الذي لأعمل له سواه .

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس ، وكان أمله مواصلة حماية دين المسلمين ، وإقباله على مجاهدة المشركين ، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لاتفاقه ، ولم يزل محافظا على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة ، الاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله . ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته ، ويؤيد ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشریفها وتعظيمها ، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضيقه عليهم ، وحصاره لهم ، وقد تكرر اعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لاسيما هذا الأمير ، وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وابتدا جهاده بالمحاربة على اظهار دعوته ، وجمع المسلمين على طاعته ، والارتباط بحماية تغور المسلمين ، وهو ، ممن يقسم بالسوية ، ويعدل في الرعية والله ما في طاعته مع سعتها دان منه ، ولاناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم

مكس ، وسبل المسلمين أمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سليمة
من الشرب ، مطرزة باسم الخلافة ، ضاعف الله تعظيمها
وجلالها .

هذه حقيقة حالة ، والله يعلم أني ما أسهبت ولالغوت ، بل لعلني
أغفلت أو قصرت ، ولولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات
الله عليه وعلى أبائه الطاهرين ، الطول العميم في الأمر ، تشريفه
بقبول تأمليه ، وفي الإشارة إليه بما يقوي أمره ، ويشد
أزره ، ويؤيد سلطانه ، ويعلي شأنه ، مجرياً له على السمن الكريم
الطول العميم . فوالله ما في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من
يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه ، ولا يلبس من النصيحة
طرقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة المبنية على الطرق النبوية ما
يصل يده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطوله .

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولأبنيه المسترق القن بعد
الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن ، فقد بعدا عنه سبعة أعوام
واقاما في الجنب المخصب الظليل والكنف الرحب المأهول مدة
عامين ، يستدران النعم الحافلة جملاً بعد جمل ، ويكرعان في
المشارب الجمّة العذبة عللاً بعد نهل ، فله الهام الشريعة التي
مسحت على شكايتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام ، فأزاحت
عنهما جميع الشكايات والألام وهذه نبذة من الصنائع المشكورة
وفلذة من جزيل الأجر عبقة بأرج النشر ، وإن الشكر ليقل في جانبها
ويقصر عن أنزر لازمها فإنها ضمنت حياة نفسين وأشرت دفيني
رسمين ، فكانها قد أجبت ضعف الوري ونشرت أمثل المستودعين
في الثرى فمن أحيى النفس الواحدة (فكأنما أحيى الناس جميعاً) (٧٩) وعند
الله تعالى كفاء ما أولاه مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين
صلوات الله عليه وعلى أبائه الأكرمين من جميل الفعل وجزيل ما
أتاه في سبيل الفضل ، والخادم العامر القلب هو وعقبه بالمحبة
الناصفة والطاعة الخالصة صادر في جملة الحامدين ويرجو أن
لا يكون مقصراً عن درجة السابقين ويضرع في اسمه ووسم المملوك

ابنه عين التشريف السامي ، لازال القمم (٨٠) الكرام تيجانا على
قسماتهم العز والكرامة عنوانا ليعيد حيث جلا الى الذبـاهة
ذكرهما ، والي البر والكرامة قدرهما ، ويظهر مزية وفادتهما
ورعاية هجرتهم ويثبت لهما من المفاخر ما يحبـذ عليه البر
الموازر ، ويتضاءل له الحسود المكاشر ، ويبقى للشريعة على مر
الأيام ، ويضرع ان يتضمن التشريف العزيز بثبوت اسمه في
الديوان الشريف ضاعف الله علاه ونسأه بما خص به والمملوك أيسر
من الكرامات والنعمة ، وانه متى وفد هو او ابنه المملوك كان للوافد
منهما تجدا على مر الأيام مؤكدا مخلدا حسب العادة الكريمة له
ولسلفه الأكرمين رضي الله عنهم أنهم متى أنعموا بنعمة ، او خصوا
بكرامة ومنة ثبتت مؤبدة ، وجددت مخلدة ، وليمتش بالأمر العالي
والتشريف السامي فيهما جميع من يردان عليه في كل الآفاق من
جميع الأطباق وامتثالنا يعد لهما من الاكرام واحتمالا على ماتأصل
بجذبتيهما من التنويه والانعام ، وأن ذلك يرثه الخلف منا عن السلف
وتكون لنا مزية التشرف بالوصول إلى مهاد العز المأمول ، لأعدم
الله مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه
وعلى آبائه المنتجبين مبرة تتضاعف بها المعالي ، وسعادة تحرز
أسنى الأمانى ، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليالي ، فذلك بيده
وغير معجزه ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من طوله مستفاد ،
لاشريك له ، ولاتوفيق إلا به والحمد لله حق حمده ، وصلواته على
سيد المرسلين رسوله وعبدده وعلى اله الطيبين ، وعترته المنتجبين
الراشدين ، أباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم
الدين ، (وحسبي الله ونعم الوكيل) (٨١) .

رد الخلافة

فراجعته عنه على ظهره بتوقيع عزيز أعدد أسطره سبعة وثلاثون سطرا بخط فسيح كتابي مليح بين الأسطر الأول منه والثاني منه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد ممسك المستظهر بالله:

عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الامامة المطهرة المكرمة ، زاد الله في جلالها وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي اضحى بحبل الاخلاص معتصما وشرطه ملتزما ، وإلى أداء فروضه مسابقا . وكل فعله فيما هو بصدد للتوفيق مساوقا ، لاربية في اعتقاده ، ولاشك في تقلده من الولاء ، طويل نجاده ، إذ كان من غدا بالدين تمسكه ، وفي الزيادة عنه مسلكه ، حقيقيا بأن يستتب صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبي في غده ، وأفضل ما نحاه ، وعليه من الاجتهاد دار رحاه ، جهاد من يليه من الكفار وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار ، اتباعا لقوله تعالى : (الذين يلونكم من الكفار) (٨٢) فهذا هو الواجب اعتماده ، الذي يقوم به الشرع عماده ، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الامامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى ، واستقراء قوله تعالى والعمل به ، والبدار إلى التشبث بسببه (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (٨٣) .

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى ، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٨٤) وأن يختص رافعها وولده بالارعاء الذي يصفو عليهما برده ، ويصفو لهما ورده ، ليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النثر ،

فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء
الله .
وكتب في رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

من الوزير الأجل السيد الأعدل ، عميد الدولة بهذه الملة ، شرف
الامة ، ولي النعمة ، خلاصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن
جهير ، إلى أمير المسلمين ، ومناصر الدين ، القائم بدعوة أمير
المؤمنين ، أزكى الرغائب بأرض المغرب ، أبي يعقوب يوسف بن
تاشفين ، أطال الله بقاءه ، ومدته ، وضاعف بسطته ، وكبت
اعداءه ، وحسدته ، أمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي من حضرة مولانا أمير المؤمنين ، أبي العباس ، المستظهر
بالله ، ادام الله أيامها ، وأوضح أعلامها ، وأعز أنصارها ، وأعلى
منارها ، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته ، منتظمة بيمين تدبيره
وسياسته ، تجري على أفضل ما عودها الله تعالى من نفاذ الأمر ،
ومضائه ، وانبساط السلطان واعتلائه ، ونحن مقابلون نعمته
بالشكر ، والاعتراف ، مستديمون مددها بالعدل ، والانصاف ،
متحققون إجابة رغبتنا في توفيق أولياء مولانا المخلصين ، وأهل
الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ، ويوزع شكر نعمته ،
السابغة عليهم بولايته ، فلقد استخلف عليهم عنه أكرم مستخلف
وعطف عليهم بولايته أفضل مستعطف ، فأصبح وقد أطاعته الأمة
العاصية وأمكنته الغايات فذل الصعب ورأب الشعب ، وقرب
النازح ، وأرضى الجامح ، وقوم المائد وأصلح الفاسد ، وأعاد معالم
الحق عامرة بعد دثورها ، ومشاربه صافية بعد ركودها وبضائع
الخير نافقة بعد كسادها وأحوال الأمة صالحة بعد فسادها ، مبتغيا
فيما أتاه الله مصلحة أخراه ، غير ناس نصيبه من دنياه ، طامحا
بطرفه إلى أعلى الدرجات ، في تربيته ، أخذا بأفضل الاقبال في
حالیه ، فلباس التقوى شعاره ، والعمل الصالح دثاره ، نهارة
مقسوم بين تلاوة القرآن وإقامة إحسان ، وغوث مكروب ، وفك
عار محروب ، وسد ثغر ، وصلاح أمر ، وتدبير شرق وغرب ، وبر
وبحر ، فأعين الرعية قائمة بشهادته ، وأنفس البرية مستريحة

باجتهاده ، ولا جرم أن الله يصلح باله ويحسن ماله تصديقا لما قال جل جلاله : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) (٨٥) وحقيق لمن جمعت فيه هذه الأخلاق الطاهرة ونطق القرآن بأمانته الباهرة فإن الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) (٨٦) فالحمد لله الذي أنجز لأمر المؤمنين ما وعده وحقق له التمكن وأيده وأمن السبل بخلافته ، وأقام الحق بإمامته ، وسخر له من أوليائه من تنفذ بطاعته وأمره ، ويؤازره على فعل الخيرات ويضافره وينشر رحمته ودعوته ، ويظهر سعده وكلمته ، وينتهي إلى ما فرض سبحانه عليه من طاعة ولادة الأمر المقتربة بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (٨٧) . استمناحا لنعم الله التي لاتحد ، واستمدادا من عوارفه التي لاتنفد ، ولما كان الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تمكينه ورفعته وسموه وسلطته ، وكبت عدوه وحسدته ممن صبح عنده خلوص عقد ولايته ولزوم طاعته لأمر المؤمنين والعزوف عن أعدائه وإظهار العدل في الرعية ، فخرا بآرائه وتمسكا بما أمر الله تعالى به من مجاهدة أعدائه وتحريض عساكر الاسلام على مجاهدة عدوهم وبذل نفوسهم ومشاركته لهم في نعيمهم وبؤسهم ، وما فتح الله لأمر المؤمنين على يده من ثغور الاسلام بجزيرة الأندلس وما جاورها مما كان العدو قد تغلب عليه واستباحه ، واستأصل شافته واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها وتباين مقاصدهم وعدولهم عن الواجب في مصادرهم ومواردهم ، أنهيت إلى المواقف المقدسة العلية الشريفة النبوية المستظهيرية زاد الله في جلالها وامتداد ظلالها هذه الجملة فخرج من الشكر للأمير أطال الله بقاءه وأعلاه وأحمد طرائقه وحسن سيرته وجميل مقاصده والدعاء بمثابرتة على جهاد عدو المسلمين وتصديق ما جاء به عن سيد المرسلين « لا يزال أهل الغرب

على الحق ظاهرين « وذلك لنصوع عقائدهم في خلوص اليقين
واقترار مذهبهم على صحة الدين ، على يد الشيخ الفقيه أبي محمد
عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابنه الفقيه أبي بكر محمد
أدام الله عزتهما ما يزدهي به الغافر وتتأرجح به سطور الدفاتر
وتنتعش به جدود العواثر ، ولقد بالغ هذا الفقيه وولده في الثناء على
الأمير وأطنبا في وصف ما يعتمد منه لزوم قوانين العدل
والانصاف ،

ومجانبة طرق العسف والاعتساف ، ولما كان رأينا في هذه الطائفة
التي تأخذ في الحدود الشرعية بقولها وتستوصي في السياسة
السلطانية برأيها ، جميلا ، وتميزنا بالبر لمن انسنا منه الطريقة
القوية وجنوحنا إلى من عرفناه بصدق العزيمة ، شكرنا لأمير
المؤمنين أطل الله بقاءه ، اقتداء بهذه الطائفة في أرائه ورجوعا إلى
قولهم في الحالة ، اخذا براء المواقف المقدسة زادهما الله مضاء
وامتثالا لقصدها ، وكذلك هذا الفقيه وولده المقدم ذكرهما مما
شاهدنا من خلالهما وحسن هديهما بما يقتضى تقريبهما وأدناهما ،
فرايناهما واعتمدنا برهما وإكرامهما وأصدرنا هذه الجملة القضائية
باحلال الأمير محله المنيف على استحقاقه الاجلال والتشريف نظرا
لمقالهما وإحسانا ، وتعطفا عليهما وامتنانا ، فليعتمد الأمير أطل
الله بقاءه مصالح أمورهما ، وليتوخ ما تعود باستقامة شؤونهما
وليولهما حسن موقع النيابة عنه وليبدلهما صفحة الاقبال بمنه ،
وليلزم تقوى الله فيما يجري من الأمور على يديه وليراقبه تعالى
فيما فرض من أحوال الرعية إليه ، وليعلم أن المصير والمرجع إليه
ويطالع بأخباره وما احتاج إلى علم من بجهته إن شاء الله ، وكتب
في عشر من رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة والحمد لله وحده
وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الخطاب الذي وجهه ابن عربي الى حجة الاسلام
الامام الغزالي ورد الغزالي عليه ، مع رسالة بعث بها
الغزالي الى يوسف بن تاشفين (٨٨)

قال ابن العربي .
وكان من أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت
بذكره الرفاق ، لطول باعه في العلم ورحب ذراعه ، الافام أبو حامد
ابن محمد الطوسي الغزالي ، فاستدعينا منه فتيا وكتبنا ، اختصرت
لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن انبه على معناها وهو
في علم الامام ماذكر في وصف خلال امير المسلمين وناصر الدين أبي
يعقوب يوسف بن تاشفين امير المغربين الأندلس والعدوة ، وما
أوضحت لديه من إعزاز الدين ، والذب عن المسلمين وهو حميري
النسب وقبيله المرابطون ، قد وقفوا أنفسهم على الجهاد . وقد كانت
جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربع مائة ،
عدة ثوار تسوروا على البلاد وضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا
بالقباة الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ،
وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على
صاحبه ، واستنابوا الفساق من الأرقاء ، والصنائع الطلقاء في
محاربة بعضهم بعضا واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد
منهم أنه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما
انكشف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج إلى
بلاد المسلمين . طلبوا المعقل وأخذوا بالحرب كثيرا منها من غير
مؤونة ولا مشقة ، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين
واستصرخوهم فلباهم امير المسلمين ووصل إلى البحر ، فاستوقف
بعض الرؤساء وفاء للمشركين ، وحذقا على المسلمين في
استدعائهم له ، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله النصر ،

والجـم الكفار السيف ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح ، فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقاءه مع تتناقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء عن البلاد والمعقل وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصاري أو صاروا معهم إلـبا ، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا لاجهاد إلا مع إمام من قريش ، ولست به ، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك ، فقال أنا خادم الامام العباسي ، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال أوليس الخطبة في جميع بلادك له ؟ فقالوا ذلك احتيال ، ومردوا على النفاق . فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج في قتالهم ؟ وهل على الامام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر ، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك . ومتى وصف نفسه قال : لست مستبدا ، وإنما أنا خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشهر من أن يؤكد بالتحلية ، وأظهر من أن يجدد بالتزكية .

فلاشيخ الامام الأجل الزاهد الأوحـد أبي حامـد أتم الأجر ، وأعم الشكر في الانعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله فأجاب الامام الغزالي رضوان الله عليه :

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى مع شهادته عن غيره ، وعن طبقة من ثقافة المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ، ما أوجب الدعاء لأمثاله . أصاب الحق في إظهار الشعار الامامي المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلـاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من اقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للامام الحق . وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الامام أو تأخر عنهم ذلك لعائق . وإذا نادى الملك المستولي

بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كل الرعايا والرؤساء الازعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الامام ، ومخالفته مخالفة الامام وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغي ، وقد قال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) (٨٩) والفينة إلى أمر الله ، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الامام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق ، فإنه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم ، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله ، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية .

ومهما تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وإذا قاتلوا ، لم يجز أن يتتبع مدبرهم ، ولأن يذفف على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا ، وجب الكف عنهم أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين . وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، حكم الباغي على نائب الامام .

فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض ، في أن يخطب عليه ، وينادي بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والنصفة ، ولا ينبغي أن يظن بالامام توقف في الرضا بذلك والاذن فيه .

وإن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن إنشائها

وإيصالها المعاذير ، وأما الآن والرضى بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورا لا يشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفيء إلا بأن يصل إليهم صريح الآن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك . فإن الامام الحق عاقله أهل الاسلام ، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة تائره إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن . قال عمر رضي الله عنه « لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم تطل بالهناء ، فأنا المسؤول عنها يوم القيامة » . وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقد أحرق به الناس : « قد كثر الناس » . فقال عمر بن عبد العزيز « خصمائك يا أمير المؤمنين » ، يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته . فلا رخصة في التوقف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة . فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع منه مانع المواقف القدسية الامامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها . ونحن نعلم أنا لانستجيز التوقف على إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك ، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربة الحق ، لم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمتد إليها أعين أعداء الدولة فضلا عن أيديهم.

وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمر قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته ، وتناطقت الألسن بعدله ، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه . ويسد في هذا الحال مسده ، فهذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور ، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها ، القائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال ، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض وحكم من بغى عليه ، والله أعلم .

رسالة الغزالي الى يوسف بن تاشفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل خير من عبادة سبعين سنة »... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله»، وعد الامام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الاسلام وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستظلين بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل في السلطنة ، وقد اتاه الله السلطان وزينه بالعدل والاحسان ولقد استطارت في الأفاق محامد سيره ومحاسن أخلاقه على الاجمال حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي الاشبيلي حرس الله توفيقه فأورد من شرح ذلك وتفصيله ما عطر به أرجاء العراق ، فانه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرة الخلافة لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الاندلس من الذل والصغار والحرب والاستصغار بسبب استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى الاسلام بالسبي والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الاسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وأفضى الأمر بهم إلى الاستنجد بالانصارى حرصا على الانتقام إلى أن اوطنوهم بيضة الاسلام، وكشفوا إليهم الأسرار حتى أشرفوا على التهانم والأغوار فرتبوا عليهم الجزاء وجزؤهم شر الجزاء ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال أخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل ،

واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ظهير أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهم ، وأسرع نصرتهم وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استئصال شافة المشركين والافراج عن حوزة المسلمين جزاءه الله تعالى أفضل جزاء وأمد به بالنصر والتمكين ، وذكر متابعته العدو إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة من الخارجين لامداد ملوكها على عاداتهم أو من سراياهم في أي جهة يمموا من جهات المسلمين وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود وعقد الألوية والبندود ، وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين وغلبته لحزب المشركين وسألهم رفع المظالم عن المسلمين التي كانت مرتبة عليهم لجزية المشركين وإمدادهم بها لهم مداراة لبقاء إمرتهم عادوا إلى ممالة المشركين وألقوا إليهم القول في جهة الأمير وجراؤهم على لقائه . وصح ذلك عنده وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسري الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها ورفع المظالم وأظهر فيها من الدين المعالم وبدد المفسدين واستبدل بهم الصالحين ورتب الجهاد وقطع مواد الفساد ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ما شاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم وتوقيره لهم ، وتزيينه بإسمهم واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه وحمله عماله على السمع والطاعة ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمر المؤمنين أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكبين عن البيعة ، والنداء بشعار الخليفة إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ومحاسن أحواله ومكارم أخلاقه ، وكان منصبه في غزارة العلم ورصانة العقل ومتانة الدين تقتضي التصديق له في روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ، وما أفاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة أعز الله أنصارها ،

فوقع ذلك موقع الاحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس عن مشايعة الأمير ناصر الدين ومتابعته ، وأنهم حالفوا النصارى واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم والتبرؤ منهم ليتوب عليهم أو ليقطع شافتهم •

وكتب هذا الشيخ سؤالاً على سبيل الاستفتاء ، وافتيت فيه بما اقتضاه الحق وأوجبه الدين وأعجلني المسير الى سفر الحجاز وتركته مشمرا عن ساق الجد في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين في حمايته لثغور المسلمين ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب اليه ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وان من خالف امره فقد خالف امر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين ولم يبالغ احد في بث مناقب قوم مبالغه الشيخ الفقيه ابي محمد في بث مناقب الأمير واشياعه المرابطين ، ولقد شاع دعاؤه في المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه الى ان كلف جميع من رجا بركة دعائهم الدعاء في تلك المشاهد الكريمة ، والمناسك العظيمة وأعلن بالدعاء لأمر بلده الأمير الاجل ابي محمد سير بن ابي بكر وفقه الله تعالى وذكر من فضله وحسن سيرته وتلففه بالمسلمين ورفع جميع النوائب عنهم ما جهر به الى النفوس. ولقد دعي الشيخ الفقيه الى المقام ببغداد على البر والكرامة والاتصال باسباب تشرف بها من حضرة الخلافة فأبى الا الرجوع الى ذلك الثغر يلزمه للجهاد مع الامراء وفقهم الله تعالى. ولو اقام لفاز بالخط الاوفى من التوقير والاكرام ، وما اجدر مثله بأن يوفي حظه من الاحترام وولده الشيخ الامام ابو بكر قد احرز من العلم في وقت ترده علي ما لم يحرز مع طول الامد ، وذلك لما خص به من نقاية الذهن ، ونكاء الحس واتقاد القريحة ، وما يخرج من العراق الا وهو مستقل بنفسه حائز منصب السبق بين اقرانه ومثل هذا الوالد والولد قمن بالاكرام في الوطن ، وقد تميز بمزايا التوفيق من الاعيان في الغربية ، والله يحفظ مبن حفظهما ويرعى من رعاهما ، فرعاية امثالهما من اداب الدين المعينة على أمير المسلمين

وقد قال المحسنون : فليستوص من ظفر بهم منهم خيرا ، وكم دخل قبلهما العراق ويدخل بعدهما من تلك البلاد النائية وما يذكر محاسنهما ولا يدفع مساويهما . وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك الى ما لا يمكن ان يلحق ثناؤه فضلا عن ان يزاو عليه والله تعالى يعمر بهما اوطانهما ويصلح شأنهما ويوفق الامير ناصر المسلمين ليتوسل الى الله تعالى في القيامة باكرام اهل العلم فهي اعظم وسيلة عند رب العالمين. ونسأل الله ان يخلد ملك الامير ويؤيده تخليدا لا ينقطع أبد الدهر، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتستمطر لملك العباد التأييد والبقاء، وليس كذلك فان ملك الدنيا اذا تزين بالعدل فهو شبكة الاخرة ، فالسلطان العادل اذا انتقل من الدنيا انتقل من سرير الى سرير اعظم منه ومن ملك الى ملك اجل وارفع منه (واذا رايت ملكا ثم رايت نعيما وملكاً كبيراً) (٩٠) مهما وفي العدل في الرعية والنصفة في القضية فقد خلد ملكه وايد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ومنه. والحمد لله رب العالمين وصلوات على سيدنا محمد خاتم النبيين واله اجمعين.

رسالة من الامام الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك

الى يوسف بن تاشفين (٩١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي الى الامير ابي يعقوب بن تاشفين
سلام عليك

اما بعد ، فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو ، واشكره لديك
كثيرا كما هو اهل ، واخصك من مواعظه وحكمه ما ان اخذت به
نجوت من عظيم ما ركبت ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا
بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال الله سبحانه : « ياداوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم
بين الناس بالحق » ، (٩٢) ، الى قوله « يوم الحساب » ، قال سلمان
الفارسي رضي الله عنه : اتعلمون من الخليفة؟ الخليفة هو الذي يقضي
بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على اهله .

وقال سبحانه وتعالى : « الذين ان مكناهم في الارض اقاموا
الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » (٩٣) الخ ، فمن
مكنه الله في الارض ، واتاه الله سلطانا ولم يفعل ما امر الله تعالى
به في هذه الآية ، خفنا ان لا يكون من اهلها ، لان الله تعالى وصف
هذه الامة ، اذا فتح الله تعالى عليهم الارض واهلك عدوهم ، باقامة
الصلاة وايتاء الزكاة وامر بالمعروف ونهي عن المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من احد يلي عملا او
قال سلطانا- الا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظم عن

حقه ، فإن كان محسنا نجا ، وإن كان مسيئا هوى سبعين خريفا ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ومن يرغب في العمل بعد هذا ؟ قال له أبو ذر رضي الله عنه : من سلب الله أنفه وأصعر خده .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشل لهم إلا حرم الله تعالى عليه الجنة . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس عمه لما قال له أمرني على إمارة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عباس ياعم رسول الله ، نفس تحييها خير من إمارة لاتحصيلها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لاتكون أميرا فافعل .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسؤولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم وطاشت حلومهم ، فروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بطريق مكة فأبصر راعيا يرعى بمكان جذب فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : كل راع مسؤول عن رعيته .

وقال علي رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتب فقلت : إلى أين ؟ فقال : بعير من أبل الصدقة قد ند وأنا أطلبه ، فقلت : أذلت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين ، فقال : لاتلمني يا أبا الحسن ، فوالذي بعث محمدا بالنبوة لو أن سحلة ذهبت بشاطئ الفرات لأجد بها حسرة يوم القيامة ، ألا إنه لأحرمة لوال ضيع المسلمين .

يا أبا يعقوب ، لقد بلت بأمر لو حملته السموات لانفطرت ، ولو حملته النجوم لانكدت ، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت

وتدكدكت ، إنك حملت الأمانة التي عرضت (على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) (٩٤) .

فروي أن آدم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته وما فيها من الأنعام ، وعهد اليه عهدا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله سبحانه أن يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده ، فأمر أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ، ومن العقاب إن عصا ، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عقابه ، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينه أيضاً ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده على شرط أن له الثواب إن أطاع ، والعقاب إن عصا ، فوبخه الله تعالى على مسارعته إلى قبول ذلك ، فقال: « وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » (٩٥) بعقابه وماتقلد لربه وكان الغرض تخييرا لا ايجابا .

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت اليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء عاليا ، فسئل عن البكاء ف قيل : إن عمر خير جواريه ، وقال : قد نزل بي أمر شغلني عنكن ، فمن أحبت أن اعتقها عتقتها ومن أحبت أن أمسكها لم يكن لها نصيب مني ، قال : فبكين يا أسما منه ، ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه ، وعلماءهم في وقته : سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي ، فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، إن أردت النجاة من عذابها فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت ، وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدك ، فسوقر أباك وأرحم أخاك وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله أحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت .

واني لأخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب في أمة

محمد الله ، فإن لك مع الله تعالى موقفا يساذلك فيه عنهم شخصا
شخصا ، ذكرا وأنثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدًا ، مسلما وذنميا ،
فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذي نفسي بيده إن
ذلك (لحق مثل ما أنكم تنطقون) (٩٦) .

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ما منكم من أحد إلا ويخلو بربه ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا تزول
قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه ،
وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ،
وماذا عمل بما علم .

واعلم يا أبا يعقوب أنه لا يزني فرج في ولايتك ومدى سلطانتك
وطول عمرك إلا كنت المسؤول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك
لا يشرب فيها نقطة مسكر إلا وأنت المسؤول عنها ، ولا ينتهك فيها
عرض امرئ مسلم إلا وأنت المطالب به ، ولا يتعامل فيها بالربى إلا
وأنت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من
حرمات الله تعالى فعدها عليك ، لأنك قادر على تغييرها ، فأما ما
خفي من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء
الله تعالى ، ألا ترى إلى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطلبه الله
ببغير من إبل الصدقة ، وإنما هو البعير للمسلمين ، فركب على
بعيره وجعل يطلبه بنفسه ، ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول : لم
يبلغني فإنك إذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ، قال الله
تعالى : "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (٩٧)
من تركهم الانكار ، وإنما قاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء
والنظرء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء . قال الله سبحانه : "يا
ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا
ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا" (٩٨) جاء في التفسير: الصغيرة
التبسم. والكبيرة الضحك.

ولقد بلغني أن عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في
الطواف فقال : يا هارون فنظر إليه الرشيد فعرفه فقال : لبيك يا

عما ه ، فقال : كم ترى ها هنا من خلق ؟ قال : لا يحصيه إلا الله تعالى ، قال : فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا فجعلوا يعطونه منديلا يمسح به دموعه ، قال له: والله يا هارون أن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع في مال المسلمين؟

ولما دخل طاووس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال . يا أمير المؤمنين هل تدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل فقال : أشد الناس عذابا يوم القيامة ، من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريرته باكيا حتى قام عنه جلساؤه.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إن الملك إذا ملك زهده الله في ماله ، ورغبة في مال غيره ، وأشرب قلبه الاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ، ويحسده على الكثير ، حتى إذا قضى الله نحبه حاسبه بأشد حسابه وأقل عفوه.

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض فلا يكون لك فيها موقف قدم ، عاذنا الله وإياك من هذا الموقف ، ولقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا ، وإن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (٩٩) قال الحسن: لا والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه في الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : من رغب عن سنتي فليس مني ، قال الحسن: فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ درتته ويمشي في

الأسواق ، ويتفقد أمور رعيته ، وكان يعس ليلا في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة رضي الله عنهم يحفظون عورات المسلمين ، فروي عنه أنه استعمل سعد بن أبي وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة وقال : اذا رأيت سعدا فأحرق عليه بابه ، فأتى الكوفة وأخرج زنده واستورى ناره ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول .

يا أبا يعقوب ! ولقد بلغني أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فليست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها كأنك لم تسمع قول الله عز وجل "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" (١٠٠) أو لم تسمع سبحانه يقول لنبي الله صلى الله عليه وسلم : "ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه" (١٠١) .

ولقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ، ما توقد في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قيل فما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء .

ولقد روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت : خبزنا من شعير فجئت منه بكسرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقلت : رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطب نفسي أن أكله حتى أجيك بهذه الكسرة ، فقال : أما أنه أول طعام دخل جوف أبك منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شركوك في خفض العيش لنهيت عنه ، لأن الله تعالى أخذ على الأئمة مثل ما روي عن يوسف صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل الشعير ، ويطعم الخشكار ، ويطعم المسلمين الحوارى ؟ وكان يجوع نفسه ، فقيل له : أتجوع وببيدك خزائن الأرض ؟ : فقال أخاف أن أشبع فأذسى الجائعين . وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما أفضت اليه الخلافة قال : إني أنزلت نفسي في مال الله سبحانه بمنزلة ولي اليتيم ، إن

استغذيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وروي عنه أنه قال : أخبركم بما يحل لي من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتي ؛ حلة الشتاء ، وحلة القيظ . وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتي وقوت عيالي ، كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم ، فكيف والفقراء ببابك يتضاغون وذوو الحاجات يترددون ، وأهل الديون والغرم في السجون محبوسون مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يديك ، وفي قبضتك ، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا ، أما سمعت قول الله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) (١٠٢) الآية إلى قوله الغارمين

يا أبا يعقوب ! إنه قد كبرت السن وانحلت القوى (واشتعل الراس شيبا) (١٠٣) وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، « والتفت الساق بالساق » (١٠٤) ، وجاءت سكرة الموت بالحق » (١٠٥) ، فالبدار البدار إلى حياة لاموت فيها وشباب لاهرم معه ، وصحة لا سقم فيها . قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (١٠٦) إلى قوله : « ومن فضله » .

يروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما أصيب إخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا : يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعيم ، وما صنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد ولا يذكلوا عنه . فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ، ومبلغ إخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء) - الآية . وقال جل من قائل : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (١٠٧) إلى قوله : « الفوز العظيم » ، فما ظنك بتجارة الله مشتريها يوشك والله أن لا تبور .

وقال جل من قائل : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم) فلو قطع هنا لانقطعت الأعيان في البحث عن هذه ، لأن الله بفضله وكرمه بين مراده من ذلك ، فقال : "تؤمنون بالله ورسوله" الى قوله "إن كنتم تعلمون" (١٠٨) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيل الله لا يخرج من بيته إلا الجهاد في سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الله الجنة أو يرده الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أشق على أمتي لأحببت أن لاتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله ، ولكني لأجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدي ، والذي نفسي بيده لو ددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل ، والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثغب دما : اللون لون الدم والريح ريح المسك » .

وقال أنس بن مالك : استشهد عمي يوم أحد وكان قد غاب عن بدر فقال يا رسول الله : إن أشهدني الله قتال المشركين ليرين ما أصنع ، فلما كان يوم أحد قال : إني لأجد ريح الجنة من دون أحد ، قال : فما استطعت يا رسول الله ما أصنع ، فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالنبل ، ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفي أمثاله : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) (١٠٩) .

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق الى أن تقوم الساعة ، قال الله تعالى : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر" (١١٠) الى قوله "صاغرون" ، فلم يرخص لهذه الأمة في ترك جهاد عدوهم إلا

باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام ، وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب الله تعالى تتضمن أعراض عن المشركين ، وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم العذاب » .

فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك أقرب الملوك إليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب والتهام وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنابات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين وأولي البطش والقوة ، وأنت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والذراري أفلا تأسيت بمن سافر إليها وأمضى المضي من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها وبنوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ، فكيف بمن يناسخها ويجاورها .

يا أبا يعقوب ! إذا أردت الظفر بالعدو ، فعليك بالعدل في الرعية ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إن وفدا من الوفود قدم عليه بالفتوح فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم ؟ فقال : من أول النهار . قال : فمتى انهزموا ؟ فقال : من آخر النهار ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقام الشراك للآيمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ؟ والله إن كان هذا إلا عن ذنب أحد ثمومه بعدي أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت يعلى بن أمية على اليمن استنصر لكم بصلاحه .

وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى جنده بالشام « وإنما يؤتي العشرة آلاف وأكثر ، إذا أتوا ، من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب » .

ومما اتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهباً ، لو انفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة التقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فروى مسلم في كتابه الصحيح (نقل العدل عن العدل)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله » ، والله أعلم هل أرادكم رسول الله صلى الله عليه وسلم معشر المرابطين أو أراد بذلك جملة أهل المغرب ، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين والاقتفاء لأثار السلف الصالح رضي الله عنهم ، وإنا لندرجو أن تكون أولى مسابقيه ينهون عن الفساد في الأرض .

ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مصابها تترى علينا أخبارك وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه ، واعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحماسة الدين والعباد والزهاد والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يدك ، فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، فقد كنا نستنصر بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة ، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله فذكرا من سيرتك في جهاد العدو أهلكه الله تعالى في تلك الأندية والمحافل والخلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته ، واعزازك للدين وأهله ، والعلم وحملته ، مازاد المسلمين بصيرة الدعاء لك ، وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمزينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين بحدتك ، نسأل الله تعالى الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا وإياك الشهادة في سبيله ، ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصالح الرعية بصالح الراعي .

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراءه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتي الحكمة من

يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يدك ، واحفظ فيه
وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه
وهو أجل القائلين : ”واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام
عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة“ (١١١) .

والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى
وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وآله
الطيبين الطاهرين ، وسلم وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم .

الحواشي والهوامش

الفصل الأول

من أجل دور السريان قبل الاسلام في بلدان الشرق الاقصى وغيرها ، انظر كتاب : ثقافة السريان في القرون الوسطى ، تاليف نينا بيف-وليفسكايا ، ترجمة عربية - ط . دمشق ١٩٩٠ ص ٣٨ - ٤٦

٢ - انظر كتابي التاريخ عند العرب - ط . دمشق ١٩٧٤ ص ١٥٩ - ١٨٨ حيث عثت نصوصاً مدروسة حول نشوء البحرية العربية وفتح جزيرة قبرص أيام الخليفة الراشدي عثمان بن عفان

٣ - ابن عبد الحكم ١٧١ - ١٧٣ تاريخ خليفة ١ / ١٤٩ - ١٥٠ رياض النفوس ١ / ٧ - ٩ جوليان ١ / ٢٧٩ - ٢٩٥ - ٣٢١ - ٣٤٠ البيان المغرب ١٠ / ٢٠١ . تاريخ المغرب العربي ٣ - ٩٤ المغرب عبر التاريخ ١٤ - ٨٧ قاعة فتح المغرب العربي ١ / ١١ - ٤٨

٤ - تاريخ خليفة ١ / ١٦٤ - ١٦٥ . ابن عبد الحكم ١٨٣ - ١٨٧ . الكندي ١١ - ١٤ . رياض النفوس ١ / ١٤ - ٢٧ البيان المغرب ١٠ / ٣ - ١٠ تاريخ المغرب العربي ٩٨ - ١٢١ .

المغرب عبر التاريخ ٩٢ - ٩٣ . قاعة الفتح ١ / ٥٤ - ٧٤ . ٥ - تاريخ خليفة ١٠ / ٢٣٤ - ٢٣٨ . ابن عبد الحكم ١٨٠ - ١٨٣ . البلاذري ٢٢٧ - ٢٣١ .

الكندي ١٤٠ - ٣٤ . رياض النفوس : ١ / ٢٨ - ٣٢ . البيان المغرب ١٠ / ١٠ - ١٣

تاريخ المغرب العربي ١٢ - ١٢٤ . المغرب عبر التاريخ ٩٢ - ٩٣

٦ - تاريخ خليفة ١٠ / ٢٤١ - ٢٤٤ . الطبري ٥ / ٢٢٩ . البلاذري ٢٢٩ . ابن عبد

الحكم ١٩٢ - ١٩٤ . أبو العرب ٧١ - ٧٢ . رياض النفوس ١ / ٣٠ . الاستقصاء

١ / ٧٥ - ٧٨ البيان المغرب ١٠ / ١٠ - ١٥ . رحلة التجاني ٦٥ - ٦٨ تاريخ المغرب

العربي ١٢١ - ١٣٢ . المغرب عبر التاريخ ٩٣ - ١٩٤ . قاعة الفتح ١ / ٧٥ - ٨٩ .

٧ - تاريخ خليفة ١ / ٢٤٧ - ٢٦٦ . الطبري ٥ / ٢٤٠ . ابن عبد الحكم .

١٩٤ - ١٩٦ . أبو العرب ٥٦ - ٥٩ . البلاذري ٢٣٠ . الرقيق : ٧ . رياض النفوس .

١ / ٣١ - ٣٣ . الاستقصاء : ١ / ٧٨ - ٨١ . البيان المغرب ١ / ١٣ - ١٦ . تاريخ المغرب

العربي : ١٤٢ - ١٥٠ . المغرب عبر التاريخ ٩٤ . قاعة الفتح : ١ / ٩٠ - ١٠٦ .

٨ - تاريخ خليفة ١٠ / ٢٦٩ - ٢٧٢ . الطبري ٥ / ٢٤٠ . البلاذري : ٢٣٠ . ابن عبد

الحكم ١٩٧ - ١٩٨ . أبو العرب : ٥٧ . الكندي : ٣٨ - ٤٠ . رياض النفوس ٣٣ . البيان

المغرب : ١٠ / ١٧ . الاستقصاء ١ / ٨٠ - ٨١ تاريخ المغرب العربي ١٤٩٠ - ١٥٢ . المغرب

عبر التاريخ ٩٤٠

- ٩ - أبو العرب . ٥٦ - ٦٤ . الرقيق . ٧ - ١٧ . البلاذري . ٢٣٠ . ابن عبد الحكم . ١٩٩ - ١٩٩ . رياض النفوس . ١ / ٣٣ - ٤٤ . البيان المغرب . ١ / ١٧ - ١٩ . الاستقصا . ١ / ٨١ - ٨٤ . تاريخ المغرب العربي . ١٥٣ - ١٦٩ . المغرب عبر التاريخ . ٩٥ - ٩٦ . قساة الفتح . ١ / ٩٧ - ١٣٦ .
- ١٠ - ابن عبد الحكم . ٢٠٠ . البلاذري . ٢٣٠ - ٢٣١ . الرقيق . ١٧ - ٢٢ . رياض النفوس : ١ / ٤٦ - ٤٨ . البيان المغرب . ١ / ٢٠ - ٢٤ . تاريخ المغرب العربي . ١٧٩ - ١٧٩ . المغرب عبر التاريخ : ٩٦ . قساة الفتح . ١٥٠ - ١٧٠ .
- ١١ - تاريخ خليفة . ١ / ٣٤٥ - ٣٩٢ . أبو العرب : ٨١ - ٨٢ . البلاذري . ٢٣١ . ابن عبد الحكم : ٢٠٣ . الرقيق . ٢٣ - ٣٧ . رياض النفوس . ١ / ٤٨ - ٥٧ . البيان المغرب . ١ / ٢٢ - ٣١ . الاستقصا . ١ / ٩٢ - ٩٥ . تاريخ المغرب العربي . ٢٠٦ - ٢١٧ . المغرب عبر التاريخ . ٩٧ - ٩٩ . قساة الفتح : ١ / ٢٢١ - ٢٤٠ .
- ١٢ - تاريخ خليفة . ١ / ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ . البلاذري . ٢٢٩ - ٢٣٢ . ابن عبد الحكم . ٢٠٣ - ٢٠٤ . الرقيق . ٣٨ - ٣٠ . البيان المغرب . ١ / ٣٢ - ٤٣ . الاستقصا . ١ / ٩٥ - ٩٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢٠٦ - ٢١٧ . المغرب عبر التاريخ . ٩٧ - ٩٩ . قساة الفتح . ١ / ٢٢١ - ٢٤٠ .
- ١٣ - ط . دار رياض الرئيس - لندن ١٩٩١ .
- ١٤ - ابن عبد الحكم . ٢٠٤ - ٢١١ . تاريخ خليفة . ١ / ٤٠٤ - ٤٠٩ . الطبري . ٦ / ٤٦٨ - ٤٨١ . الأغاني . ١٧٠ / ٣٠٤ . ابن القوطية . ٢٨ - ٣٧ . أخبار مجموعة . ٢ - ١٩ . الرقيق . ٤١ - ٥٧ . البلاذري . ٢٣٢ . سراج الملوك . ٥٠٦ - ٥٠٧ . ابن عساكر . ١٧ / ٢٠٥ و - ٢٠٨ . المعجب . ٩ - ١٢ . جذوة المقتبس . ٤ - ٦ . ابن الكردبوس . ٤٢ - ٥٢ . ابن الشباط . ١٣١ - ١٣٥ . ذكر بلاد الأندلس . ٤٤ - ٥٠ . ظ . البيان المغرب . ١ / ٣٦ - ٤٣ ، ٥ / ٢٩ - ٢٩ . ابن خلدون . ٦ / ٢٢٠ . دفع الطيب . ١ / ٢١٤ - ٢٥٩ . الاستقصا . ١ / ٩٦ - ١٠٠ . رينو . ٣٩ - ٤٤ . أرسلان . ٢٨ - ٤٧ . جـولييان . ١ / ٣٢١ - ٣٢٣ . دوزي . ١٣١ - ١٣٤ . تاريخ المغرب العربي : ٢١٤ - ٢٢٧ .
- ١٥ - ابن عبد الحكم . ٢١١ - ٢١٥ . تاريخ خليفة : ١ / ٤٣٠ . العنزي . ٤ - ٧ . ابن القوطية . ٣٧ - ٣٨ . أخبار مجموعة . ١٩ - ٢٢ . الرقيق . ٥٨ - ٦١ . البيان المغرب : ٢ / ٣٠ - ٣٢ . المعجب : ١٢ - ١٣ . جذوة المقتبس . ٦ . ذكر بلاد الأندلس . ٤٤ - ٥٠ . ظ . الاستقصا . ١ / ١٠٠ . أرسلان . ٤٧ . رينو . ٤٤ . المسلمون في أوروبا . ٩٤ - ١٠١ . تاريخ المغرب العربي . ٢٣٠ - ٢٣١ .
- ١٦ - ابن عبد الحكم . ١٢٦ - ٢١٧ . ابن القوطية : ٣٩ . أخبار مجموعة . ٢٢ - ٢٥ . البيان المغرب . ٢ / ٣٣ - ٣٥ . المقرئ . ١ / ٢٢٠ . الاستقصا . ١ / ١٠٥ - ١٠٥ . رينو . ٥٠ - ٧٢ . أرسلان : ٧١ - ١٠٤ . طرخان . ١٠٢ - ١١٦ . الحجى : ١٨٥ - ٢٠٣ .
- ١٧ - أخبار مجموعة . ٣٠ - ٦٧ . ابن القوطية : ٣٨ - ٤٦ . ابن عبد الحكم . ٢١٦ - ٢٢٥ . الرقيق - ط . أولى - ١٠٤ - ١٢٢ . البلاذري . ٢٣٣ . البيان المغرب . ١ / ٤٨ - ٦٤ ، ٢ / ٣٩ - ٥٥ . دفع الطيب . ١ / ٢٢٠ - ٢٢٣ . الاستقصا . ١ / ١١٨ . رينو . ٧٢ - ٨٥ . دوزي : ١٣٨ - ١٧٦ . أرسلان . ٧١ - ١١٣ . الحجى . ٢٠٣ - ٢٠٦ .
- ١٨ - ابن القوطية . ٤٥ - ٦٥ . العنزي . ١ ، ٢٥ - ٢٦ ، ١٠١ ، ١١٧ - ١٢٠ . أخبار مجموعة : ٤٦ - ١٢١ . ابن الأبار : ١ / ٣٥ - ٤٢ . الرقيق : ١٢٣ - ١٤٨ . البيان المغرب : ١ / ٦٥ - ٧٨ ، ٢ / ٥٦ - ٩٠ . جذوة المقتبس . ٩ - ١٠ . ذكر بلاد الأندلس . ٤٥ . و - ٤٩ . و . ابن الكردبوس : ٥٥ - ٥٧ . الاستقصا : ١ / ١١٩ . المعجب :

- ١٦ - ١٨ . دفع الطيب ١٠ / ٣٠٦ - ٣١٣ . دوزي ١٦٨ - ٢٣٦ . أرسلان ١٢٠ - ١٢٣ . رينو ٨٦ - ١٠٧ . طرخان : ١٢٠ - ١٣٨ .
- ١٩ - ابن القوطية . ٦٤ - ٦٧ . أخبار مجموعة ١٢٠ - ١٢٤ . العذري ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧١ . البيان المغرب ١٠ / ٩١ - ١٠١ . جذوة المقتبس ١١ . ابن الأبار ١ / ٤٢ - ٤٣ . المعجب ١٩ . دفع الطيب ١٠ / ٣١٣ - ٣١٧ . أرسلان ١٢٦ - ١٢٩ . رينو ١٠٨ - ١١٤ . طرخان ١٣٩ - ١٤١ .
- ٢٠ - ابن القوطية ٦٧ - ٨٠ . أخبار مجموعة ١٢٤ - ١٣٥ . العذري ٢٧ ، ٩٣ ، ١٠٩ - ١١١ . جذوة المقتبس ١١ . ابن الأبار ١٠ / ٤٣ - ٥٠ . المعجب ١٩ - ٢٢ . دفع الطيب ٣١٧ - ٣٢٢ . البيان المغرب ٢ / ١٠٢ - ١٢٠ . أرسلان ١٣٢ - ١٤٦ . رينو ١١٥ - ١٣٢ .
- ٢١ - ابن القوطية : ٨٠ - ٩١ . أخبار مجموعة ١٣٥ - ١٤١ . المقتبس ١٦٣ - ٢٢٩ . العذري : ٥ - ٦ ، ٢٩ - ٣٠ ، ٩٣ ، ٩٨ - ١٠٠ . جذوة المقتبس ١١ . البيان المغرب ٢ / ١٢١ - ١٤٠ . ابن الأبار ١ / ١١٣ - ١١٩ . دفع الطيب ١ / ٣٢٢ - ٣٢٨ . أرسلان ١٣٩ - ١٥٩ . رينو ١٣١ - ١٣٨ .
- ٢٢ - ابن القوطية ٩٦ - ١٣٣ . أخبار مجموعة ١٤١ - ١٥٣ . العذري ٢٧ - ٢٩ ، ٤١ - ٤٩ - ٥٣ - ٦٥ . جذوة المقتبس ١١ - ١٢ . وصلنا جزء من المقتبس لابن حيان عن عهد الأمير عبد الله نشر في فرنسا ثم أعيد نشره في الدار البيضاء ١٩٩٠ . البيان المغرب ٢ / ١٤١ - ٢٣٤ . ابن الأبار : ١ / ١١٩ - ١٣٤ . دفع الطيب ١ / ٣٢٨ - ٣٢٩ . أرسلان ١٥٦ - ١٦٧ .
- ٢٣ - رينو : ١٤٥ - ١٩٩ . أرسلان ١٦٠ - ٢٠٣ . طرخان ١٥٢ - ١٥٨ .
- ٢٤ - خير التفاصيل عن الشطر الأكبر من عهد عبد الرحمن الناصر في الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان - ط . مدريد ١٩٧٩ . أخبار مجموعة ١٥٣ - ١٦٥ . البيان المغرب ٢ / ٢٣٤ - ٣٤٧ . العذري ٩ - ١٥ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٧ - ٨٦ - ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٧٥ . الديكري ٧٢ . ابن الأبار ١٠ / ١٩٧ - ٢٠٠ . جذوة المقتبس ١٣٠ . دفع الطيب ١ / ٣٣٠ - ٣٥٨ . أرسلان ١٦٨ - ١٨٢ . منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٣٢١ - ٣٤٤ .
- ٢٥ - العذري ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ . ابن حيان ط . بيروت ١٩٦٥ ١٩ - ٢٤٣ . جذوة المقتبس ١٣ - ١٧ . البيان المغرب ٢ / ٣٤٨ - ٣٧٦ . الحلة السيرة ١ / ٢٠٠ - ٢٠٦ . دفع الطيب : ١ / ٣٥٨ - ٣٧٢ . أرسلان ١٨٢ - ١٨٥ .
- ٢٦ - لسان الدين ابن الخطيب - أعمال الاعلام ١ / ١٤٤ .
- ٢٧ - المعجب ١٠١ - ١٠٢ .
- ٢٨ - النخيرة لابن بسام . ق ٤ م ١ ص ١٤٧ - ١٤٩ .
- ٢٩ - الحلة السيرة ٢ / ٥٤ - ٧٠ . المعجب ٧٠ - ١٤٦ . دوزي - دول الطوائف .
- ٦ - ٣٨ . الحجى ٣٢٣ - ٣٩١ .

الفصل الثاني

- ١ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض - نشر دار الحياة بيروت ج ٤ ص ٧٠٢ .
- ٢ - بيوتات فاس الكبرى - ط . الرباط ١٩٧٢ ص ٤٤ - ٤٥ .
- ٣ - المدارك ج ٤ ص ٧٠٦ . مجلة البيئة - العدد الثالث - الرباط تموز ١٩٦٢ ص ٦٧ .
- بحث عبد القادر رزمامة عن أبي عمران الغفجومي ،
- ٤ - مجلة البيئة . البحث نفسه ص ٦٧ . ومن أجل أوضاع فاس في أيام أبي عمران انظر الانيس المطرب في روض القرطاس ، المنسوب لابن أبي زرع . ط . الرباط ١٩٧٣ ص ١٠٢ - ١١٨ .
- ٥ - اهتم بهذا الموضوع عدد كبير من المؤرخين العرب المتقدمين وكان مدار أبحاث عدد كبير من المستشرقين والعرب في عصرنا ، انظر من ذلك تاريخ ابن خلدون - ط . بيروت ١٩٥٨ ج ٤ ص ١٣٠ - ١٣٢ لسان الدين ابن الخطيب - أعمال الأعلام (نشر القسم الثالث منه باسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط - الدار البيضاء ١٩٦٤) ص ٧٢ - ٧٦ عبد الواحد المراكشي - المغرب في تلخيص أخبار المغرب . ط . القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ابن ميسر - أخبار مصر - ط . القاهرة ١٩٨١ ص ١٧ ابن عذاري - البيان المغرب - ط . بيروت ١٩٨٠ ج ١ ص ٢٧٣ - ٣٧٤ - ٣٨٠ حسن حسني عبد الوهاب - خلاصته تاريخ تونس - ط . تونس ١٩٦٨ ص ١١١ - ١١٣ شارل أندري جولييان - تاريخ أفريقيا الشمالية - ترجمة عربية - ط . تونس ١٩٧٨ ج ٢ ص ٩٠ - ٩٩ . عفيفي محمود ابراهيم - بنو زيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط ط . القاهرة ١٩٨٩ ص ٨١ - ٨٥ .
- ٦ - روض القرطاس ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- ٧ - بيوتات فاس الكبرى ص ٤٥ .
- ٨ - بيوتات فاس ص ٢٧ - ٢٨ .
- ٩ - مجهول الحال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية - ط . الدار البيضاء ١٩٧٨ ص ٢٣ .
- ١٠ - البكري ص ١٦٤ - ١٦٦ .
- ١١ - نهاية الأرب ج ٢٤ ، ط . القاهرة ١٩٨٣ ص ٢٥٣ - ٢٥٩ .
- ١٢ - الكامل لابن الأثير - ط . القاهرة (مطبعة الاستقامة) ج ٨ ص ٧٤ .
- ١٣ - الكامل ج ٨ ص ٧٥ .
- ١٤ - التشوف إلى رجال التصوف للتادلي - ط . الرباط ١٩٥٨ ص ٦٦ .
- ١٥ - بيوتات فاس ص ٢٨ .
- ١٦ - روض القرطاس ص ١٢٢ .
- ١٧ - روض القرطاس ص ١٢٤ .
- ١٨ - روض القرطاس ص ١٢٤ .
- ١٩ - روض القرطاس ص ١٢٢ .
- ٢٠ - روض القرطاس ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- ٢١ - سورة آل عمران - الآية : ١٩٩ .
- ٢٢ - في كتاب رياض الدفوس للمالكي مائة ممتازة حول الحياة في الأربطة أحسن استقلالها وعرضها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه أوراق .

- ٢٣ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤
 ٢٤ - روض القرطاس ص ١٢٥ - ١٢٦
 ٢٥ - روض القرطاس ص ١٢٦
 ٢٦ - روض القرطاس ص ١٢٦ .
 ٢٧ - انظر محمد عبد الهادي شعيرة - المرابطون - ط . القاهرة ١٩٦٩ ص ١٥ - ١٦
 الحبيب الجنحاني - المغرب الاسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية - ط . تونس ١٩٧٨ ص ١٤٣ - ٢١٧ .
 ٢٨ - الشريف الادريسي - نزهة المشتاق في اختراق الافاق - ط . القاهرة ، مكتبة الثقافة
 الدينية ج ١ ص ٢٢٣ . البكري ص ١٦٤ . الحلل الموشية ص ١٧ . ابن خلدون ج ٦
 ص ٣٧٠ - ٣٧١ . الاستقصا للناصري ج ٢ ص ٣ . عبد الوهاب بن منصور - قبائل المغرب ،
 ط . الرباط ١٩٦٨ ص ٣٢٨ - ٣٣٥
 ٢٩ - نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
 ٣٠ - البكري ص ١٦٤ - ١٦٦ .
 ٣١ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري - كتاب الجغرافية (نشر في دورية المعهد الفرنسي
 بدمشق العدد ٢١ سنة ١٩٦٨) ص ١٨٩
 ٣٢ - من المفيد العونة إلى دراسة ماك كول حول الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة
 وغانة ، ترجمة عربية ، ط . الدار البيضاء ١٣٩٥ هـ . المغرب العربي للحبيب الجنحاني - ص
 ١٤٣ - ١٩٠
 ٣٣ - المغرب العربي للجنحاني ص ١٩٣ - ١٩٤ .
 ٣٤ - الادريسي ص ٢٢٦ . عصمت عبد اللطيف نندش - دور المرابطين في نشر الاسلام في
 غرب افريقيا - ط . بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢ - ٣٦ .
 ٣٥ - روض القرطاس ص ١٢٦
 ٣٦ - روض القرطاس ص ١٢٦ أعمال الاعلام ص ٢٢٨ .
 ٣٧ - البكري ص ١٦٦ - ١٦٧ .
 ٣٨ - روض القرطاس ص ١٢٧ .
 ٣٩ - البكري ص ١٩٦٨ الجنحاني ص ٢٠٢ - ٢٠٣ روض القرطاس ص ١٢٧ .
 ٤٠ - روض القرطاس ص ١٢٧ - ١٢٨ أعمال الاعلام ص ٢٢٩ . البكري ص ١٦٧
 البيان المغرب ج ٤ ص ١٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الارب ج ٢٤ ص ١٣ . ابن الاثير
 ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الارب ج ٤ ص ٢٦٠ الحلل الموشية ص ٢٢ . بيوتات فاس الكبرى
 ص ٢٩ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٥ .
 ٤١ - البكري ص ١٦٧ .
 ٤٢ - الذويري ج ٢٤ ص ٢٦١ . البكري ١٦٧
 ٤٣ - البكري ص ١٦٧ - ١٦٨ .
 ٤٤ - صالح بن قربة - المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة بني
 حماد - ط . الجزائر ١٩٨٦ ص ٥٣٥ - ٥٣٨ .
 ٤٥ - نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٦١ . المسكوكات المغربية ص ٥٣٧ .
 ٤٦ - نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
 ٤٧ - البكري ص ١٧٠ . روض القرطاس ص ١٣٤ . بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩ . الذويري
 ج ٢٤ ص ٢٥٩ - ٢٦١ أعمال الاعلام ص ٢٣٣ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٦ - ٣٧٧
 البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ - الحلل الموشية ص ٢٣ . الاستقصاء ج ٢ ص ١٤ - ٢١ . قبائل
 المغرب ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .
 محمود اسماعيل - مغربيات - ط . فاس ١٩٧٧ ص ١٥ - ٥٤ . رجب محمد عبد

- الحليم - دولة بني صالح في تلمسان - ط . القاهرة ١٩٩١ ص ١٠٠ - ١٠١ . محمد عبد الهادي شعيرة - المرابطون - ط . القاهرة ١٩٦٩ ص ٦٤ - ٦٥ . نندش ص ٨٨ - ١٠٣ . جولييان ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٨ .
- ٤٨ - روض القرطاس ص ١٣٥ .
- ٤٩ - روض القرطاس ص ١٣٥ . ابن عذاري ج ٤ ص ٢٣ - ٢٤ . الحلل الموشية ص ٢٥ .
- ٥٠ - روض القرطاس ص ١٣٥ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٧ . أعمال الاعلام ص ٢٣٣ .
- الاستقصا ج ٢ ص ٢٢ . العباس بن ابراهيم - الاعلام بمن حل مراكش وأعمال من الاعلام - ط . الرباط ١٩٧٤ ج ١ ص ٢٠٤ .
- ٥١ - المسكوكات المغربية ص ٣٥٧ - ٣٥٨ . قبرايمي بكر بن عمر في منطقة تكانت في ولاية تجكجا التي كانت تعرف باسم الولاية التاسعة في مورتانيا .
- ٥٢ - الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ٧٦ . نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٦١

الفصل الثالث

- ١ - نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٥ . روض القرطاس ص ١٣٦ . الحلل الموشية ص ٢٤ .
- ٢ - وفيات الاعيان لابن خلكان - ط . القاهرة . ١٣١ هـ ج ٢ ص ٣٦٥ .
- ٣ - الزهري - الجغرافية ص ١٩١ - ١٩٢ .
- ٤ - الحلل الموشية ص ١٥ - ١٦ .
- ٥ - الحلل الموشية ص ١٦ - ٢٣ .
- ٦ - روض القرطاس ١٣٨ - ١٣٩ .
- ٧ - مراکش من التأسيس إلى آخر العصر الموحيدي - من منشورات جامعة القاضي عياض - ط . الدار البيضاء ص ١٥ - ١٩ (بحث الدكتور أحمد التوفيق) و ص ٢١ - ٢٥ (بحث ليفي بروفنسال) و ص ٧١ (بحث الدكتور الكريم الصوي مولاى ابراهيم) .
- ٨ - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .
- ٩ - مراکش من التأسيس إلى آخر العصر الموحيدي ص ٧٢ - ٧٣ .
- ١٠ - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٧٠ . مراکش ص ٧٢ .
- ١١ - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٦٥ .
- ١٢ - تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٤٣٤ .
- ١٣ - وصف إفريقية لليون الافريقي - ترجمة عربية - ط . الرياض ١٣٩٩ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- ١٤ - البيان المغرب ٤٠ ص ٢٨ . الحلل الموشية ص ٢٨ .
- ١٥ - البكري ص ١٤١ .
- ١٦ - روض القرطاس ص ١٤١ .
- ١٧ - روض القرطاس ص ١٣٨ - ١٣٩ .
- ١٨ - الحلل الموشية ص ٢٥ .
- ١٩ - البيان المغرب ٤٠ ص ٢٩ - ٣٠ .
- ٢٠ - جني زهرة الاس في بناء مسجدة فاس لعلي الجزنائي - ط . الرباط ١٩٦٧ ص ٤٠ - ٤١ . روض القرطاس ص ١٤١ . الحلل الموشية ص ٢٨ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٨ . أعمال الاعلام ص ٢٣٥ . تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٩ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٧ - ٢٩ .
- ٢١ - روض القرطاس ص ١٤١ الجزنائي ص ٤١ .
- ٢٢ - الحلل الموشية ص ٢٨ - ٣٣ . روض القرطاس ص ١٤٠ - ١٤٣ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٨ - ٣١ .
- ٢٣ - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٦٦ .
- ٢٤ - روض القرطاس ص ١٤٢ .
- ٢٥ - الحلل الموشية ص ٢٩ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ .
- ٢٦ - جذوة المقتبس للحميدي - ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٨ - ٢٩ ، ٧٣ .
- ٢٧ - النخبة لابن بسام ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٣٠ ص ٤٢ .
- ٢٨ - أعمال الاعلام للسان الدين ابن الخطيب ج ١ ، ط . بيروت ١٩٥٦ ص ٥٩ .
- ٢٩ - ابن عذاري - البيان المغرب - ط . بيروت ١٩٨٠ ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .
- ٣٠ - ابن بسام ق ٤ ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٠ .

- ٣١ - ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٦٠ .
- ٣٢ - ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٥ .
- ٣٣ - أعمال الاعلام ج ١ ص ٥٨ - ٦٦ . وامتلك في مكتبتي على نسخة مصدرة عن مخطوطة ذكر بلاد الأندلس .
- ٣٤ - البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .
- ٣٥ - أعمال الاعلام ج ١ ص ٦٥ .
- ٣٦ - البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ - ٢٨٦ .
- ٣٧ - مطمح الأندلس ومسرح التأذس في ملج أهل الأندلس للفتح بن خاقان الاشـبيلي - ط . بيروت ١٩٨٣ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
- ٣٨ - مذكرات الأمير عبد الله - أو كتاب التبيان - ط . القاهرة ١٩٥٥ ص ١٦ - ١٨ .
- ٣٩ - مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ .
- ٤٠ - أعمال الاعلام ج ١ ص ٨٠ - ٨١ البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٠١ .
- ٤١ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
- ٤٢ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
- ٤٣ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
- ٤٤ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
- ٤٥ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
- ٤٦ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ - ٣٩ .
- ٤٧ - البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ - ٥٠ .
- ٤٨ - أعمال الاعلام ج ١ ص ١٤٥ - ٢٣٠ .
- ٤٩ - المعجب ص ٧٠ - ٧٥ ، ٩٢ - ٩٣ .
- ٥٠ - تاريخ الأندلس لابن الكردبوس - ط . مدريد ١٩٧١ ص ٧٤ - ٧٦ .
- ٥١ - أزهار البساتين في أخبار الأندلس على عهد المرابطين والموحدين تأليف جان دجيروم طارو ، ترجمة عربية - ط . الرباط ١٣٤٩ هـ . ص ٢٣ .
- ٥٢ - الفخري في الآداب السلطانية - ط . القاهرة - مطبعة محمد علي صبيح - ص ٦٥ .
- ٥٣ - مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
- ٥٤ - مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
- ٥٥ - مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
- ٥٦ - مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٥ .
- ٥٧ - ملوك الطوائف للمستشرق دوزي - ترجمة عربية - ط . القاهرة (بلا تاريخ) ص ٥٠٦ - ٢٠٧ .
- ٥٨ - النخيرة لابن بسام (ط . بيروت) ق ٤ . ج ١ ص ١٦٥ .
- ٥٩ - ملوك الطوائف ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
- ٦٠ - ابن الكردبوس ص ٨٧ - ٨٩ .
- ٦١ - ابن الكردبوس ص ٧٦ - ٧٨ .
- ٦٢ - ابن الكردبوس ص ٨٩ .
- ٦٣ - الحلل الموشية ص ٤١ - ٤٢ .
- ٦٤ - ابن الكردبوس ص ٨٩ .
- ٦٥ - الحلل الموشية ص ٣٣ .
- ٦٦ - مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠١ - ١٠٢ .
- ٦٧ - ابن الكردبوس ص ٨٩ - ٩٠ .
- ٦٨ - مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

- ٦٩ - الحلل الموشية من ٤٢ - ٤٣ .
٧ - الحلل الموشية من ٣٣
٧١ - الحلل الموشية من ٣٨ .
٧٢ - الحلل الموشية من ٤٩ - ٥٠ .
٧٣ - الحلل الموشية من ٤٤ - ٤٥
٧٤ - الحلل الموشية من ٥١ .
٧٥ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٣ .
٧٦ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٢
٧٧ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٢ - ١٠٣
٧٨ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٣ .
٧٩ - الحلل الموشية من ٥١ .
٨٠ - لاتملك المملكة المغربية الآن أيا من الطرفين فهما مورعان بين ادكترا واسبانيا
٨١ - روض القرطاس من ١٤٥ - ١٤٦
٨٢ - الحلل الموشية من ٥١ - ٥٢
٨٣ - من متن الثغر الانسى قريبة من مارنة الروض المعطار
٨٤ - من متن الثغر الأعلى
٨٥ - الحلل الموشية من ٣٤ - ٣٥
٨٦ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٤ .
٨٧ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٤
٨٨ - الحلل الموشية من ٥٦
٨٩ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٤ - ١٠٥
٩٠ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٥
٩١ - روض القرطاس ١٤٦ .
٩٢ - الحلل الموشية من ٥٣ - ٥٤ .
٩٣ - الحلل الموشية من ٥٧
٩٤ - الحلل الموشية من ٥٩
٩٥ - الحلل الموشية من ٥٩ - ٦٠ .
٩٦ - ابن الكردبوس من ٩٤
٩٧ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٦
٩٨ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٦ روض القرطاس من ١٤٦ - ١٤٩ الحلل الموشية
من ٦٠ - ٦٢ الروض المعطار ، مائة رلاقة ،
٩٩ - الديكري من ١٦٦
١٠٠ - الحلل الموشية من ٦١ - ٦٢
١٠١ - الروض المعطار ، مائة رلاقة
١٠٢ - الحلل الموشية من ٦٥ - ٦٦
١٠٣ - مذكرات الأمير عبد الله من ١٠٦ - ١٠٧
١٠٤ - الحلل الموشية من ٦٦
١٠٥ - روض القرطاس من ١٥١ - ١٥٢
١٠٦ - انظر الملاحق

الفصل الرابع

- ١ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٧
- ٢ - الحلل الموشية ص ٦٧ .
- ٣ - الحلل الموشية ص ٦٧ .
- ٤ - الحلل الموشية ص ٦٧ .
- د - الحلل الموشية ص ٦٧ .
- ٥ - روض القرطاس ص ١٥٢ .
- ٦ - الحلل الموشية ص ٦٧ - ٦٨ .
- ٧ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٨ .
- ٨ - روض القرطاس ص ١٥٢ .
- ٩ - الحلل الموشية ص ٦٩ - ٧٠ .
- ١٠ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٩ - ١١١ .
- ١١ - مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ - ١٢٩ .
- ١٢ - المعجب ص ١٣٨ - ١٣٩ .
- ١٣ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٢٦ .
- ١٤ - مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ - ١٢١ .
- ١٥ - المؤنس في اخبار إفريقية وتونس لابن أبي بيار - ط . تونس ١٩٦٧ ص ١٠٨ .
- ١٦ - الحلل الموشية ص ٧١ .
- ١٧ - سورة الاسراء - الآية : ٨١ .
- ١٨ - سورة الاسراء - الآية : ٨١ .
- ١٩ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٦ - ١٥٠ .
- ٢٠ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- ٢١ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٥٠ - ١٦١ .
- ٢٢ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- ٢٣ - الحلل الموشية ص ٧١ - ٧٢ .
- ٢٤ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٤ - ١٦٥ .
- ٢٥ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٥ - ١٦٧ .
- ٢٦ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٨ - ١٦٩ .
- ٢٧ - المعجب ص ١٣٩ .
- ٢٨ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٩ .
- ٢٩ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٩ - ١٧١ . المعجب ص ١٤٠ - ١٤٢ . الحلل الموشية ص ٧٢ - ٧٤ . روض القرطاس ص ١٥٤ - ١٥٥ . نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .
- ٣٠ - المعجب ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- ٣١ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٧١ .
- ٣٢ - ازهار البساقين ص ٧١ - ٧٢ .
- ٣٣ - مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- ٣٤ - روض القرطاس ص ١٥٥ - ١٥٦ .

- ٣٥ - مذكرات الأمير ، الجزء ١٧٢ .
- ٣٦ - مذكرات الأمير عبد الله بن ١٧٣ .
- ٣٧ - مذكرات الأمير عبد الله بن ١٧٣ - ١٧٤ .
- ٣٨ - مذكرات الأمير عبد الله بن ١٧٥ .
- ٣٩ - الحلل الموشية من ٧٥ - ٧٦ .
- ٤٠ - الحلل الموشية من ٨١ - ٨٢ . وتم الاستيلاء على الثغر الأعلى من قبل المرابطين سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، بعد وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه علي بن يوسف ، وبذلك غدت ديار الأندلس كلها ولاية مغربية .
- ٤١ - الحلل الموشية من ٧٧ - ٧٨ .
- ٤٢ - المعجب من ١٦٣ - ١٦٤ .
- ٤٢ - المعجب من ١٦٢ - ١٦٣ .
- ٤٤ - الحلل الموشية من ٨١ - ٨٣ .
- ٤٥ - ازهار البساتين من ٧٥ - ٧٦ .

الفصل الخامس

- ١ - انظر كتابي التاريخ عند العرب - ط . دمشق ١٩٧٤ ص ١٦٠ - ١٨٨
- ٢ - البحر المتوسط لاميل لودفيغ - ترجمة عربية ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٤ .
- ٣ - ابن عذاري ج ١ ص ١٠٦١ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي - ترجمة عربية ، ط . بيروت ١٩٨٥ ص ٤٢٢ - ٤٢٥ . المسلمون في جزيرة صقلية لاحمد توفيق المدني - ط . الجزائر ١٣٦٥ ص ٥٢ - ٥٦ .
- ٤ - جمع المرحوم الاستاذ حسن حسني عبد الوهات مائة جيدة حول هذا الموضوع في كتابه أوراق فليراجع .
- ٥ - رياض النفوس للمالكي - ط . بيروت ١٩٨٣ ج ١ ص ٢٥٤ - ٢٧٣ المقفسي للمقرئزي - ط . بيروت ١٩٩١ ج ٢ ص ٥٩ - ٦٢ البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ .
- ٦ - الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- ٧ - رياض النفوس ج ١ ص ٢٥٤ - ٢٧٣ . أعمال الاعلام ج ٢ ص ١٠٩ - ١١١ والمقفسي للمقرئزي ج ٢ ص ٥٩ - ٦٢ . البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ - ١٨٨ . المسلمون في جزيرة صقلية وجذب ايطاليا لاحمد توفيق المدني ص ٥٧ - ٦٣ . تاريخ صقلية الاسلامية لعزیز احمد - ترجمة عربية ، ط . ليبيا ١٩٨٠ ص ١٣ - ١٥ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي - ط . بيروت ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٦٧ .
- ٨ - المكتبة الصقلية ص ٢٥ ، ٢٧ .
- ٩ - المكتبة الصقلية ص ٧٤ - ٧٥ .
- ١٠ - المكتبة الصقلية ص ٢٥ - ٧٤ .
- ١١ - أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٠٩ - ١٢١ . المكتبة الصقلية ص ١٦٣ - ٥٤٥ المدني . ص ٦١ - ١٠٠ . عزيز احمد ص ١٣ - ٣١ العرب في صقلية ص ٣١ - ٥٧ . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط لحسين مؤنس - ط . القاهرة ١٩٩١ ص ٦٦ - ٧٦ . بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية لوبيع فتحي عبد الله . ط . الاسكندرية ١٩٩٢ ص ٧ - ٢٨ . الدولة الاغلبية ص ٤٤٩ - ٥٩٩ .
- ١٢ - اصدقاء جديدة على المرابطين لعصمت عبد الطيف بندقش - ط . بيروت ١٩٩١ ص ١١ - ٣٦ .
- ١١ - أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢٣ .
- ١٤ - أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢٩ - ١٣٠ . المكتبة الصقلية ص ٤٧٩ - ٤٨٥ . المدني ص ١٢٣ - ١٦٤ . عزيز احمد ص ٣٧ - ٤٨ العرب في صقلية ص ٤٤ - ٤٩ .
- ١٥ - المكتبة الصقلية ص ٢٥ - ٢٦ .
- ١٦ - القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط لارشيد بالد لوييس - ترجمة عربية ، ط . القاهرة ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .
- ١٧ - درس تاريخ جزر البليار بشكل جيد في كتاب جزر الاندلس المنسية للدكتور عصام سالم سيسالم ، ط . بيروت ١٩٨٤
- ١٨ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٩ - ٤٥٠
- ١٩ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٧ - ٤٥٠ .
- ٢٠ - الولاة والقضاة للكندي - ط . بيروت ١٩٠٨ ص ١٥٨ .
- ٢١ - الكندي ص ١٥٤ - ١٦٤ .

- ٢٢ - الكندي ص ١٦٥ - ١٧٢
- ٢٣ - كتابي تاريخ العرب والاسلام - ط بيروت ١٩٧٥ ص ٤٦٦ .
- ٢٤ - روض القرطاس ص ٤٧ .
- ٢٥ - الحلة السبراء - ط القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٤٥
- ٢٦ - الكندي ص ١٨٣ - ١٨٤ .
- ٢٧ - العرب والروم لفازلييف - ترجمة عربية - ط القاهرة ص ٥٥ . الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية لاسمت غنيم - ط جدة ١٩٧٧ ص ٤١ - ٤٢ .
- ٢٨ - العرب والروم ص ٧٥ غنيم ص ٤٣
- ٢٩ - العرب والروم ص ٥٨ . غنيم ص ٤٥ - ٤٦
- ٣٠ - فازلييف ص ٦٠ - ٦١ غنيم ص ٤٩ - ٥٧ .
- ٣١ - غنيم ص ١٩٤ - ٢٠٦ .
- ٣٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٠ - ٤٥٤ .

حواشي الملاحق

- ١ - سورة محمد - الآية : ٣٥ .
- ٢ - عبد الرحمن بن عبد العزيز النصراني ، وتسمية المصادر المسيحية « كرسندوب-ولوص » .
- ٣ - كذا بالأصل ، والصحيح « عبد الله » .
- ٤ - زيد مابين الحاصرتين من نهاية الأرب للذويري ج ٢٤ ص ٢٥٧ .
- ٥ - انحنى أمامه مسلما عليه .
- ٦ - بداية سقط بالأصل - انظر اتعاط الخنفا ج ٢ ص ١٩٩ .
- ٧ - التليس كيل للأصح يساوي ١٥٠ رطلا ، أو ثمانى وبيبات .
- ٨ - أي المخازن .
- ٩ - ميخائيل الخامس (١٠٤١ - ١٠٤٢) .
- ١٠ - جاء بعد ميخائيل الخامس قسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٤) بعد زواجه من الامبراطورة العجوز زوي .
- ١١ - الجؤجؤ هو الصدر . القاموس .
- ١٢ - زيد ما بين الحاصرتين من اتعاط الخنفا ج ٢ ص ٢٤٠ .
- ١٣ - زيد ما بين الحاصرتين من اتعاط الخنفا ج ٢ ص ٢٤١ .
- ١٤ - من كتاب التشوف للتادلي ص ٦٦ - ٦٧ .
- ١٥ - نقلا عن كتاب الاسلام في المغرب والاندلس لليفي بروفنسال ص ١١٥ - ١١٨ .
- ١٦ - من كتاب رسائل اندلسية ص ٢٢٥ - ٢٤٣ ، والباجي هو ابو الوليد سليمان بن خلف (٤٠٣ - ٤٧٤ هـ) كان أعظم علماء المالكية في الاندلس ، وأعظمهم نتاجا في عصره ، له ترجمة جيدة في تاريخ دمشق لابن عساكر .
- ١٧ - زيادة اقتضاها السياق .
- ١٨ - سورة فصلت - الآية : ٤٢ .
- ١٩ - سورة الاعراف - الآية : ٤٣ .
- ٢٠ - سورة آل عمران - الآية : ٥٨ .
- ٢١ - سورة المؤمنون - الآية : ٥١ .
- ٢٢ - سورة النساء - الآية : ١٦٥ .
- ٢٣ - سورة النساء - الآية : ١٥٧ .
- ٢٤ - سورة التوبة - الآية : ٣٣ .
- ٢٥ - سورة هود - الآية : ٨٨ .
- سورة البقرة - الآية : ٢٠ .
- ٢٧ - سورة الاسراء - الآية : ٨٨ .
- ٢٨ - سورة الفرقان - الآية : ٢٧ .
- ٢٩ - سورة النبا - الآية : ٤٠ .
- ٣٠ - سورة هود - الآية : ١٨ .
- ٣١ - سورة آل عمران - الآية : ٦٤ .
- ٣٢ - سورة آل عمران - الآية : ٦١ .
- ٣٣ - سورة طه - الآية : ٤٧ .

- ٢٤ - من كتاب المجالس والمسائرات للقاخي النعمان ص ٤٤٢ - ٤٤٦ .
- ٢٥ - سورة الأنفال - الآية ٥٨ .
- ٣٦ - سورة الحجرات - الآية ٣ .
- ٣٧ - سورة المائدة - الآية ٥٤ .
- ٣٨ - سورة آل عمران - الآية ١٦٦ .
- ٣٩ - سورة الأنفال - الآية ٣٧ .
- ٤٠ - سورة العنكبوت - الآية ١١ .
- ٤١ - القطيعة عند المغاربة المال المفروض على العدو كل عام ، ويقابله في اصطلاح المشارقة ، الهبة ، ، وكلاهما نوع من أنواع الجزية ضمنت بها المهادنة من المسلمين .
- ٤٢ - سورة التوبة - الآية ٥٢ .
- ٤٣ - من مدن الثغر الأدنى في غرب الأندلس ، قريبة من ماردة - الجغرافية لابن سعيد ص ١٧٩ الروص المعطار للحميري
- ٤٤ - من مدن قشتالة القديمة ، وكانت ضمن بلدان الثغر الأعلى
- ٤٥ - كانت العرب قبل الاسلام ترى أن الهامة طائر يخرج من رأس الميت ، وكانوا يقولون إن الفتيل تخرج هامه من هامته - أي من رأسه - فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله
- لسان العرب .
- ٤٦ - أي التمام - ج تميمه - التي يكتبها الساجر ، ومنها جاء اسم العزام
- ٤٧ - سورة الدھر - الآية ١٤ .
- ٤٨ - سورة التوبة - الآية ٣٢ .
- ٤٩ - كان آل عباد من أسرة رفعت نسبها إلى المأذرة ملوك الحيرة ، الذين كانوا من أصل يمانى ، ومعروف أن حمير التي نسب الملقمون أنفسهم إليها من أصل يمانى ، وكانت دولة حمير آخر دولة حكمت اليمن قبيل ظهور الاسلام ، ولذلك قام ابن عباد بمخاطبة يوسف بن تاشفين هكذا .
- ٥٠ - سورة الفتح - الآية ١٦ .
- ٥١ - سورة التوبة - الآية ١٤ .
- ٥٢ - ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٢٦ ص ٥ .
- ٥٣ - سورة الزمر - الآية ٦٩ .
- ٥٤ - انظر سورة المجادلة - الأيتان ١٢ - ١٣ .
- ٥٥ - الذماء بقية الروح .
- ٥٦ - سورة الأعراف - الأيتان ١٨٢ - ١٨٣ .
- ٥٧ - من كتاب صبح الاعشى للأفلا شندي ج ١٠ ص ٣١ ، نقلا عن رسائل ابن موهبلا كاتب الخليفة القائم
- ٥٨ - سورة آل عمران - الآية ١٠٢ .
- ٥٩ - سورة فصلت - الآية ٤٢ .
- ٦٠ - سورة النساء - الآية ١٠٣ .
- ٦١ - سورة التوبة - الآية ١٨ .
- ٦٢ - سورة الجمعة ، الآية ٩٠ .
- ٦٣ - سورة التوبة - الآية ١٠٣ .
- ٦٤ - سورة البقرة - الآية ٤٤ .
- ٦٥ - سورة آل عمران - الآية ١٥٩ .
- ٦٦ - سورة النحل - الآية ٩٠ .

- ٦٧ - سورة آل عمران - الآية ١١٠ .
٦٨ - سورة النساء - الآية ١٢٣ .
٦٩ - سورة النساء - الآية ٥٨ .
٩٦ - سورة النساء - الآية ٥٨ .
٧٠ - سورة البقرة - الآية : ٢٢٩ .
٧١ - سورة المائدة - الآية ٢ .
٧٢ - سورة المائدة - الآية : ٣٣ .
٧٣ - سورة الأنفال - الآية : ٦٠ .
٧٤ - سورة الأسراء - الآية . ٣٤ .
٧٥ - سورة المطففين - الآية ١ .
٧٦ - سورة الأنفال - الآية : ٤١ .
٧٧ - سورة إبراهيم - الآية ٧ .
٧٨ - نقلا عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ١٠٢٠ .
٧٩ - سورة المائدة - الآية : ٣٢ .
٨٠ - كذا بالأصل ولا وجه لها .
٨١ - سورة آل عمران - الآية ١٧٣ .
٨٢ - سورة البقرة - الآية : ١٢٣ .
٨٣ - سورة النساء - الآية . ٥٩ .
٨٤ - سورة آل عمران - الآية . ٣٠ .
٨٥ - سورة الأحزاب - الأيتان : ٧٠ - ٧١ .
٨٦ - سورة النور - الآية : ٥٥ .
٨٧ - سورة النساء الآية : ٥٩ .
٨٨ - نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠ .
٨٩ - سورة الحجرات - الآية : ٩ .
٩٠ - سورة الإنسان - الآية : ٢٠ .
٩١ - نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠ .
٩٢ - سورة هـ - الآية : ٢٦ .
٩٣ - سورة الحج - الآية . ٤١ .
٩٤ - سورة الأحزاب - الآية . ٧٢ .
٩٥ - سورة الأحزاب - الآية : ٧٢ .
٩٦ - سورة الناريات - الآية : ٢٣ .
٩٧ - سورة المائدة - الآية : ٧٩ .
٩٨ - سورة الكهف - الآية . ٤٩ .
٩٩ - سورة الفرقان - الآية ٧٠ .
١٠٠ - سورة الأحقاف - الآية : ٢٠ .
١٠١ - سورة طه - الآية : ١٣١ .
١٠٢ - سورة التوبة - الآية . ٦٠ .
١٠٣ - سورة مريم - الآية : ٤٠ .
١٠٤ - سورة القيامة - الآية : ٢٩ .
١٠٥ - سورة القيامة الآية ١٩ .
١٠٦ - سورة آل عمران - الآية : ١٦٩ .
١٠٧ - سورة التوبة - الآية : ١١١ و

- ٩٢٥ -

- ١٠٨ - سورة الصدف - الآية ١٠ .
- ١٠٩ - سورة الاحزاب - الآية ٢٣ .
- ١١٠ - سورة التوبة - الآية ٢٩ .
- ١١١ - سورة الانعام - الآية ٥٤ .

جريدة بأهم المصادر والمراجع

- المصادر :
- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) .
- كتاب التكملة . القاهرة ١٩٥٦ م .
- الحلة السيرة ، جزءان ، تحقيق د . حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٣ م .
- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي . القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٣ م) .
- الكامل في التاريخ . بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ابن الأحمر (اسماعيل) بيوتات فاس الكبرى - الرباط ١٩٧٢ .
- ابن أبي أصيبعة :
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٠ ، ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م .
- الأصفهاني :
- خريدة القصر وجريدة العصر . قسم المغرب والاندلس . تحقيق محمد المرزوقي - محمد العمروسي المطوي - الجيلاني بن الحاج يحيى . تونس ١٩٧١ م .
- اماري ميشيل :
- المكتبة العربية الصقلية ، ليبزغ ١٨٧٥ م .
- البكري : عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٨٤ م) .
- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (نشره دي سلان وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك . الجزائر ١٩١١ م) .

- ابن بسام : أبو الحسن الشنتريني (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م) .
- النخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م) .
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ م .
- البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري) .
- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين . تصحيح وترجمة لافي بروفنسال باريس ١٩٢٨ م .
- التطيلي .
- ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ م .
- ابن تغري بردي .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٥ م .
- جان وجيروم طارو :
- أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب . ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي . الرباط ١٣٤٩ هـ .
- ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) .
- رحلة ابن جبير . القاهرة ١٩٥٥ م .
- الجزنائي : أبو الحسن علي .
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل . الجزائر ١٩٢٣ م .
- ابن الحداد الأندلسي .
- ديوان ابن الحداد الأندلسي . تحقيق يوسف علي طويل . بيروت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
- الحموي (ياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

- معجم البلدان . دار صادر بيروت .
- الحميدي . أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله
(ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) .
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس . تحقيق محمد بن تاووت
الطنجي ، القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م .
- الحميري : (عبد المنعم السبتي) توفي أواخر القرن التاسع
الهجري) .
- الروض المعطار في أخبار الأقطار . تحقيق إحسان عباس ،
بيروت ١٩٧٥ م .
- صفة جزيرة الأندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة
١٩٦٢ م .
- ابن حوقل .
- صورة الأرض ، لندن ١٩٢٨ م .
- ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد القيسي الأشـبيلي
(ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٤ م) .
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان . في طبعتين ، الطبعة الأولى
صدرت بالقاهرة . ١٣٢٢ هـ الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان
الحريري ١٢٧٧ هـ .
- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله
(ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) .
- أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام .
نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الأندلس في بيروت ١٩٥٦ م ، تحقيق
ليفى بروفنسال ، وبعنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . ونشر
الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، في الدار البيضاء
عام ١٩٦٤ م ، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ،
بعنوان « تاريخ المغرب في العصر الوسيط » .
- الاحاطة في أخبار غرناطة . حققه محمد عبد الله عنان .
القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- رقم الحال في نظم الدول ، تونس ١٣١٧ هـ .

- ابن خفاجة . تحقيق السيد مصطفى غازي ،
الاسكندرية ١٩٦٠ م .
- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد
(ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .
- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ١٠ ، ٤ ، ٦ ، طبعة بيروت
١٩٥٩ م ، ١٩٦١ م .
- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد
(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق محيي الدين عبد
الحميد .
- القاهرة ١٩٥٠ م ، طبعة أخرى تحقيق إحسان عباس ،
بيروت ١٩٦٨ م .
- ابن أبي بinar : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني
(أواخر القرن الحادي عشر الهجري) .
- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ،
تونس ١٩٦٧ م .
- ابن دراج القسطلي :
— ديوان ابن دراج القسطلي . نشر محمود مكي ،
دمشق ١٩٦١ م .
- ابن أبي زرع الفاسي :
— الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب
وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣ م .
- الزجالي :
— أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة ، فاس
المغرب ١٩٧١ م .
- الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (القرن
التاسع عشر) .
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ،
تونس ١٩٦٦ م .

- ابن زيدان :
- العز والصلوة في معالم نظام الدولة - نشر عبد الوهاب بن منصور . الرباط ١٩٦١ م .
- الزيري : (الأمير عبد الله بن بلقين الزيري) .
- مذكرات الأمير عبد الله ، المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر ١٩٥٥ م .
- رسائل أندلسية . تحقيق د . فوزي عيسى . كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٨٩ م .
- رسائل ومقامات أندلسية . تحقيق فوزي سعد عيسى . ابن رشد :
- مسائل أبي الوليد بن رشد . تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني . لنيل درجة الماجستير . دار الحديث الدسنية . الرباط مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧ م .
- ابن رشد القرطبي :
- المقدمات الممهدات . جزان . تحقيق سعيد أعراب . بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ابن سعيد المغربي :
- بسط الأرض بالطول والعرض . تحقيق خوان قرنيط خينيس . تطوان ١٩٥٨ م .
- المغرب في حلى المغرب . جزان ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- السلوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣٥١ هـ / ١٨٩٧ م) .
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ م .
- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (٥٩٤ هـ / ١١٠٢ م) .
- تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي .
- الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) .

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧ م .
- الطرطوشي : أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ / ١١٣٥ م) .
- الحوادث والبلدع . تحقيق محمد الطالبي . تونس ١٩٥٩ م .
- سراج الملوك . تحقيق جعفر البياتي . لندن .
العالمي :
- الزهرات المذثورة في نكت الأخبار الماثورة . تحقيق محمود علي مكي ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، مصر الجديدة ، نوفمبر ١٩٧٨ م .
- ابن عبد ربه :
- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ م
ابن عبد الرفيح :
- معين الحكام على القضايا والأحكام . تحقيق محمد بن قاسم ابن عياد ، بيروت ١٩٨٨ م .
- ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي :
- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفي بروفنساك ، المعهد العلمي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .
- ط ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة هسبيرس ١٩٦١ م .
- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . القسم الثالث . عني بنشره امبروسي هويس مراندة ، محمد بن تاويت ، محمد إبراهيم الكتاني . تطوان ١٩٦٠ م .
- ابن العربي : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) .
- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص) . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٧١ م .

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المالك وسياسة المالك ،
تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨٧ م .
المجيلدي :
- كتاب التيسير في أحكام التسعير . تحقيق موسى لقبال ،
الجزائر ١٩٨٢ م .
- المراكشي . ابن عبد الملك (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م) .
- النيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السـفـرـيـن الـرـابـع
والخامس . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ م .
- المراكشي . عبد الواحد (كان حيا في الربع الاول من القرن
السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي) .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان
ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ م .
- مقديش : - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار .
تحقيق علي الزواوي . محمد محفوظ ، بيروت ١٩٨٨ م .
- المقري . شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني
(ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان
الدين بن الخطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . بيروت .
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق عبد السلام
الهراس وسعيد أحمد أعراب . المحمدية ١٩٨٠ م .
- المكناسي .
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس .
الرباط ١٩٧٣ م .
- الملزوزي (عبد العزيز) نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء
والملوك - الرباط ١٩٦٣
- مؤلف مجهول
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . حققه د . سهيل
زكار . أ . عبيد القادر زمـامة . الدار
البيضاء ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

- مؤلف مجهول :
- الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية ، الجزائر ١٩٢٠ م .
مؤلف مجهول .
- كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس . تحقيق أمبروزيو أويشي
ميراندا ، مدريد ١٩٦٥ م .
مؤلف مجهول :
- مفاخر البربر . تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ م .
الذباهي :
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . القاهرة .
الذويري : شهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
- نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب ، القاهرة .
الونشريسي :
- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية
والأندلس والمغرب . نشر وزارة الأوقاف . المملكة المغربية
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- المراجع :
ابراهيم المفيدي محمود - بنوزيري وعلاقتهم السياسية
بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط . القاهرة ١٩٨٩ .
أحمد أمين . ظهر الاسلام . القاهرة ١٩٥٣ م .
أرسلان (شكيب) الحلل السندسية في الأخبار والآثار
الأندلسية ، جزآن ، القاهرة ١٩٣٦ م .
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر
المتوسط . القاهرة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)
ارشيبالد لويس . القوى البحرية والتجارية في حوض البحر
المتوسط .
ترجمة محمد أحمد عيسى .
أرنست كوندل . الفن الاسلامي . ترجمة أحمد موسى ،
بيروت ١٩٦٦ م .

- اسرائيل وفندسون . موسى بن ميمون . القاهرة ١٩٣٦ م .
اعراب (سعيد) مع القاضي ابي بكر بن العربي .
بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
اشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين .
جـزآن ، ترجمة محمد عبد الله عنان .
القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١ م .
الأصيصي . الشرطة في النظم الإسلامية والقوانين
الوضعية . دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون .
طرابلس ١٣٩٩ هـ / ١٩٩٠ م .
البتدوني (محمد ابيب) رحلة الأندلس . ترجمة محمود عبد
العزيز سالم ، القاهرة .
البعلي (فؤاد) فلسفة اخوان الصفا الاجتماعية
والأخلاقية . بغداد ١٩٥٨ م .
بوز (فارس) الأوضاع الداخلية للأندلس وعلاقاتها
بالمغرب في ظل المرابطين . رسالة ماجستير . دمشق .
التازي . التاريخ الدبلوماسي للمغرب . المجلد الخامس .
جزآن ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
التليدي . المطرب في مشاهير أولياء المغرب ،
طنجة ١٩٨٧ م .
الحجي . التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ،
بيروت ١٩٧٦ م .
حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤
القاهرة ١٩٦٧ م .
حسين . تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين دولة علي
ابن يوسف المرابطي ، الاسكندرية ١٩٨٦ م .
حمادة . الوثائق السياسية والإدارية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨١ .
بندش . أضواء جديدة على المرابطين ، بيروت ١٩٩١ م .
بندش . الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر
الطوائف الثاني . دار الغرب الإسلامي ،
بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- دوزي . ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام . ترجمة
كامل الكيلاني ، القاهرة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م .
ديورانت . قصة الحضارة ج ٤ . ترجمة محمد بدران ،
القاهرة .
- ريزو (جوزيف) الفتوحات الاسلامية في فرنسا وإيطاليا
وسويسرا . بيروت ١٩٨٤ .
- زغلول . محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب
والاندلس ، بيروت ١٩٧٣ م .
- زكار ، التاريخ العباسي والاندلسي ،
دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨٢ م .
- سالم (سحر عبد العزيز سالم) مدينة قانس ودورها في التاريخ
السياسي والحضاري كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٠
- سالم (عبد العزيز السيد سالم) محمد أبو الفضل . تاريخ مدينة
المرية الاندلسية . الاسكندرية ١٩٨١ م .
- شرارة (عبد اللطيف) أبو الوليد ابن زيدون ،
بيروت ١٩٨٨ م .
- الشكعة . الأدب الاندلسي . بيروت ١٩٧٢ م .
- الشيخ (محمد محمد موسى) دولة الفرنجة وعلاقتها
بالأمويين في الاندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي .
الاسكندرية ١٩٩٠
- طرخان المسلمون في أوروبا العصور الوسطى ،
القاهرة ١٩٦٦ م
- العبادي . دراسات في تاريخ المغرب والاندلس .
الاسكندرية ١٩٦٨ م .
- العبادي . الصقالبة في إسبانيا ، مدريد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .
- العبادي . صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ،
القاهرة ١٩٥٣ م .
- علام . دولة الموحدين بالمغرب في عهد المؤمن بن علي .
القاهرة ١٩٧١ م .

- عنان . أندلسيات . الكتاب العشرون ١٩٨٨ م .
عنان . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، وهو
العصر الثالث من كتاب دولة الأسلام في الأندلس ،
القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
عنان . نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . العصر
الرابع من كتاب دولة الأسلام في الأندلس .
القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
غنيم (أسست) الامبراطورية البيزنطية وكريت
الاسلامية - جدة ١٩٧٧ .
فازلييف - العرب والروم . القاهرة (دار الفكر العربي) .
قربه (صالح بن) المسكوكات المغربية . الجزائر ١٩٨٦ .
كول (ماك) الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة
وغانة . الدار البيضاء (دار الثقافة)
لقبال (موسى) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب . نشأتها
وتطورها . الجزائر ١٩٧١ .
محمود (حسن أحمد محمود) قيام دولة المرابطين .
القاهرة ١٩٥٧ م .
محمود (منى حسن) المسلمون في الأندلس وعلاقتهم
بالفرنجة . القاهرة ١٩٨٦ .
مؤنس (حسين) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في
الأندلس . القاهرة ١٩٨٦ م .

المحتوى

- ٣ - توطئة
- ٥ - الفصل الأول - المغرب والاندلس من الفتح حتى العصر المرابطي
- ٨ - فتح المعري
- ٢١ - فتح الاندلس والتوسع في اورية
- ٣٦ - عصر الولاة
- ٥٨ - عصر الامارة الاندلسية
- ٦١ - عبد الرحمن الداخل
- ٧٣ - هشام الرضا
- ٧٥ - الحكم الربضي
- ٨٠ - عبد الرحمن الثاني
- ٨٤ - من الامارة الى الخلافة
- ٩٥ - عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة
- ١٠٠ - الحكم الثاني
- ١٠٢ - هشام الثاني والاسترداد العامري
- ١٠٧ - الفصل الثاني - قيام حركة المرابطين
- ١٣٧ - الفصل الثالث - يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجوار الاول الى الاندلس
- ١٨٦ - الفصل الرابع - يوسف بن تاشفين وتوحيد الاندلس وازالة دولة الطوائف
- ٢٠٩ - الفصل الخامس - العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط
- ٢٤٤ - ملحق الكتاب
- ٢٤٦ - اسد بن الفرات
- ٢٤٩ - جرجي الانطاكي
- ٢٥٢ - جعفر بن محمد الكلبي
- ٢٥٥ - جعفر بن يوسف الكلبي (تاج الدولة)
- ٢٥٦ - جوهري الحدالي
- ٢٥٩ - الحسن بن علي - الوزير البزاروي
- ٢٩٥ - الحسن بن عمار الكلبي
- ٣٠١ - محمد بن حسن الكلبي
- ٣٠٢ - واحاح بن رلو
- ٣٠٣ - رسالة حوايية من الخليفة الحكم المستنصر الى الاميراطور البيزنطي ثيوفيل
- ٣٠٦ - رسالة الراهب يشوع ورد الناحي عليها
- ٣٢٦ - رسالتا المهر لنيين الله الفاطمي الى الاميراطور البيزنطي هشام كريت والى كافور الاحشيدي حول الشأن نفسه
- ٣٢٧ - رسالة من الخليفة لحافظ الفاطمي الى روجر المتغلب على صقلية
- ٣٣٦ - تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن انتخابه للقب امير المسلمين
- ٣٣٧ - رسالة حوايية من المتوكل على الله بن اللفطس الى الفودسة السادس
- ٣٣٩ - رسالة المتوكل على الله بن اللفطس الى يوسف بن تاشفين يستنجد به

- ٣٤١ - رسالة من الفوذسو السادس الى المعتمد بن عباد وجوابه عليها
- ٣٤٤ - رسالتا استصراخ من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين وجوال يوسف عليهما
- ٣٤٩ - رسالة من الفوذسو السادس الى يوسف بن تاشفين
- ٣٥٠ - رسالتا بشارة بنصر الزلاقة من المعتمد بن عباد الى اهل اشبيلية
- ٣٥٣ - رسالتا بشارة بنصر الزلاقة ارسلتا الى اشبيلية
- ٣٥٦ - رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري إلى المعتمد بن عباد بعد نصر الزلاقة
- ٣٥٨ - الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين الى اشياخ المغرب حول معركة الزلاقة
- ٣٦٠ - رسالة يوسف بن تاشفين إلى الزيريين في الفريقية
- ٣٦٦ - رسالة من يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله احمد بن يوسف بن هود
- ٣٦٧ - رسالة البابا غريغوار السابع الى صاحب قلعة بني حماد
- ٣٧١ - عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين
- ٣٨٤ - نص المذكرة التي رفعها ابن العربي الى الخليفة المستظهر
- ٣٩٤ - الخطاب الذي وجهه ابن عربي الى حجة الاسلام الامام الغزالي
- ٣٩٨ - رسالة الغزالي الى يوسف بن تاشفين
- ٤٠٢ - رسالة من الامام الطرطوشي الى يوسف بن تاشفين
- ٤١٣ - الحواشي والهوامش
- ٤٣٠ - جريدة المصادر والمراجع

